الجانب المادي في الشخصية اليهودية في القرآن الكريم

إعداد

آلاء "محمد عصام" مصباح عشا

المشرف

الدكتور أحمد نوفل

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في

التفسير

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

آب، ٢٠٠٧

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة (الجانب المادي في الشخصية اليهودية في القرآن الكريم)
وأجيزت بتاريخ: ١/ ٨ /٢٠٠٧م

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الدكتور أحمد نوفل... مشـــــرفاً أستاذ مشارك التفسير - أصول الدين	------------
الدكتور مصطفى المشني ...عضواً أستاذ التفسير – أصول الدين	------------
الدكتور محمد الخطيب ...عضواً أستاذ العقيدة – أصول الدين	------------
الدكتور محمد الزغول...عضواً أستاذ مشارك التفسير– أصول الدين (جامعة مؤتة)	------------

الإهداء

إلى روح جدي الحبيب الحافظ لكتاب الله ، الذي كرس حياته في تلاوة القرآن وكنف التفسير ، و لم يخش في الله لومة لائم ، وما زال صدى صوت بكائه ومناجاته في الليل في أذني يذكرني بالطريق

وإلى جدتي الكريمة" شفاها الله" التي ربتني ، وقدمت كل شيء في سبيل سعادتي وسعادة كل من حولها كشمعة مضيئة . .

وإلى والدي الغالي الذي وفر لي كل أجواء إسلامية في بيتي ومدرستي منذ صغري وطوال رحلتي ، متعه الله بالصحة والعافية . .

وإلى والدتي الحنونة التي قدمت لي كل رعاية وتوجيه ، ووضعتني على أول الطريق ، أسأل الله أن يقر عينها بجميع أبنائها . .

وإلى زوجي العزيز ، نعم الزوج والأنيس الصالح ، الذي قدم لي كل دعم وعون ، ولن أنس فضله يوماً ، وسهره يشاركني الهمّ والأعباء

وإلى أبنائي قرة عيني عمر وحذيفة أعزهم الله بالإسلام و ورفعهم الله بالعلم والتقوى ، وأعز الإسلام على أيديهم

أهدي هذه الرسالة ،،،

شكر وتقدير

يطيب لي أن أتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة أستاذي المشرف الدكتور أحمد نوفل على متابعته لهذا العمل كما وأتقدم بالشكر والتقدير لفضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى المشني الذي لفت نظري إلى هذا الموضوع في إحدى محاضراته القيمة ، وإلى أساتذتي الأفاضل فضيلة الأستاذ الدكتور محمد المجالي ،والدكتور عبد الكريم وريكات الذين قدما لي النصح والإرشاد في البدايات الصعبة لإعداد الخطة ،

ولا أنسى أساتذتي في مرحلتي الجامعية الأولى وخاصة د . محمد عياش الكبيسي الذي كان نعم العالم والداعية القدوة . . و د . جمال أبو حسان الذي فتح لي ولطلابه آفاقاً رحبة في عالم التفسير ،مما شجعني على مواصلة الطريق

وإلى الأساتذة الأفاضل في لجنة المناقشة كل الشكر والعرفان على توجيهاتهم القيمة ، وهم :

فضيلة الأستاذ الدكتورمصطفى المشني ، وفضيلة الأستاذ الدكتور محمد الخطيب ، وفضيلة الاستاذ الدكتورمحمد الزغول والتي أسأل الله أن ينفعني بها

كما أشكر كل الذين قاموا بتدريسي ، ونهلت من علومهم ، وجميع أساتذة الشريعة الكرام . .

وأسأل الله أن يجعله في ميزان حسناتهم جميعاً وأن ينفع بهم الأمة

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الجانب المادي في الشخصية اليهودية في القرآن الكريم

إعداد الطالبة الآء "محمد عصام" مصباح عشا

إشراف الدكتور أحمد نوفل

ملخص

هذه الرسالة دراسة موضوعية في تفسير القرآن الكريم ، لجانب في الشخصية اليهودية كما عرضها القرآن ، وهو الجانب المادي ، أهدف من خلالها رسم صورة متكاملة للأبعاد المادية لهذه الشخصية اليهودية من خلال تصوراتها الفكرية ، وانعكاساته على أسلوها في الحياة .

بدأتُ الرسالةَ بتمهيدٍ عالجتُ فيه عنوانَ الرسالة من خلال مفهوم الشخصية والمادية وبينتُ فيه الأصلَ اللغوي والاصطلاحي لكلمة اليهود ، وجذور هذه الكلمة ، ومقصودها في السياق القرآني وعلاقتها بمسمى " بني إسرائيل " وما يحملان من دلالات ، وتوصلت إلى فروق لطيفة بينهما .

وقد جاء الموضوع على فصلين :

الفصل الأول : تحدثتُ فيه عن المادية اليهودية كما أبرزها الفكر اليهودي من خلال نماذج لإيضاءات قرآنية تعكس جوانب مادية فيما حملوه من تصورات حول الإله والنبوة والمعجزات واليوم الآخر ، وقد دعمت حديثي بمقتطفات سريعة لآراء علماء النفس ، وشيء مما سطروه في كتبهم ، لأخرج من هذا الفصل بما يصلح أن يكون شاهداً توثيقياً على مقدار تغلغل المادية في فكرهم ، وتشربها في قلوبهم إلى الدرجة التي أوصلتهم إلى فقدان إحساسهم بالمعنويات .

وفي الفصل الثاني وقفتُ على نماذجَ قرآنيةً تصلح دليلاً فعلياً على حقيقة مادية اليهود من خلال ما صورته الآيات الكريمة من أحداث شخصت طبيعة سلوكهم ، ومعاييرهم في تفاعلهم مع مختلف شؤون حياتهم ، الاجتماعية والاقتصادية ، ليبرز في هذا الفصل تميزهم وشذوذهم كفصيل آدمي قاد حملة العداوة للدين والفطرة الإنسانية .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن رحمة للعالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على خاتم الأنبياء والمرسلين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد

فقد أكرمني الله بشرف العيش بأجواء العلم الشرعي وفي كنف التفسير وأهله ممن يتدارسون كتابه ، وينهلون من نفحاته ، وأنا على ضعفي وتقصيري ما كنت لأحظى بهذا الشرف العظيم لولا واسع منّه وفضله ، وإني أقف – في بحثي المتواضع هذا – على علاج جزئية معينة تناولتها آياتٌ كريمة وتدبرها ، ودراسة مادتها ضمن إطار موضوعي ، وذلك سعياً في استلهام آفاق جديدة لتدبر القرآن ذلك أن الدراسة التي أنوي عرضها إنما هي رؤية من منظور اجتهادي يسعى من خلالها الباحث والمتدبر للبحث عن خيوط خفية تربط بين الآيات وموضوعاتها من جهة، و علاقة هذه الموضوعات ومناسباتها ، برؤية شمولية للآيات وسياقها الخاص (ضمن السورة) أو سياقها العام (ضمن السور ككل) .

أهمية الموضوع :

إن القارىء لكتاب الله تعالى لا يحتاج إلى من يلفت نظره للكم الهائل من الآيات القرآنية التي عالجت موضوع أهل الكتاب وبخاصة اليهود فكانت الدراسة في شتى المواضيع التي تخصهم تحقيق لأمرٍ مهم من مقاصد التدبر المطلوب ، فكيف بالذي يجعل القرآن منطلقه وقاعدته في الدراسة فلعل هذا- بإذنه تعالى – أقرب في تحقيق العبادة المأمور بها في كتابه تعالى : { أفلا يتدبرون القرآن } .

ومما يزيد الموضوع استدعاءاً أن عصرنا الذي نعيشه ، والذي تتفاعل فيه الأحداث بصورة سريعة وكبيرة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، قد أخذ أهل الكتاب بشقيهم مساحة واسعة في تشكيلها وصناعتها بل والانزلاق بها نحو التخبط والهلاك .

ونحن الأمة المأمورة بقيادة الأمم وتمثيل الخلافة على الأرض لإنقاذ البشرية بتنا في أمس الحاجة لدراسة واقعنا المرير بالرؤية الصحيحة غير العشوائية ، التي تستلهم طريقها وفق منهج محدد منضبط ، يتحرك بمعايير الإسلام كما رسمها لنا قرآننا .

والحقيقة أن هذا النموذج الإنساني الذي ابتدأ (ببني إسرائيل) وانتهى (باليهود) لم يكن لأمة من الأمم حظ في تناول القرآن الكريم في تفصيل نشأهما وتاريخ تكوينها وبيان أحوالها وطبيعة نفوس أفرادها كما كان لهم ، ولا شك بأن لهذا حكماً عميقة تتجلى يوماً بعد يوم لذوي القلوب والبصائر

مشكلة الدراسة :

بالنسبة للدراسات التي تناولت اليهود فهي على كثرتها عسيرة على الإحصاء ، خاصة وأن هذا الموضوع الحيوي قد جعل الكثيرين يتناولونه وفق رؤيتهم ومنظورهم الخاص ، فهناك من تناوله بصورة تاريخية أو أدبية أو سياسية أو اجتماعية ... و المكتبة الإسلامية حافلة بمن تناوله بالمنظور القرآني أيضاً .

ولقد رأيت أن اختيار موضوع جزئي لهذه الشخصية أقدر على كشف أفكار في جوهرها ، بصورة أعمق عن مجرد الوقوف على حدود الفكرة العامة للآيات .

وبعد البحث والاستقراء والتتبع للمواضيع المكتوبة وقع اختياري على دراسة جزئية من الشخصية اليهودية وهي فيما يخص (الجانب المادي) لهذه الشخصية ،كما عرضتها الآيات تلميحاً وتصريحاً، والتي أزعم - فيما يبدو لي - أنها بقيت حتى الآن مبثوثة على شكل إشارات ولفتات لمن تناولها من واقع القرآن الكريم أو ضمن الإطار الفكري والأدبي البحت .

أما هذا الموضوع فقد آثرته تحديداً لكونه في نظري يشكل أبرز سمة تمثلت بها الشخصية اليهودية ، وهو من أهم الجوانب التي تناولها القرآن الكريم تلميحاً وتصريحاً أثناء عرضه للشخصية اليهودية .

الهدف :

لذلك أحببت أن اظهر هذه الدراسة من خلال القرآن الكريم في عرض سمات الشخصيات ودراستها دراسة موضوعية بغية إظهار شيء يسير من هذا العمق والثراء الذي حملته الآيات الكريمة بين طياتها ، وإبراز صورتها المطلوبة وفق معطياتها وأبعادها ، ولعلي بهذا الجهد المتواضع أضيف شيئاً جديداً يصب نحو فهم أعمق لهذه الشخصية .

■ **منهجي في البحث**

الأسلوب المستخدم في العرض هنا هو أقرب إلى المنهج الاستقرائي التحليلي من ناحية جمع العناصر المشتتة و دراسة طبيعتها ووظائفها ليركب منها نظرية أو قواعد معينة ، و استخدمت من خلال هذا المنهج عمليتين :

الأولى : العملية التفسيرية على المستوى البسيط

الثانية : العملية التفسيرية على المستوى المركب من خلال تعليل الظواهر .

وبخصوص طريقة العرض ، فقد تمت بأسلوب اختيار النماذج ، وذلك خشية التكرار ، والوقوع في دوامة إعادة انجاز ما تم إنجازه ، أما الضابط المنهجي لهذا الاختيار فقد قام على انتقاء النموذج الذي يصلح في التدليل، على أساس مناسبته في كونه كافياً وافياً في معالجة المطلوب

وسألتزم – إن شاء الله – بالنسق القرآني في العرض والتفسير ، مع التدليل بشواهد من كتب اليهود وواقعهم -إن لزم الأمر - بعيداً عن حشو انطباعات توراتية أو تاريخية ، أو ملء تلك الفجوات التاريخية التي سكت عنها القرآن بروايات مشتِتةٍ تبعدنا عن الصورة والهدف .

خطة الرسالة :

وقد تضمنت رسالتي تمهيداً ، وفصلين وخاتمة :

التمهيد ، وقد عنونت له بثلاثة عناويين ، تتعلق مباشرة في تحديد المفاهيم بما يخدم عنوان الرسالة مباشرة

الفصل الأول : الجانب المادي في الاعتقاد عند اليهود كما يصوره القرآن الكريم ، ويحتوي على أربعة مباحث، تتناول على الترتيب : التصور اليهودي المادي نحو الإلهيات ، النبوات ، المعجزات ، واليوم الآخر

المبحث الأول : المادية اليهودية في تصورها للإلهيات ، وقد تناولت فيه عدة مطالب : المطلب الأول حول موضوع التجسيد الحسي للإله المصور في" الذات والصفات" من خلال :صورة الإله كما يراها الفكر اليهودي و الرد القرآني على إلحاق اليهود صفات النقص بالله ، مثلت عليها بنماذج كشواهد حقيقة تظهر حقيقة التصور اليهودي التي جسدت الإله تجسيداً حسياً ، وألحقت به صفات النقص البشرية

وفي المطلب الثاني : التقليد الوثني وعلاقته بعشق اليهود للمادة ، دللتُ بشواهد على صور من التقليد الوثني في كتبهم كعبادة الحية والملائكة والطقوسٌ الوثنية في القرابين ، ثم بينت رد التناقض في (التصور اليهودي للإله) وطبيعة علاقته بالشخصية اليهودية المادية ، لأنهي هذا المطلب بموضوع المادية اليهودية ومظاهر التشديد في الأحكام والعبادات .

واخترت الحديث في المطلب الثالث عن المنطق اليهودي المادي في فهم المصطلحات العقدية : تناولت نماذج من المصطلحات العقدية عبر عنها اليهود بأنفسهم تعبيرات عزلتها عن مضمون معانيها الأصيلة، وأتبعتها بنماذج قرآنية للإخفاق اليهودي في إدراك دلالات الرموز والمعاني القدسية .

المبحث الثاني : " الجانب المادي في النبوة عند اليهود كما يصوره القرآن الكريم" وهو من مطلبين : المطلب الأول حول النظرة اليهودية إلى موسى عليه السلام ، افتتحته بتوطئة عن : نظرتهم إلى موسى من خلال التوراة ، تناولت فيها ثلاث نصوص توراتية رئيسية تتحدث مباشرة عن علاقة موسى عليه السلام بالرسالة ، لأنتقل بعدها مباشرة إلى المطلب الأول الذي يختص بالنظرة اليهودية المادية إلى موسى عليه السلام في العرض القرآني، وقد تناولت فيه ثلاثة نماذج :النموذج الأول : في الشخصية اليهودية أول عهدها مع موسى عليه السلام كنبي ، والنموذج الثاني في تصوير القرآن لشخصية اليهودي لحظة التقائها بجمع فرعون ، أبرزت فيه موضوع "الطلب" اليهودي من موسى وانعكاسه بشخصيتهم المادية ، والنموذج الثالث : وقفة سريعة مع هارون عليه السلام وفق

الرؤية اليهودية انتقيت منه ما أوردوه في كتبهم حول علاقته بحادثة عبادة العجل أثناء الميقات ، على عكس صورته التي عرضها القرآن .

أما المطلب الثاني : النظرة اليهودية المادية كما عرضها القرآن لأنبياء من بني إسرائيل تحدثت فيه عن ثلاثة أنبياء كرام ، هم أبرز من عرفوا باحتكاكهم المباشر والقوي مع بني إسرائيل ، وهم داوود وسليمان وعيسى عليهم السلام .

وقد تحدثت من خلال هذا المطلب عن تقدير الله للنبيين الكريمين : داوود وسليمان ومقارنته بالتصور اليهودي عنهما ، ثم أمرهم مع عيسى عليه السلام ،

وأتبعته بمسألتين : الأولى عن اقتران صورة الأنبياء مع أقبح الكبائر ، وعالجت علاقة ذلك بالمادية اليهودية ، من خلال طبيعة النظرة للنبي في العهد القديم ، ووظيفة النبي كما يعكسها الفكر اليهودي ، والمسألة الثانية في قتل الأنبياء ، عالجت فيها ظاهرة الإجرام المتكرر ضد الأنبياء ، وأصل بواعثها في النفس ،كما كشفها القرآن وعبر عنها برسالة (الهوى) ، مع الاستعانة بتحليل علماء النفس في هذا المجال ، لأختم المبحث بخلاصة تحت عنوان المواجهة بين الأنبياء وأصحاب العشق المادي .

المبحث الثالث : النظرة المادية اليهودية للمعجزات : وفيه مطلبان رئيسيان :

المطلب الأول يعالج موضوع كيفية استقبال الشخصية اليهودية المعجزات ، وقد قدمته من خلال خمسة نماذج قرآنية ، بينت من خلالها التفاعل السلبي الذي أظهرته الشخصية اليهودية مع المعجزات ، وكيف قادهم هذا التفاعل نهاية إلى نبذ كتاب الله ، واختيار "السحر" كبديل ، والمطلب الثاني بينت فيه العلاقة المباشرة بين المادية اليهودية والسحر .

المبحث الرابع في **"الجانب المادي لليوم الآخر"** ، ويحوي مطلبين : المطلب الأول : التصور اليهودي لعقيدة البعث والحساب في الفكر اليهودي ، و المطلب الثاني : التصور المادي عن عقيدة البعث عند اليهود في القرآن الكريم ، أما للمطلب الأول ، فقد تناولت فيه مخلفات الفكر اليهودي عن البعث في العهد القديم، ثم عقيدة البعث بين التوراة والإنجيل ، ثم تعليل الباحثين للشكل الذي رسمه اليهودي عن البعث ، و كيف نتصور الشخصية اليهودية من منطلق فكرها عن البعث ، لأنتقل إلى العرض القرآني لموضوع الدار الآخرة عند اليهود الذي عرضته من ثلاثة أوجه : الأول في الزعم اليهودي أنهم لا يعذبون إلا أياماً معدودة ، والثاني في زعمهم الاستئثار باليوم الآخر ، والثالث في تكذيبهم وإنكارهم البعث ، وأظهرت في مسألةٍ التوفيق بين ادعائهم استئثارهم باليوم الآخر ، وبين استبعادهم لفكرة البعث بعد الموت ، في ضوء ما وضحته الآيات القرآنية .

الفصل الثاني : الجانب المادي في الحياة كما يصوره القرآن الكريم : ويحوي أربعة مباحث : **المبحث الأول :** في التصور المادي للقيم والسلوك ، والثاني في التصور المادي للنظام الاجتماعي ، والثالث في المادية اليهودية في ميزان الاقتصاد ، والأخير حول وباء المادية وواقع المجتمعات المعاصرة .

أما المواضيع التي تناولتها في المبحث الأول ، فهي على مطلبين : الأول في التفسير المادي للقيم والمثل حيث تناولت موضوع : القسوة القلبية وعلاقتها بنظرة الشخصية اليهودية للقيم والأخلاق من خلال عرضٍ لمراحل تطور النمط الخُلُقي لدى الشخصية اليهودية ، وكيف أن القيم الإنسانية العليا تسقط أمام مصلحة مادية ، ثم تحدثت عن العلاقة التي تربط الفكر المادي اليهودي بمنطق الصراع ، وأظهرت فيها أنها علاقة حتمية ومباشرة ، أما المطلب الثاني الذي يتحدث عن التصور المادي للسلوك الأخلاقي ، فقد عرجت فيه على منطلق السلوك الأخلاقي في الشخصية اليهودية ، بتقديم نموذج سلوكي عن ملامح الشخصية المادية من خلال طبيعة التحريف اليهودي، وبعده تحدثت عن ملابسات التحريف اليهودي في التصوير القرآني والأسلوب المتبع في موضوع التحريف .

والمبحث الثاني بعنوان "التصور المادي للنظام الاجتماعي " من مطلبين : الأول يخص التصور المادي للقيم الاجتماعية : بينت فيه المعيار اليهودي للقيم الاجتماعية ، ثم تطرقت إلى ظاهرة العزلة اليهودية في المجتمع وعلاقتها بالتصور المادي ، ونموذج في قياس طبيعة التصور اليهودي ، من خلال الجُبن اليهودي ، وبعدها اجتهدت في إبراز نماذج قرآنية تكشف جوانب ومعايير من المادية اليهودية ، من سورتي البقرة والحشر .

وأما المطلب الثاني : التصور المادي للسلوك الاجتماعي العام ، فقد عرَضته من ثلاثة محاور : المادية اليهودية ونزعة التمرد ، والمادية اليهودية وأمن المجتمع ، والمادية اليهودية وسلوك الإفساد وأخيراً في الوصف القرآني لطبيعة " المادية اليهودية" في عنصر الإفساد ، لأصل إلى رسم عن الصورة التي تظهر انعكاس الفساد على المجتمع كنيجة حتمية لخيار المادية كمنهج .

المبحث الثالث بعنوان " **المادية اليهودية في ميزان الاقتصاد** " وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول حول "الخصال الجديرة لتمثيل شخصية اليهودي (المادية) في القرآن الكريم" ، وقد مثلتها بخصلتين اثنتين من أشهر ما عرف بهما اليهود عند الناس : البخل والربا

والمطلب الثاني في حقيقة الفساد الاقتصادي اليهودي في القرآن الكريم ، وفيه تحدثت عن أمرين: الأول حول موقع (الأمانة) في النظام الاقتصادي اليهودي ، كما عرضه القرآن ، وقد عرجت فيه على موضوع تجارة القيم ، ثم انتقلت إلى تقديم "قارون" كنموذج يهودي للثري الفاشل في التعامل الإيجابي مع المعادلة الاقتصادية الناجحة

لمجتمعه ، أما الأمر الثاني فقد قدمت فيه مقطعاً من سورة المائدة في دراسة المعايير (التصورية والسلوكية) للانحراف الاقتصادي عند اليهود

وفي المطلب الثالث تحدثت عن إفرازات المادية اليهودية في عالم الاقتصاد المعاصر ، ضمنته اقتباسات لآراء محللين اقتصاديين وباحثين عرب وغربيين تشهد بحجم الفساد الاقتصادي الذي عكسه اليهود على مختلف المجتمعات المعاصرة

ثم تناولت في مبحث أخير موضوع وباء المادية اليهودية وواقع المجتمعات المعاصرة ، تحدثت فيه بشكل موجز عن العقلية اليهودية في خطابها المادي المعاصر للإنسانية ، من خلال أشهر مدرستين معاصرتين في الفكر المادي ، هما مدرسة داروين كنموذج لفكرة (الإنسان الحيواني) ومدرسة فرويد كنموذج لفكرة (الإنسان الجسماني) ، تناولت فيه اقتباسات لآراء فكرية متنوعة تبين عجز المدرستين التام عن تفسير مختلف الظواهر التي ترافق الطبيعة الإنسانية ، ثم تناولت تحت عنوان قصير ، موضوع "مدرسة الفكر المادي في تفسير علاقات أفراد المجتمعات المعاصرة " تحدثت فيه عن فكر الصراع بين الطبقات والتوظيف اليهودي لها (كنموذج) .

كما ضمنت المطالب عدة مسائل ، تثري المواضيع المتنوعة في مكانها ، وقدمت نتائج في نهاية كل المباحث الرئيسية تصلح للتدليل على ما توصلت إليه في مختلف القضايا .

لأَصِل إلى خاتمة الرسالة التي قدمت فيها ما خلصت إليه من أبرز النتائج العامة ، المتعلقة مباشرة بهذه الدراسة .

(أ) بنو إسرائيل واليهود :

لقد تعامل الخطاب القرآني مع اليهود باسمين اثنين هما أشهر ما عرفوا به بين الناس ، الأول : بنو إسرائيل ، والثاني: اليهود .

كما أنه كثيراً ما توجهت الآيات القرآنية إليهم بوصفهم أهل الكتاب[1] مع مشاركة النصارى في نصيب منه ، وبالتأكيد فإن لكل مسمىً تنادوا به حكمة تناسب السياق والموضوع :

---

[1] **نظرة سريعة على "أهل الكتاب" في القرآن :**
استخدم القرآن الكريم صيغة (أهل الكتاب) واحداً وثلاثين مرة في ثماني سور, سبع منها مدنية وواحدة مكية وهي سورة العنكبوت في قوله تعالى : {و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ...(31) }, وواضح من هذه الآية إقرار قاعدة من قواعد الأدب القرآني في طريقة التعامل مع أهل الكتاب أنها تبدأ بالحسنى.
أما السور المدنية فهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأحزاب والحديد والحشر والبينة .
ففي سورة البقرة جاءت آيتان , وكلاهما في بيان ما يكنه أهل الكتاب وخاصة منهم اليهود من عداوة وحسد للمؤمنين (ما يود الذين كفروا ..,.) 105, وقوله تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو ...) 109
والملفت أن أكثر سورة جاء فيها استخدام هذه الصيغة هي سورة آل عمران حيث تكرر فيها لفظ (أهل الكتاب) اثنا عشر مرة نصفها جاء كنداء مباشر ب (يا أهل الكتاب) في الآيات (99,98,71,70,65,64,) , وفي سورة النساء جاء ذكر (أهل الكتاب) متأخراً في الربع الأخير من السورة في الآيات (171,159,153,123) .
وواضح في أول آية جاء فيها ذكر أهل الكتاب في النساء , أن المعنى المقصود عموم أهل الكتاب , حيث إن الأماني قد اشترك فيها اليهود والنصارى , أما الثانية فهي لليهود أقرب وأقوى لقوله تعالى : (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ....) , والثالثة أقرب للنصارى حيث أن سياق الحديث عن سيدنا عيسى عليه السلام , والهاء في قوله (به) عائدة عليه , وجاء النداء في الآية الرابعة مخاطبا لعموم أهل الكتاب بعدم الغلو لاشتراكهم في هذه الصفة .
وفي سورة المائدة تكرر النداء ب (يا أهل الكتاب) خمس مرات من أصل ست مرات ذكر فيها [1] .
وفي سورة الأحزاب حيث الحديث عن أهل الكتاب جاء خاصة في اليهود وخاصة في بني قريظة الذين خانوا العهود وتآمروا مع الأحزاب (آية 26)
وجاء في سورة الحديد (57) , أما في سورة الحشر فقد جاءت مرتين , بصيغة (الذين كفروا من أهل الكتاب) وأجمع المفسرون على أن المقصود هم يهود بني النضير بخلاف سورة البينة التي عنت اليهود والنصارى
وقد وردت صيغة (من أهل الكتاب) إثنا عشرة مرة غالبها في ذم نفاقهم أوحسدهم أو جبنهم أو خيانتهم .. وهناك ثلاث آيات منها فقط جاءت في مدحهم , اثنتان في سورة آل عمران (112, 199) وواحدة في النساء (159) , أما صيغة (أوتوا الكتب) فقد وردت ست عشرة مرة .
والملاحظ أن هناك فرقاً بين (أوتوا الكتاب) و(أوتوا العلم) في السياق القرآني , فهذه الأخيرة أعم لأنه يدخل فيها طائفة موصوفة من أهل الكتاب ومن غيرهم , والفرق الثاني أن أوتوا العلم لا تأتي إلا مع صفات المدح لأصحابها , وقد تكررت في القرآن في تسعة مواضع : 1.سورة النحل(27), 2. سورة الإسراء(107) 3. سورة الحج (54) 4. سورة القصص (80) 5. سورة العنكبوت (49) , 6.سورة الروم (56) 7 . سبأ (6) 8. سورة محمد 9. سورة المجادلة (11)
وجاء في القرآن الخطاب ب (أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ) ثلاث مرات , واحدة في آل عمران واثنتين في النساء , , أما الآيات فهي : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)آل عمران , وقوله : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44)النساء , وقوله : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (51) النساء =
= والمفسرون على أن المراد بالذين أوتوه هم اليهود , والآيات الثلاث في موضع ذمهم , وقد ابتدأت جميعها ب(ألم تر ..) , أما التعبير بالنصيب , والكتاب : التوراة فالتعريف للعهد ، وهو الظاهر عند أكثر المفسرين ، وقيل : هو للجنس .
والنصيب : القسط والحظ , قال أبو السعود : " والتعبيرُ عنه بالنصيب المنبىءِ عن كونه حقاً من حقوقهم التي يجب مراعاتُها والمحافظةُ عليها للإيذان بكمال ركاكةِ آرائِهم حيث ضيّعوه تضييعاً ، وتنوينُه تفخيميٌّ مؤيدٌ للتشنيع عليهم والتعجيبِ من حالهم " (أبو السعود / إرشاد العقل السليم / ج2 / ص 87) وعند ابن عاشور : " وتنكير { نصيباً } للنوعية ، وليس للتعظيم؛ لأنّ المقام مقام تهاون بهم ، ويحتمل أن يكون التنوين للتقليل و { من } للتبعيض ، كما هو الظاهر من لفظ النصيب ، فالمراد بالكتاب جنس الكتب ، والنصيب هو كتابُهم ، والمراد : أوتوا بعض كتابهم ، تعريضاً بأنّهم لا يعلمون من كتابهم إلاّ حظّاً يسيراً ، ويجوز كون مِن للبيان . والمعنى : أوتوا حظّاً من حظوظ الكمال ، هو الكتاب الذي أوتوه "(التحرير والتنوير / ج3 / ص 71) ويعلل صاحب المنار فيما نقلة عن شيخه الإمام عبده : " والتعبير عنه في الآيتين (أوتوا نصيبا من الكتاب) لأنهم لم يأخذوا الكتاب كله , بل تركوا كثيراً من أحكامه لم يعملوا بها , أو زادوا عليها والزيادة فيه كالنقص منه (تفسير المنار / سورة النساء , آية(51) / ج5 / ص136)
وعليه يكون (نصيباً من الكتاب) أي حظاً من علم التوراة ,كما ذكر الزمخشري وابن عاشور , بدليل أن مقام الذم جاء في وصف تفاعلهم مع القرآن حال معاصرتهم لعهد النبي عليه السلام , ولم يكونوا حينها إلا على بواقي اليسير من التوراة التي كان فيها وصف النبي محمد وأحواله
ولا تحمل كلمة أهل الكتاب قيمة تدل على درجة إيمانية معينة , وإنما هي صفة أطلقت على من بعث فيهم هؤلاء الرسل بكتاب الله , سواء آمنوا (أي المبعوث فيهم) أولم يؤمنوا , وقد تدل على اليهود حيناً أو على النصارى ,أو كليهما معاً , وبالتأكيد فإن اختيار النظم الكريم لاستخدامها في مواضعها التي أطلقت فيه , يحمل فوائد ودلالات معينة تخدم الموضوع والسياق

أولاً: بنو إسرائيل :

يدعي اليهود انتسابهم إلى (بني) إسرائيل وهم يفتخرون بهذه التسمية نظراً لدلالتها العرقية ، ودرجوا على تسمِية أنفسهم (بيت إسرائيل) أو (آل إسرائيل) أو (بني إسرائيل) وأحياناً يذكرون اسم (إسرائيل) فقط كما جاء في مأثور التلمود ، وكما ذكر عدد من الباحثين عن وجود ذلك في الوثائق الفرعونية والبابلية والآشورية [1].

وإسرائيل اسم أعجمي[2] أطلق على يعقوب عليه السلام[3]، ويذكر المؤرخون أن هذا الاسم يعود إلى ما قبل الألفية الثانية ، ويطلق على الأسماء تبركاً بها[4] ، ومعناه في اللغة العبرية عبد الرب حيث (إسرا) تعني عبد و(إيل) يطلق على الإله[5] .

ويبدو أن المعنى الذي حرفه كاتبو التوراة في كلمة (إسرا) حيث نقلوها من معناها (عبد) المأخوذ من مفهوم (الأسر) الذي يعني العبودية ، إلى (آسر الرب) ، وذلك في قصة صراع يعقوب المشهورة في سفر التكوين ، حيث جاء فيها ما نصه : " ..وقال (أي الرب) أطلقني ، لأنه قد طلع الفجر ، فقال (يعقوب) :لا أطلقك إن لم تباركني ، فقال : لا يدعى إسمك يعقوب بعد اليوم ، بل إسرائيل (يسرءل) ، لأنك جاهدت - الفعل بالعبرية سره) مع الله (ءل)وفي النص (ءلهيم) - والناس وقدرت ..... " (تكوين 32:23-32)[6] .

وهناك رأي جديد يطرحه بقوّة د. محمد إبراهيم هلال ، حيث يربط بين كلمة (إسراء) وكلمة (إسرائيل) ، فيقول في كتابه : [يأجوج ومأجوج الخزر ... إسرائيل] ما نصه : " من الغريب أن هاتين الكلمتين جاءتا متتاليتين في آيتين متتاليتين في سورة حملت اسمين هما هاتان الكلمتان ، وان إحدى هاتين الكلمتين (إسراء) محتواة بكاملها في الكلمة الأخرى (إسرائيل) ثم لم ينتبه المفسرون إلى العلاقة بينهما ، وهذا بعض ما جنته بعض الروايات المدخولة التي نُقلت إلينا عن اليهود والنصارى بدون تمحيص ... وإسرائيل تعني ببساطة الذي أسرى به الله و لم ينتبه إلى هذا المعنى إلا السهيلي[7] في كتابه :[التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام] ، وعليه فقد أسري بيعقوب كما أسري بعد ذلك بمحمد عليهما السلام . وكان الإسراء بيعقوب لتسليمه وذريته أمانة العهد الإبراهيمي[8] " .

والذي ذكره د. محمد هلال ، غريب في محتواه عما ذُكر في غالب الكتب ، فقد لا يكفي الاعتماد على استنتاجات من بعض التحليلات اللغوية في هذا الشأن ، فحتى نُسند أمراً أو فعلاً للأنبياء ، لا بد أن يثبت لنا

---

[1] - للمزيد حول الوثائق الفرعونية والآشورية , ينظر : عبد الرحمن غنيم / اليهود من القرآن والتوراة ومعطيات التاريخ القديم / ص 17 ,
[2] - لفت د. صلاح الخالدي إلى أن القاموس المحيط للفيروزأبادي لم يورد اسم (إسرائيل) أصلاً , وعلل السبب كونه أعجمياً غير مشتق .
[3] - خالف بعض العلماء جمهور المفسرين في كون المقصود بإسرائيل هو يعقوب , ومنهم الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا حيث اعتبرا أن المقصود هو (شعب إسرائيل) , والأظهر هو رأي الجمهور (ينظر : تفسير المنار / ج4/ ص 3- 4) .
[4] - للمزيد : د.أحمد سوسة / العرب واليهود في التاريخ / ص 411
[5] - د. سيد طنطاوي / بنو إسرائيل في القرآن الكريم / ص13
[6] - ينظر : كمال الصليبي / خفايا التوراة وأسرار شعب بني إسرائيل / دار الساقي / ص 193
[7] - عبد الرحمن الخطيب السهيلي / التعريف والأعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام / مكتبة الأزهر /القاهرة / ط 193م
[8] - د. محمد إبراهيم هلال / يأجوج ومأجوج الخزر ... إسرائيل / ط1/ دار البشير/ ص207

بالنص الصريح والصحيح ، وأيّاً ما كان في معنى الاسم ، فهو بالتأكيد صفة مدح ، ولا يعني المعنى المحرّف الذي قصده اليهود .

ويذكر أستاذ التاريخ عبد الرحمن غنيم نقلاً عن سيَر (ألن غاردنر) أن تسمية (بني إسرائيل) أقدم نص ذكر لها يرد في نص دوّن على مسلة مرنبتاح يعود إلى 1220م [1].

ثانياً : اليهود :

أما عن معنى كلمة (اليهود) وأصل اشتقاقها ، فقد تعددت في تحديدها آراء واجتهادات الفقهاء والمفسرين والمشتغلين بالأنساب والتاريخ ، وفيما يلي ملخص للآراء :

أن أصلها عربي : وهي من (هاد) رجع وتاب ، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام (إنا هدنا إليك) فهو هائد ، والجمع هود ، وهاد فلان نشأ في اليهودية

جاء في معجم مقاييس اللغة :" الهاء والواو والدال أصلٌ يدل على إروادٍ و سكون[2] " .

وقال ابن دريد[3] : "واشتقاق أهْوَد من السُّكون ولين الجانب. وأحسِب اشتقاقَ يَهودَ من هذا ، من قولهم: " إنّا هُدْنا إليكَ " أي لانَتْ قلوبُنا ، والتَّهويد: التَّسكين ، تقول: هوّدتُ الرجلَ من نِفاره، إذا سكّنتَه. والتَّهويد في السَّير من ذلك [4] "

وقيل إن كلمة (اليهود) أصلها (يهود) ، فأدخلوا عليها الألف واللام ، على إرادة النّسب ، يريدون اليهوديين ، ومنه قوله تعالى : {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} الأنعام (146)، أي معناه الذين دخلوا في اليهودية ، وهوّد الرجل : حوله إلى ملة اليهودية .... والتهويد أن يصير الرجل يهوديا [5]، وقيل سموا بذلك الاسم لأنهم يتهودون ، أي يتحركون عند قراءة التوراة [6].

1- ينظر : عبد الرحمن غنيم / اليهود من القرآن والتوراة / ص 17 , نقلاً عن : ألن غاردينر / سير مصر الفراعنة / ص 302

2 - ابن فارس , أبو الحسين احمد بن فارس / معجم مقاييس اللغة / ج6 / ص17

3 - ابن دريد : هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد .... بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، الأزدي اللغوي البصري إمام عصره في اللغة والآداب والشعر الفائق؛ قال المسعودي في كتاب " مروج الذهب " في حقه : " وكان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر ، وانتهى في اللغة، وقام مقام الخليل بن أحمد فيها .. " (مروج الذهب : ج4 / ص320) .. ولابن دريد من التصانيف المشهورة كتاب " الجمهرة " وهو من الكتب المعتبرة في اللغة، وله كتاب " الاشتقاق " وكتاب " السراج واللجام " وكتاب " غريب القرآن " لم يكمله، وكتاب " المجتبى " وهو مع صغر حجمه كثير الفائدة، وكذلك :" الوشاح " صغير مفيد .... الخ (ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان / وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / تحقيق : إحسان عباس /ج4 / ص 323 / الناشر : دار صادر - بيروت

4 - ابن دريد / الاشتقاق / ج1 / ص 170

5 - د. عبد الغني راجح / اليهود بين ظنية الدليل ومادية التأصيل / دار الزهراء / ط1997م / ص152

6 - يراجع : محمد سيد حميد /المدخل لدراسة الأديان / دار الندى / ط1/ 1421– 2001م / ج1/ ص141

وعند الراغب : " .. أنها من الهَوْد، أي الرجوع برفق ، ومنه التهويد وهو مشيٌ كالدبيب ، وصار الهود في التعارف (التوبة) ... ويهود في الأصل من قولهم (هدنا إليك) ، وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم [1] "

وذكر ذلك كثير من المفسرين ، حيث عللوا جواز أن تكون {هادوا } بمعنى تابوا لقول موسى عليه السّلام بعد أن أخذتهم الرجفة : { إنا هدنا إليك } [الأعراف : 156] ، وقال ابن عاشور ونودوا به هنا – قصد نداء القرآن لهم بالذين هادوا - بهذا الاعتبار لأن المقام ليس مقام ثناء عليهم أو هو تهكم [2] " .

وهذا المعنى قريبٌ من فرضّية واضحة عند اليهود وهي أنهم كانوا قد ارتدوا عن الدِّين بسبب عبادة عجل السامري ثم عادوا.

وإذا دققنا في كلام الراغب المتقدم ، فإننا نلاحظ أن أصل الكلمة ليس التوبة وإنما هي من الهَود وهو الرجوع ، ثم صار منها يطلق على معنى التوبة ، لما توحيه من الرجوع والندم ، ولكن من الممكن فهمها أنها صارت من الرجوع إلى عبادة العجل ، وبالتالي فهي صفة ذم وليست مدحاً ، ومع أن هذا المعنى ليس معتبرا عند أكثر المفسرين لكن له أصلٌ يؤيده ، فقد نُقل في لسان العرب عن ابن الأَعرابي[3] : " هادَ إِذا رجَع من خير إِلى شرّ أَو من شرّ إلى خير [4] " وقد اعتمد بعض الكتاب والباحثون هذا الرأي ، مثل منصور إبراهيم في كتابه [اليهود وبني إسرائيل في القرآن] ، ومن عنوان الكتاب يظهر أنه يبدي تمايزاً بين المسميين .

لكنَّ كلمة (يهود) قد لا تكون عربية الأصل ، وأصحاب هذا الرأي يرجعونها إلى (يهوذا)[5] أحد أشهر الأسباط اليهود المعروفين ، وقد أيد بعض العلماء والباحثين هذا القول واقتصروا عليه

قال البيروني[6] : "وإنما سموا باليهود نسبة إلى (يهوذا) أحد الأسباط ، فإن الملك استقر في ذريته ، وأبدلت الذال المعجمة دالاً مهملة لأن العرب كانوا إذا نقلوا أسماء أعجمية إلى لغتهم غيروا بعض حروفها " .

---

[1] - الراغب أبي القاسم الحسين بن محمد , المعروف :بالراغب الأصفهاني / المفردات في غريب القرآن / راجعه : محمد خليل / دار المعرفة /ص158

[2] - ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 15/ ص 81

[3] - ابن الأعرابي : إمام اللغة ، أبو عبد الله، محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي , له مصنفات كثيرة أدبية ، منها : تاريخ القبائل، وكان صاحب سنة واتباع , مات بسافرا في سنة إحدى وثلاثين ومئتين (الذهبي / سير أعلام النبلاء / ج 10/ ص 687 , رقم : 254) .

[4] - ابن منظور / محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري / لسان العرب /ج2 / ص439 / دار صادر – بيروت /الطبعة الأولى

[5] - حيث جاء في أغلب الدراسات التاريخية أن هذا الاسم أطلق على بني إسرائيل بعد موت سليمان سنة 975 قبل المسيح فإن مملكة إسرائيل انقسمت بعد موته إلى مملكتين مملكة رحبعام بن سليمان ولم يتبعه إلا سِبط يهوذا وسبط بِنْيَامِين وتُلقب بمملكة يهوذا لأن معظم أتباعه من سبط يهوذا وجعل مقر مملكته هو مقر أبيه (أورشليم) ، ومملكة مَلِكُها يورْبعام بن بناط غلام سليمان وكان شجاعاً نجيباً فملّكَتْه بقية الأسباط العشرة عليهم وجَعل مقر مملكته السامرة وتلقب بمَلِكِ إسرائيل إلا أنه وقومه أفسدوا الديانة االتي جاء بها موسى , وعبدوا الأوثان , فلأجل ذلك انفصلوا عن الجامعة الإسرائيلية ولم يدم ملكهم في السامرة إلا مائتين ونيفاً وخمسين سنة ثم انقرض على يد ملوك الآشوريين فاستأصلوا الإسرائيليين الذين بالسامرة وخربوها ونقلوا بني إسرائيل إلى بلاد آشور عبيداً لهم وأسكنوا بلاد السامرة فريقاً من الآشوريين فمن يومئذ لم يبق لبني إسرائيل مُلك إلا مُلك يهوذا بأورشليم يتداوله أبناءُ سليمان عليه السلام فمنذ ذلك غلب على بني إسرائيل اسم يَهود أي يَهوذا ودام ملكهم هذا إلى حد سنة 120 قبل المسيح مسيحية في زمن الإمبراطور أدريان الروماني الذي أجلى اليهود الجلاءَ الأخير فتفرقوا في الأقطار باسم اليهود هم ومن التحق بهم من فلول بقية الأسباط(ينظر : ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 1 / ص 322 , جودت السعد / الشخصية اليهودية عبر التاريخ / 1985م / المؤسسة العربية للإعلان / بيروت / ط1 , د. طنطاوي / بنو إسرائيل في القرآن / ص 9

[6] - البيروني (262 - 440 ه = 973 - 1047 م) محمد بن أحمد، أبو الريحان البيروني الخوارزمي: فيلسوف رياضي مؤرخ، من أهل خوارزم , عاصر ابن سينا وبينهما أسئلة وجوابات , أقام في الهند بضع سنين ، ومات في بلده، اطلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وعلت شهرته، وارتفعت =

وفي قاموس الكتاب المقدس يرجعون اسم يهود كذلك إلى "يهوذا " أحد الأسباط الذي غلب اسمه عليهم بعد الشتات [1] .

وإذا انتقلنا سريعاً إلى علماء الأنثروبولوجيا (علم السلالات البشرية) نرى أنه يكاد الاتفاق يكون تاماً بينهم على أن اليهود اليوم ليسوا سلالة بني إسرائيل القدماء ويثبتون بما لا شك فيه أنهم من أجناس أخرى غير الجنس الإسرائيلي ، ومن أشهر علماء الأنثروبولوجيا الذين قرروا هذه الحقيقة الباحث اليهودي (فريدريك هرتس) ، والمتخصص ربلي في كتابه : [أجناس اوروبا] و برتراند راسل في كتابه [تاريخ الفلسفة الغربية] [2]

وفي رأيي أن هذا لا يمنع من أن يكون الاسم بداية قد أطلق عليهم نسبة إلى يهوذا ثم تطور بعد ذلك للانتساب إلى الدين اليهودي ، كما لا يمنع في الوقت نفسه أن يكون للمعنى الذي حمله (التهود) دخلٌ في هذا الموضوع ، خاصةً وأنه قد جاء على لسان موسى عليه السلام (إنا هدنا إليك) ، مما يدل على أن للمعنى أصلاً عندهم ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن اليهودية كدين كانت معروفة على أيام موسى عليه السلام .

ويكفي أن تشير الدراسات التاريخية إلى أن تسمية (يهودي)[3] قد شاعت وذاعت أيام عهد الرومان واليونان أي من القرن الرابع قبل الميلاد واستمرت حتى الآن .

وفي الشتات اتخذ اسم (اليهود) معنىً بغيضاً بين الأمم ، فهم أبناء هذه الطائفة المتمردة ، المنطوية على نفسها، الشديدة التعصب ، المتهمة بصلب المسيح ، إلى جانب صفات سيئة أخرى اكتسبوها من الظروف الشاذة [4]

بنو إسرائيل في السياق القرآني :

وردت كلمة (بني إسرائيل) في القرآن الكريم ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة ، اثنا عشر منها مكية والأربع الباقي مدنية ، حيث جاءت على النحو التالي :

في سورة البقرة والمائدة ست مرات ، يليها الشعراء أربع مرات ، ثم الأعراف وطه ثلاث مرات ، والإسراء والصف مرتين ، وآل عمران والنمل وغافر والجاثية والدخان والأحقاف مرة واحدة ، وجاء بصيغة (بنو إسرائيل) مرة واحدة في سورة يونس .

=منزلته عند ملوك عصره , وصنف كتبا كثيرة جدا، متقنة، رأى ياقوت فهرستها بمرو، وياقوت مكثر من النقل عن كتبه، منها : " الآثار الباقية عن القرون الخالية " و " الاستيعاب في صنعة الإسطرلاب " و " الجماهر في معرفة الجواهر " و " تاريخ الامم الشرقية ..
(ينظر : الصلاح الصفدي / الوافي بالوفيات / ج3 / ص70 , وكذلك : الأعلام للزركلي / ج 5 / ص 314

[1] ينظر : مجموعة من الأساتذة اللاهوتيين / قاموس الكتاب المقدس / ج 2 / ص 527

[2]- ينظر : اليهودية والصهيونية / ص18 , نقلا عن مجلة كلمة الحق / العدد الأول / محرم 1387ه-ابريل 1967م , وكذلك د. سعد المرصفي / الرسول واليهود وجها لوجه / ج1 / ص81

[3]- حول موضوع الدراسات التاريخية , ينظر : د. إسرائيل ولفنسون / تاريخ اللغات السامية / ص 77 , وكذلك : مجلة العربي الكويتية : العدد 91 يونيو (حزيران) 1966م / ص 151 , نقل عنهم : د. سيد طنطاوي / بنو إسرائيل في القرآن / ج1 / ص 9 ,

[4] - د . حسن ظاظا / الشخصية الإسرائيلية / دمشق / دار القلم / ط 1985 م / ص 30

وقد أطلق اسم إسرائيل في القرآن مرتين ، الأولى جاءت سورة آل عمران، والثانية في سورة مريم .

قال تعالى : { **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93)** }آل عمران

والآية الأولى جاءت في سياق التحدي ليهود ذلك العصر ، بخصوص موضوع كذبهم في أصل تحريم الطيبات بدعوى أنها محرمة أصلاً ، فجاءت الآية الكريمة تثبت أن الذي حرمه إسرائيل على نفسه لم يذكر في التوراة ...

أما الآية الثانية في سورة مريم : {**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** } (58)

فقسمت الآية الكريمة الأنبياء الكرام من حيث النسب التاريخي إلى أربع مجموعات تتفرع كل مجموعة عن نبي كريم : المجموعة الأولى : النبيون من ذرية آدم عليه السلام وهي تمتد إلى نوح عليه السلام

المجموعة الثانية : النبيون من ذرية نوح والذين كانوا بينه وبين إبراهيم مثل هود وصالح وإلياس ..

المجموعة الثالثة : النبيون من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وهم قسمان :

الأول : أنبياء من ذرية غير بني إسرائيل هما إسماعيل ومحمد عليهما السلام ، والثاني : أنبياء من ذرية بني إسرائيل.

والملاحظ أن الآية الكريمة قد ذكرت قسماً من الأنبياء الذين من ذرية إبراهيم وهم أنبياء بني إسرائيل و لم تفرد الفرع الآخر (سيدنا إسماعيل ومحمد عليهما السلام) رداً على تحريفات وشبهات اليهود الذين يقصرون النبوة في فرعهم من ذرية إبراهيم ، فجاءت الآية لتبين أن هناك أنبياء من ذرية إبراهيم غير الذين هم من ذرية يعقوب عليه السلام لم يفردوا بالذكر لبيان صلتهم الشديدة بإبراهيم عليه السلام[1] .

كما ويمكن ملاحظة ما يلي :

- أن السور المكية التي ورد فيها هذا الاسم تعادل ضعفي السور المدنية .

- أن المواضيع التي طرحها سياق الحديث عن بني إسرائيل ، هو كشف لأحداث تاريخ بني إسرائيل كذكر مشاهد من بداية عهدهم مع يعقوب ويوسف عليهما السلام ، وحياتهم مع فرعون وتفاعلهم مع موسى عليه السلام ومعجزاته ، وفترة التيه ، وشيء من معاركهم وما تعرضوا له من فتن ، كقصة طالوت ، ودخولهم الأرض المقدسة ، وقصة أصحاب السبت... وهي تتعلق كذلك بكشف جوانب من أحكام شريعة التوراة ، ومتى حرمت وسبب تحريمها ... إلى غير ذلك من اللقطات المهمة التي تؤرخ لعهد بني إسرائيل مع النبوة والرسالة .

[1] - حول هذا الموضوع ينظر : (د . صلاح الخالدي / الشخصية اليهودية / ص2)
و هناك لفتة يذكرها الدكتور صلاح الخالدي وهي أن هذا الفرع الثاني من نبوة أولاد إبراهيم هو الذي أنتج آخر الأنبياء وخاتم المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم , فما زالت رسالة النبوة ممتدة منه , أما الفرع الأول فهو وإن حوى أسماء أنبياء ومرسلين أكثر فإن النبوة قد توقفت عند آخر حلقة منه وهو نبي الله عيسى عليه السلام ....(المصدر السابق / ص2) .

كما نلاحظ أن سياق الحديث عن بني إسرائيل وإن غلب عليه تسجيل مراحل إفسادهم في الأرض وطبيعته ، إلا أنه يتخلله إنصاف لفئة منهم ، كقوله تعالى في سورة الأعراف : **{ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** (159)**}** ..

اليهود في السياق القرآني :

لقد جاءت كلمة (اليهود) في القرآن الكريم ثماني مرات ، والملفت أنها كلها في سور مدنية وهي البقرة وآل عمران والمائدة والتوبة ، حيث ذُكِرتْ مرة واحدة في كل سورة ، إلا في البقرة مرتين ، وفي المائدة أربع ، وقد جاءت بصيغ أخرى تدل على ذات اليهود (الذين هادوا ، هدنا ، هوداً) وهذه الصيغ لم تأت في السور المدنية فقط كما هو الحال في مسمى (اليهود).

- فجاءت كلمة (الذين هادوا) عشر مرات في سبع سور ، أربع منها مدنية هي البقرة والنساء والمائدة والجمعة ، وثلاث مكية هي الأنعام والنحل والحج، وقد تكررت في المائدة ثلاث مرات ، وفي البقرة مرتين .

- وكلمة (هودا) جاءت ثلاث مرات كلهم في البقرة ، وقد أعقبها كلها قوله (أو نصارى) وجاءت في سياق ادعاءات مشتركة بين اليهود والنصارى ، أولها في استئثارهم بالجنة والثانية بالهداية والثالثة تجنيهم على سيدنا إبراهيم وأنبياء بني إسرائيل أنهم كانوا على دينهم (هوداً أو نصارى) ، أما (هدُنا) فلم تأت إلا مرة واحدة في سورة الأعراف ، على لسان سيدنا موسى عليه السلام .

ومن الممكن ملاحظة ما يلي :

- هناك فرق بين بني إسرائيل واليهود في السياق القرآني تماماً مثل ما هناك علاقة تجمع بين المسميين ، وأبدأ بالعلاقة لوضوحها وهي كون (اليهود) هم بذرة الفرع الخبيث لبني إسرائيل التي تكونت من سلسلة تفاعلاتهم السلبية عبر محطاتهم السوداء مع النبوة والرسالة ، وبدورها شكلت نواة (اليهودية) التي استقطبت حولها كل نفسية مهيأة لهذا النمط الفكري والسلوكي .

أما الفرق فهو أن مسمى (بني إسرائيل) أعم من (اليهود) من حيث إن بني إسرائيل شامل للذين هادوا والذين أسلموا ، ومن ناحية أخرى يمكن القول ان مسمى (اليهود) أعم إذا نظرنا إلى (اليهودية) أنها دين لكل من دخل فيها من الأمم الأخرى ، وعليه فإن ثمرة التفريق بينهما تخرج أنبياء بني إسرائيل وأتباعهم (الذين أسلموا) من الدخول تحت المسمى اليهودي ، وتبقي لنا اليهودية كدين ارتضاه كفار بني إسرائيل بديلاً عن دين الإسلام .

وأهم ما قد يظهر لنا هذا التفريق هو إبراز اليهودية كمراحل ومحطات بدأت ببني إسرائيل و لم تقف عندهم ، وقد لا يعنينا تحديد تاريخ هذه المحطات ، بقدر إبراز المنعطفات التي حددت توجهات اليهودية في سيرها نحو الشكل النهائي الذي سارت إليه ، فلا يمكن مثلاً اعتبار إخوة يوسف يهوداً ، ولا يمكن كذلك اعتبار بني إسرائيل في عهد

موسى يهوداً ، إذ لا يوجد دليل في القرآن يقرن بين الأمرين ، ولا يوجد دليل من التاريخ يؤيد ذلك ، لكن مع هذا فمن المؤكد أن استخدام النظم القرآني للفظ (هدنا) بدَلَ (تُبنا) مثلاً ، على لسان موسى عليه السلام حكمةٌ ودلالة ، أقربها هو الإشارة إلى علاقة لغوية بين معنى (اليهود) وأصل ما يعرف ببدعة (اليهودية) ، ومهدها الذي جاء واضحاً أنه من زمن موسى عليه السلام .

وهناك عدة إضاءات كشفها القرآن الكريم تظهر منعطفات خطيرة لأفكار أصحاب الديانة اليهودية ، في تاريخ ديانتهم ، وهي بالتأكيد تساعد في تقوية الطرح القائل بالتدرج في صناعة اليهودية ، والتفريق المرحلي بينها وبين بني إسرائيل ، ومما يُسِّر لي أن أقف على بعض منها ، ما يلي :

- أن القرآن الكريم ذكر في الآية الرابعة والأربعين من سورة المائدة : { **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ...**} وفيها يظهر الفرق واضحاً بين الذين أسلموا وهي وصف للنبيين ، وبين الذين هادوا ، مما يدل على أن الذين هادوا هم المعتنقون لديانة أخرى مختلفة جذرياً عن الإسلام الذي جاء به أنبياؤهم .

يقول البيضاوي : "{ **الذين أَسْلَمُواْ** } صفة أجريت على النبيين مدحاً لهم وتنويهاً بشأن المسلمين ، وتعريضاً باليهود وأنهم بمعزل عن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقتفاء هديهم ، وقوله { **لِلَّذِينَ هَادُواْ** } متعلق بأنزل ، أو بيحكم أي يحكمون بها في تحاكمهم وهو يدل على أن النبيين أنبياؤهم . { **والربانيون والأحبار** } زهادهم وعلماؤهم السالكون طريقة أنبيائهم عطفٌ على "النبيون" [1].

وممن يؤيد التفرقة بين مصطلح (يهودي) و (بني إسرائيل) القاضي محمد أحمد كنعان في كتيب له بعنوان : [اليهود و بنو إسرائيل تاريخ ومصير] حيث اعتبر أن اليهودية تشكلت عبر مراحل ، أُوجزها بما يلي :

المرحلة الأولى : تبدأ فيمن عبدوا العجل حيث إن منهم من تاب توبة صادقة ، قال الله تعالى : { **وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ... (149)**}الأعراف ، أما الفريق الآخر من العجليين - على حد تعبيره - فإنهم لم يتوبوا بل تظاهروا بالتوبة نفاقاً بينما حب العجل راسب في أعماق قلوبهم كما قال عز وجل فيهم ، لذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : { **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدنيا ...** }(الأعراف :152)

[1] البيضاوي / أنوار التنزيل وأسرار التأويل / ج 2 / ص 80

فهؤلاء الذين تظاهروا بالتوبة ، فهادوا أي تابوا ورجعوا نفاقاً .... ثم يتابع فيقول : " سموا فيما بعد (هوداً) وهم أصل اليهود ، وفكرهم المنحرف ، وهذا هو أساس اليهودية وأساس الفكر اليهودي ، والسامري هو المؤسس الأول لهذه العقيدة.

المرحلة الثانية : عبدوا العجل ثم تظاهروا بالتوبة خوفاً من موسى عليه السلام لا خوفاً من الله عز وجل ، وظل حب العجل في قلوبهم بعد موت موسى عليه السلام ، فأخذوا يبرزون في المجتمع الإسرائيلي ويعلنون فسادهم وعصيانهم ، فانتهكوا حرمة (السبت) وأكلوا الربا وأموال الناس بالباطل ،وصاروا يتحدون المؤمنين من بني إسرائيل وصورة هذه المرحلة مذكورة في بني إسرائيل (163-166) الأعراف .

وفي هذه المرحلة كان جانب المؤمنين - في بني إسرائيل - لا يزال عزيزاً في مواجهة هؤلاء الكفرة منهم .

المرحلة الثالثة : وفيها كان (اليهود) قد احكموا السيطرة على المجتمع الإسرائيلي فواجهوا الأنبياء عليهم السلام وقتلوهم : { **كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (70)**}المائدة .

ومن حين هذه المرحلة برز اسم (اليهود واليهودية) وكانت رسالة المسيح عليه السلام غلى بني إسرائيل لهداية اليهود الذين ضلوا وانحرفوا عن دين موسى عليه السلام ، ومن هذه المرحلة برز اسم (اليهود) واليهودية .

المرحلة الرابعة : انتشرت اليهودية في الشعوب الأخرى و لم تعد مخصصة للإسرائيليين .. فقد تهود من العرب والحبش والفرس ... [1] "

والملاحظ لما أبداه هذا الباحث - في طرحه للمراحل - أنه خرج لنا بتقسيمات معقولة ، وبسيطة لوضوحها وبعدها عن اقحامات تاريخية جافة قد تورطه في محاولة البحث في الأدلة والأرقام التاريخية، ولعل المرحلة التي ذكرها حول بدايات تشكل اليهودية من خلال عبادة العجل هي أقواها وأشدها وضوحاً ، لذا سأكتفي منها بما ذكره مع عودة لاحقة إلى موضوع العجل ، الذي يحتاج إلى الكثير من الوقوف .

• في قوله تعالى في سورة البقرة : { **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ .. (102)** }

وقد ذكر المفسرون في قوله :{ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ** } أنها عطف على نبذ ، أي نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحر التي تقرؤها أو تتبعها الشياطين من الجن ، أو الإنس ، أو منهما ، وفي قوله :{**عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ** } أي عهده[2] .

[1] ينظر : محمد أحمد كنعان / 2002م / اليهود و بنو إسرائيل تاريخ ومصير/ دار البشائر / ط3 / ص 35 - 27

[2] ينظر : الزمخشري / الكشاف / ج1 / ص116 , البيضاوي / أنوار التنزيل / ج1 / ص 140 , أبو السعود / إرشاد العقل السليم / ج1 / ص 172

ومن هذه الآية الكريمة نفهم أن الفترة التي أعقبت ملك سليمان أو عهد سليمان هي فترة منعطف تاريخي خطير في تكون اليهودية ، بدليل أن القرآن وصفها أنها حوت تغييراً جذرياً في المنهج والعقيدة والدستور ، حيث رافقها (نبذ و اتباع) نبذ لكتاب الله ومنهجه ، واتباع لمنهج الشياطين [1]

وهذا ما أيدته الدراسات التاريخية [2]حول هذا الموضوع ، وكما ذكرت سابقاً حيث أكدت كثير من الدراسات ، منها دراسات عربية وأخرى غربية أن اليهودية هي الديانة التي تبلورت في مملكة يهوذا في أواسط الألف الأول قبل الميلاد ، بعد زمن موسى بكثير ، حيث عزي اكتشاف سفر الشريعة (تثنية الاشتراع) إلى زمن (يوشيا) (640-609) ق.م و لم يكن بنو إسرائيل قد عرفوا هذا السفر أو علموا به قبل ذلك [3]

ويذكر الأستاذ عبد الرحمن غنيم المتخصص في الدراسات التاريخية أن اشتقاق اسم الديانة اليهودية من اسم إقليم يهوذا قد ساهم في إعطاء هذه الديانة مغزىً دينياً وسياسياً في آن واحد [4] ..

وأقوى ما يؤيد هذا من أسفار العهد القديم ، هو أن أول ذكر لكلمة (اليهود) قد ورد في سفر الملوك الثاني [6: 16][5] .

وبناءاً عليه يظهر أن التمايز بين الإسرائيلي واليهودي قد اكتسب من انتمائهم إلى مملكة يهوذا بعد عهد سليمان ، أما عن تحديد هذه الفترة فقد بينت الدراسات التاريخية أن عزرا الكاتب تلا كتب الشريعة في زمن لاحق للإعلان عن سفر تثنية الاشتراع ، وكما أن الأسفار الأخرى جرى إنجازها في (400- 350) ق .م وخاصة أسفار ملاخي وأيوب والمزامير وأخبار الأيام وعزرا ونحميا ...[6] وعلى هذا فهو يرى أن الذين هادوا هم الذين اعتنقوا اليهودية على أساس هذه الأسفار [7] .

• في قوله تعالى قي الآية الثلاثين من سورة التوبة :{ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ..**} يمكن أن نفهم أمراً وهو أن الفترة التي كان فيها عزير- أو على الأقل التي أعقبته -كانت فترة انقلاب كامل في تصور العقيدة عند اليهود، هذا أولاً ، أما ثانياً فكانت فترة استقلال كامل لليهودية عن دين الإسلام الذي جاء به أنبياؤهم ، وليس الموضوع متعلقاً بادعائهم الولد لله وحسب ، لأن الشواهد أثبتت أن قولهم (عزير ابن الله) كانت مرحلة من مراحل تشكل

---

[1] - سأعود لأتناول الآية بخصوص موضوع السحر في مبحث (نظرة اليهود المادية للمعجزات) الفصل الأول , إن شاء الله

[2] - ينظر مثلاً : فريدرك إيلش / بابل والكتاب المقدس / طبعة دمشق / ص (16 – 17) .

[3] - يقول الأستاذ احمد العطار في (موسوعة اليهودية والصهيونية العالمية / ص22) : " ولقد اعتمدنا على هذه الموسوعة في الشواهد التي استشهدنا بها من كلام تبار, ربلي , وهرتسل

[4]- وهناك لفتة ذكرها الباحث غنيم , وهي أن حرف الذال الوارد في اسم (يهوذا) لا مكان له في الأبجدية العبرية التي يطلق عليها في التوراة أيضاً اسم (شفة كنعان) , مما يعني أن لغة يعقوب وأولاده كانت غير العبرية (عبد الرحمن غنيم / اليهود بين القرآن والتوراة ومعطيات التاريخ القديم / ص19)

[5] - حيث يذكر أنه في عهد ملك آحاز على يهوذا (735-761) نقل رصين ملك آرام أيلة إلى آرام , وطرد اليهود من أيلة (العقبة)

[6] - ينظر الكتاب المقدس / كتب الشريعة الخمسة / دار المشرق ط1987م / بيروت / ص26

[7] - ينظر : عبد الرحمن غنيم / اليهود في القرآن ومعطيات التاريخ القديم / ص20

اليهودية انتقلت بعدها إلى ما هو أهبط منها من الهراءات والأفكار، و لكن الموضوع هو قياس مستوى الادعاء مع ما يمكن أن يتحصّلَ به من بواقي دين الإسلام في ذلك الوقت ، و لا يمكن بالطبع تصور مبدأ ادعاء الولد إلا وهو مخالف لأساس الدين أصلاً ، وفي أجواءٍ منحطة يسودها الفكر المشوش والمنحرف .

والقرآن إذ يثبت أن اليهود حين ادعوا ما نسبوه إلى عزير[1] كانوا على المسمى اليهودي :{ وقالت اليهود ..}

بينما لا يقرن القرآن بأي علاقة مباشرة بين موسى عليه السلام وبين اليهود كيهود بالمعنى الاصطلاحي المعروف[2].

- وقد لا أستطيع من هذه المعطيات القول أن اليهودية قد تشكلت في فترة عزير ، ولكن من الممكن أن نفهم أمراً واضحاً وهو أن اليهودية قد مرت بمراحل ، كانت فترة عزير محطة منها ، وهذه الفترة شهدت بالتأكيد الكثير من المنضمين إلى هذا الدين الجديد (دين اليهودية) ، ومعلوم أن عزير قد جاء بعد سليمان عليه السلام ، أي تحديداً فترة نبذ كتاب الله واتباع دستور الشياطين (السحر) حسب الوصف القرآني لهذه المرحلة ، وفي ظني أن هذه المرحلة هي أقوى المراحل ترشيحاً في إبراز النسق الديني اليهودي .

- ولا يفترض في ذلك الوقت أن يكونوا جميعاً من بني إسرائيل ، ففي القرآن مثلاً نجد خطاب موسى لهم ب (يا قوم) كقوله تعالى : { **وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84)**}يونس ، بينما نجد خطاب عيسى عليه السلام لهم ب (يا بني إسرائيل) ، حيث ورد خطابه لهم في القرآن بصيغة المباشر مرتين فقط ، الأولى في المائدة :{**وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ .. (72)**} والثانية في سورة الصف : {**إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ... (6)** }

---

[1] عزيز (عزرا) : اسم حَبر كبير من أحبار اليهود الذين كانوا في الأسر البابلي الذي تم بعد عهد سليمان وانقسام مملكته ، واسمه في العبرانية (عِزْرا) بكسر العين المهملة بن (سرايا) من سبط اللاويين ، كان حافظاً للتوراة , وقد أطلقه (كورش) ملك فارس من الأسر ، وأطلق معه بني إسرائيل من الأسر الذي كان عليهم في بابل ، وأذنهم بالرجوع إلى أورشليم وبناء هيكلهم فيه ، وذلك في سنة (451) قبل المسيح ، فكان عزرا زعيم أحبار اليهود الذين رجعوا بقومهم إلى أورشليم وجدّدوا الهيكل وأعاد شريعة التوراة من حِفْظه ، فكان اليهود يعظّمون عِزرا إلى حدّ أن ادّعى عامّتهم أنّ عزرا ابن الله ، غُلوا منهم في تقديسه ، والذين وصفوه بذلك جماعة من أحبار اليهود في المدينة ، وتبعهم كثير من عامّتهم , وقد يكون الداعي لهم إلى هذا القول أن لا يكونوا أخلياء من نسبة أحد عظمائهم إلى بنوة الله تعالى مثل قول النصارى في المسيح كما قال متقدموهم { اجعل لنا إلها كما لهم آلهة } [الأعراف : 138] , حيث قال بهذا القول فرقة من اليهود فألصق القول بهم جميعاً لأنّ سكوت الباقين عليه وعدم تغييره يلزمهم الموافقة عليه والرضا به ، وقد ذكر اسم عِزرا في الآية بصيغة التصغير ، فيحتمل أنّه لمّا عرّب عُرب بصيغة تشبه صيغة التصغير ، فيكون كذلك اسمه عند يهود المدينة ويحتمل أنّ تصغيره جرى على لسان يهود المدينة تحبيباً فيه (ينظر : ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 6 / ص 264 , وكذلك : كتاب الحسام المدود في الرد على اليهود / عبد الحق الإسلامي المغربي (من أحبار اليهود بسبتة الذين من الله عليهم بالإسلام) / تحقيق : د.عمر وفيق الداعوق/ دار البشائر الاسلامية / بيروت / ط1422هج -2001م / ص 61

[2] يقول الباحث منصور ابراهيم في كتابه [اليهود وبنو إسرائيل في القرآن] : " لا يوجد نص يقرن بين موسى عليه السلام وبين اليهود بعلامة ما , حيث يكون الاقتران بين موسى وبني إسرائيل وبين موسى وقومه , حتى عندما يقص علينا النص الإلهي قصة بني إسرائيل فيما بعد موسى , ولم يتحدث عن علاقة بين اليهود والأنبياء بعد موسى ... " (منصور ابراهيم / اليهود وبنو إسرائيل في القرآن / دار الصحوة / مصر / ص 28) .

ولا ينكر أحد نسب عيسى عليه السلام لبني إسرائيل ، ولكن من الممكن القول : إن بني إسرائيل لم يكونوا قوماً واحداً في ذلك الوقت ، بل كانوا أخلاطاً من أقوام متعددة ، وإن كان قد بقي المسمى حاوياً للجميع ، وقد كان إطلاق يهوذ ، أو يهوذيين عليهم معروفاً آن ذاك ، لاشتهارهم بمملكة يهوذا التي نُسبوا إليها قبل ذلك بقرون ، وهذا يفيدنا على الأقل في تصور بني "إسرائيل قوماً واحداً ، ثم بني إسرائيل أقواماً ، إلى بني إسرائيل الذين هادوا والذين أسلموا ، حتى نزول القرآن ، وقد رأينا من خلال ما قدمت للعرض السريع في إحصاء (الذين هادوا) و(اليهود) في القرآن ، أن (الذين هادوا) جاءت عشر مرات ، ثمان منها في سور مدنية واثنتين مكية ، بينما لم يرد مسمى (اليهود) في القرآن إلا في السور المدنية فقط ، وهذا يُظهر أمراً مهماً وهو أن اليهودية نضجت تماماً كدين في العهد المدني ، حيث كان انتهاء آخر عهد من بقي من الذين أسلموا من بني إسرائيل ، ليفترقوا بعدها مع الذين هادوا ، بإسلامهم مع محمد صلى الله عليه وسلم ، وليتركوا لليهودية في العهد المدني أن تستقل كعلم دال على أهلها الذين نبذوا كتاب الله ، وانسلخوا من آخر فرصة للإسلام دعاهم إليها القرآن ، وأثبت عليهم وصفه لهم (باليهود) الذين أبرزهم كفصيل مميز من البشر اشتركوا بعدة خصائص أهلتهم لحمل لواء العداوة للإيمان والفطرة الإنسانية .

- **مسألة :**

قد يطرح البعض تساؤلاً حول مصداقية تناول شخصية ما من خلال مجموعة كبيرة من الأفراد ، الذين قد يختلفون في كثير من الصفات والبيئات ، فهل يُعقل القول بأنهم ورّثوا تلك الصفات لبعضهم عبر الأجيال ؟ وكيف مثلاً يمكن تقديم اليهود للتقييم ، على أساس أنهم شخصية واحدة ؟ فإن كانوا توارثوها فما ذنبهم في هذا العناء ؟ وإن لم يكن كذلك فعلى أي أساس حكمنا عليهم بحكم الشخصية الواحدة ؟

وأجيب سريعاً على هذا الطرح ، بالقول :

إن هناك سمات محددة لكل قوم بالمعنى الواسع لهذا المصطلح ، يمكن أن يتميزوا بها عن غيرهم أو يعرفوا بها ، أو تشاع عنهم تلك السمات ، وهي سمات تشير إلى الغلبة أو الأكثرية ولا تشير أبداً إلى الكل أو العموم المطلق ، ومعلوم أنّ القابلية للخُلُق قد تورث ولكن يستحيل أن يورث الخلق نفسه لأنه أصل مكتسب ومركب من مجموعة عوامل يتحكم بها الموجه الداخلي للانضباط وترتيب القيم[1] .

---

[1]- حول موضوع السمات , يراجع : نزار العاني / الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي / / سلسلة بحوث علمية (إسلامية علم النفس) / ص113/ منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ,
د. محمد عبد المنعم خفاجي / الإسلام وبناء المجتمع / دار الوفاء لدنيا الطباعة / الإسكندرية / مصر /ط2002م , د. عبد السلام عبود / ديناميات المجتمع المسلم / سلسلة الإسلام وأبجديات العصر (الكتاب العاشر) / دار الفكر العربي / ط1 / 1980

والموضوع الذي أظهره القرآن في تعامله مع الشخصية اليهودية لا يفترِضُ أنها بدأت عهدها كمحط للشر كله ، ولكن يُظهر لنا بدايات بذرة خبيثة تطورت شيئاً فشيئاً حتى تشكلت بالصورة المستقلة لشكل اليهودي المتعارف عليه بعد ذلك ، أي أن الموضوع ليس من قبيل الحكم المجحف بتعميماته الجاهزة ، ودليل آخر وهو أننا لا نتعامل مع اليهود اليوم أنهم سلالة نقية من أبناء يعقوب ، ولا داعي لذكر ما أثبته علم السلالات البشرية حول هذا [1]، فالأصل في هذه الدراسة أن تتعامل مع طائفة من الناس جمعهم أو غلب عليهم نمط خلقي وفكري واحد ، وليس عرقاً - مع عدم إنكار أن أصلهم بدأ من عرق واحد (بنو اسرائيل) - فحين نبحث في الخلق اليهودي والشخصية اليهودية أو جانب منها ، ندرسها من معطيات سماتها (الخُلقية والنفسية) الجامعة بينها تحت المسمى اليهودي ، والقرآن الكريم حين قدم لنا الشخصية اليهودية كمادة للتدبر والدراسة ، أظهر لنا خطاباً منصفاً وحيادياً وغير منحاز ، من خلال استباق الحكم بشواهد للسلوك والممارسات ، ومن خلال إظهار الدوائر المشتركة ، التي يجتمع فيها السلوك اليهودي مع غيره ، كالنصارى أو المنافقين الموالين لهم مثلاً ، أو أحياناً في الحكم الجزئي على فئة من اليهود دون غيرهم .

كما أن هذا الكشف المرحلي الذي أظهره القرآن في تشكل اليهودية ونقاط منعطفاتها – والذي أرجو أن أكون قد نجحت في الوقوف على شيء منه - هو الأقوى في إظهار حقيقة تحديد جميع الملابسات التي أدت إلى صناعة اليهود ، ومعرفة حقيقة تركيبهم ، وماهية فكرهم وخلقهم ، وتحديد موقعهم في موقف الإيمان ورسالة الاستخلاف على الأرض .

[1] حول : علم السلالات البشرية يراجع مثلاً : بنيامين فريد مان / يهود اليوم ليسوا يهوداً / ترجمة : زهدي الفاتح / دار النفائس / بيروت / ط 83

(ب) حول مفهوم الشخصية :

أولاً : تعريف الشخصية :

يرى علماء النفس أن السلوك البشري في مجمله عملية إشباع لدوافع داخلية تقضي حاجاتها أو اختلال توازنها نتيجة عدم الإشباع إلى إثارة حالة دينامية من الحركة المنظمة الهادفة إلى إعادة التوازن وسد حاجة الدافع [1].

وقد وجدت بعض مدارس علم النفس صعوبة في الفصل بين ما هو ميل غريزي موروث في السلوك ، وبين ما هو مكتسب ، أما بعضها الآخر فقد انحرف إلى المستوى الذي اعتبر فيه الدوافع الداخلية الموجهة للسلوك مقصورةً فقط على الحاجات الغريزية !!

أما التقديم القرآني لهذه المسألة ، فقد رد الموضوع إلى أصله ، من حيث أن الجوهر المحرك لجميع دوافع الشخصية هو (القلب) ، وأظهر أن السلوكيات التي تعكسها الشخصية هي نابعة منه أو معبرة عنه ، ولكنها في الوقت نفسه تقوم على تغذية الإنسان لميوله في الاتجاه نحو الخير أو الشر ، وبالتالي فإن صورة الشخصية بأبعادها وحقيقتها أكبر وأعمق من مجرد ربطها بانفعالات لدوافع الغريزية ، كتلك التي تحدثت عنها مدارس التحليل النفسي الغربية ..

و القرآن الكريم وضح قواعد تكون الشخصية ومقوماتها الإنسانية ، وأبعادها بجوانبها المختلفة عن طريق رسم صورة متوازنة مضبوطة ، تتضمن التقييم والحكم من خلال إبراز عينات سلوكية في مواقف مختلفة ، ومن خلال صياغة واضحة ومحددة المعالم تسمح بمقارنتها مع الآخرين .

لذلك فإن كل منصف يلحظ في التشخيص القرآني لسلوكيات الأفراد والجماعات أبعاداً دقيقة وموضوعية توازن بين ملاحظة السلوك في المواقف الخاصة وإطلاق التعميمات بصورة صحيحة واضحة المعالم .

كيفية التعرف على الشخصية :

إن الطريقة العملية التي نستطيع أن نتعرف بها على الشخصية هي أن نبدأ في ملاحظة سلوك شخص ما وعلى مدى فترة طويلة من الزمن ، وأول ما نلاحظه هو خاصية الثبات التي يمتاز بها أسلوب معالجته للمواقف التي يغلب عليها السلوك بطرق ثابتة .

فالشخصية تمتاز بخاصية الثبات النسبي وكذلك تمتاز سماتها بصفة الديمومة النسبية .

---

[1] - ينظر : ريتشارد لازاروس / الشخصية / فصل : تقييم الشخصية / ص (215 – 216)

ويمكن أن تدلنا ملاحظة سلوك شخص ما (أو فئة متشابهة) أن هناك نطاقاً معيناً أو تنظيماً معيناً يبدو في سلوكه (أو سلوكهم) .

فنحن عندما نلاحظ سلوك شخص ما فإننا نلاحظ اتجاهات طويلة المدى وأهدافاً عامة ومستويات الطموح ، وأنماطا معينة من السلوك كذلك فإننا سوف نلمس أن له فلسفة حياة خاصة به ، وعلى ذلك فنحن ندرك الشخص ككل موحد أو كنظام سيكولوجي يتأثر فيه السلوك الحاضر بالسلوك الماضي ، ويؤثر السلوك الحاضر بالسلوك في المستقبل [1] .

ومن هنا يمكن الخروج بتعريف عام للشخصية (personality) أنها "مجموعة العوامل الداخلية الثابتة نسبياً ، والتي تجعل سلوك الشخص متسماً بالثبات والاستقرار في الأوقات المختلفة ، ومميزاً عن الآخرين في المواقف المتشابهة [2].

أو التفاعل المتكامل للخصائص الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية التي تميز الشخص وتجعل منه نمطاً فريداً في سلوكه ومكوناته النفسية [3] ".

أو تعني "مجموعة الخصائص الحسّية والنفسية التي تميز فرداً ما عن الأفراد الآخرين [4] ".

أو هي" الاستعدادات الجسمية والمؤهلات العقلية ، وسمات النظام الانفعالي ، ومدى الاستجابة للنظام الاجتماعي [5] "

والشخصية في بعض مفاهيمها النفسية مرادفة لكلمة الأنا (leMoi) أو الذات ولفترة طويلة لم يكن العلماء يميزون بين الذات والنفس الميتافيزيقية (الروح) (Metaphisique)

وفهم (الأنا) أو (فهم الإنسان) من الناحية النفسية ، يستلزم أولاً فهم العوامل التي تدخل في بنائها وفي تحديد درجة قوتها أو ضعفها ، وأهم هذه العوامل هي : العوامل الفطرية و الخبرات الأولى [6]

" كما يوجد مفهومان شائعان يتعلقان الشخصية : المزاج و الطبع

إن المفهوم الأول (المزاج) يستخدم للإشارة إلى الأسس الفطرية لشخصية الإنسان مثل النزعات الفطرية ، الغرائز، أساليب التعبير عن الانفعالات والعواطف ، جميع الخصائص الفطرية المؤثرة على سلوك الفرد .

---

[1]- يراجع : د. عبد الرحمن العيسوي / مقومات الشخصية الإسلامية / ص 153-154 , نزار العاني / الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي / ص113 / منشورات المعهد العالمي للعالم الإسلامي / سلسلة بحوث علمية (إسلامية علم النفس) .

[2]- د. إبراهيم باجس / علم نفس الشخصية / الجامعة الأردنية / ص 104

[3]- د. محمد السيد عبد الرحمن / الصحة النفسية / دار قباء للنشر / القاهرة / طبعة عام 1998م

[4]- K. Lovel – psycho – pedagogie des ed . 1976 pnb paris < p.79 نقل عنه : المصدر السابق

[5]- ينظر د. محمد الدلفي / تطور شخصية الإنسان والتعامل مع الناس في ضوء التربية وعلم النفس / ط1/ 2001 م / دار الفرقان / ص41

[6] - المصدر السابق / ص46

أما المفهوم الثاني وهو (الطبع) فيهدف إلى تحديد الشخصية وفق معايير ثقافية أخلاقية شائعة مثل الشرف ، الرزانة، الصدق، الأمانة ، الإخلاص ، وكذلك نقيض تلك الصفات ... [1] " .

ولا شك أن تناول الشخصية في المنظور القرآني هو مزيج بين الاثنين ، فطبيعة العرض القرآني تستخدم مفهوم الإنسان بمعناه المطلق ، لتعطينا تصوراً كاملاً عنه ، فنمتلك حينها الأدوات الصحيحة في تقييمنا للمفاهيم ، وبالتالي تقييمنا للأفراد على أساس الميزان الضابط لهذه المفاهيم ، ثم إن بلاغة النظم الكريم بعدها كفيلة بأسلوب اختيار أو انتقاء المواقف بشمول وعمق ، والتي تصلح أن تفيدنا بأمور كثيرة متعلقة في فهمنا لطبيعة المواقف وأصحابها بأبعاد شخصياتهم التي صارت محددة ومستقلة ، لذلك لن يفوتها شيء من هذا الجانب أو ذاك .

ثانياً : كيف نُفسر الشخصية ؟

" التشخيص النفسي مصطلح مرتبط بالشخصية ارتباطاً وثيقاً ، فهو يتضمّن التعرف على الشخصية واستكشاف خباياها وتحديد خصائصها ووصفها وصفاً دقيقاً واضحاً ، وهكذا يمكن تعريف التشخيص النفسي أنه : تلك العملية التي نقوم بها عندما نجمع في سياقها المعلومات عن الفرد أو الجماعة ، لنعالجها معالجة خاصة تمكننا من أن نرسم صورة متكاملة لشخصية الفرد تتضمن وصفاً دقيقاً لقدراته وإمكاناته ومشكلاته وأسبابها ، وذلك بهدف وضع تصور أو استراتيجية حول هذا النوع من الشخصية[2] " .

لقد قدمت لنا مدارس علم النفس نظريات عدة تتضمن أساليباً وأدواةً لكشف جوانب من الشخصية ، وسأتجاوز عرض هذه النظريات إلى نظرة مجملة حول نظرية : السمات ، لأنها – في نظري - قد تكون الأقرب لأسلوب تناولي للشخصية اليهودية في هذا البحث .

فنظراً لما يوجه إلى الكثير من النظريات من انتقادات فإن هناك من العلماء الذين يرون أن الحكم على الشخصية يكون بدراسة جميع سماتها ، وعلى ذلك فإن الشخصية في نظرهم عبارة عن مجموع ما لدى الفرد من سمات .

و مفهوم السمة إنما يتكون من ملاحظة السلوك ، ومن ثم فالسمة افتراض عقلي وليست شيئاً نلاحظه مباشرة وعلى ذلك فإننا لكي نتعرف على شخصية ما، فإننا نطبق عليها عدد كبير من الاختبارات التي تقيس سماته الشخصية أو أبعاد شخصيته ، وتعتمد هذه النظرية على ثبات الشخصية .

وفائدتها – كما يقول علماء النفس - أن بعض مفاهيم السمات يمكن قياسها قياساً دقيقاً ، وكذلك يمكن دراستها وإجراء التجارب عليها .

---

[1] - د. نعيم الرفاعي / الصحة النفسية / ص233-234

[2]- ينظر : د. ايمان فوزي / التشخيص النفسي / مكتبة الزهراء / القاهرة , سيد الهابط / التكيف النفسي / المكتب الجامعي / ط2 / ص33

ولا أريد أن أدخل في تفاصيل السمات بتشعباتها ، ولكن أوجز فأقول :

إن الباحثين - في تصنيف السمات – قد ذهبوا مذاهب عدة ، فمنهم من يتحدث عن سمة كبرى غالبة على الشخصية أو سمة مركزية تزدحم حولها سمات أخرى ، حتى يتشكل من خلالها انتظام ديناميكي بين مختلف سمات الفرد ، وإن كان يؤخذ على نظرية السمات نظرتها إلى السمات كموجودات داخل الفرد نفسه وإغفالها لحقيقة أنها ليست إلا طرقاً للسلوك في المواقف المختلفة ، إلا أن الملاحظ أن القرآن الكريم قد عالج هذا الضعف في التصور ، بتوضيح معنىً للتفاعل بين هذه السمات ، وتكاملها وانسجام عناصرها ، ثم النظرة إلى تقييم أدائها لوظائفها المختلفة من منطلق ثابت وفكرة واضحة .

لقد أوفت النصوص القرآنية حاجاتنا في هذا المجال كما في غيره ، فمن خلال امتلاك أدواة محددة للقياس تظهر الفاصل بين الخير والشر ، والحسن والسيء ، نرسم أبعاد الشخصية ، فنستطيع أن نحكم على السمات السوية والمنحرفة بالشكل الحقيقي والدقيق ، ولأن موضوعنا متعلق في تقييم الشخصية اليهودية من المنظور الإسلامي ، فهذا يقودنا إلى نظرة سريعة على الإطار الذي يضبط مستوى استواء الشخصية وانحرافها ضمن هذا المنظور :

ثالثاً : تقييم الشخصية في المنظور الإسلامي (استواء الشخصية وانحرافها) :

يهدف الإسلام إلى بناء الشخصية الإنسانية السوية بمحمل أبعادها المادية والنفسية والروحية على التكامل والشمول ، وذلك من خلال الربط المباشر للشخصية بالموقف العقائدي والإيماني ، بحيث يتحول كل سلوك شخصي إلى عمل يقود إلى هدف مرتبط بحياة أخرى خالدة تقوم على أساس الثواب والعقاب ، وهذا يدفع بصاحب الشخصية السوية لأن يسموا إلى مراحل أعلى من الإيمان الغيبي واليقين والاطمئنان والتسليم المطلق ، فترفعه عن صغائر الدنيا وزينتها وزخرفها ولهوها ولعبها وشهواتها وملذاتها .

كما ويمكن القول إن التصنيف العقائدي للشخصية الإنسانية (مؤمن ،كافر ، منافق) يعطي مفهوماً جديداً للشخصية الإنسانية ولسماتها وخصائصها لا يمتلكه علم النفس الحديث ، فقد وصف الله سبحانه وتعالى الإنسان - بعمومه المطلق كإنسان - أنه : هلوعا ، جزوعا ، منوعا، جهولا ، ظلوما ، ضعيفا ، قتورا ، عجولا ، كنودا ، كفورا ، كفارا ، كادحا ، شديد الحب للمال ، يؤوس ، وبما غير ذلك ليس في الوصف المباشر .

كما بين الله سبحانه أنه قد (زين) للإنسان (أي زرع فيه وجبل عليه) حب الشهوات من النساء ، والبنين والمال والركوب (الخيل) والحيوان (الأنعام) والحرث . وهذه كلها سمات في الإنسان (كل الإنسان) وخصائص فطر الله الناس عليها (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) (الروم:30) .

وبعد أن أعطى القرآن الكريم الإنسان بعمومه المطلق خصائص جبلته استثنى فئات معينة بخصائص معينة ، أو ميّزها من الجبلة العامة عن طريق ربطها بالموقف العقائدي أو الإيماني .

فالمؤمنون، وإن جبلوا على هذه الصفات الإنسانية ، إلا أنهم استطاعوا ، بإيمانهم وعقيدتهم وإرادتهم ورغبتهم في حب الله والتقرب إليه أن يرتفعوا ويسموا بها إلى درجة أعلى ومنزلة أرفع : **{ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ... إِلَّا الْمُصَلِّينَ }** المعارج (19-22) ، **{..إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا..}** العصر (2-3) وهكذا ...[1]

وهناك من استطاع أن ينزل بالجبلة الإنسانية إلى درجة أهبط وأسفل من الحد الطبيعي عند البشر .
وهؤلاء هم من قدمهم القرآن ليكونوا مثلاً حياً بانحطاط شخصيتهم المشاهدة بالصورة والواقع ، للمستسلمين الراكنين إلى دواعي الجبِلّة بشكلها البهيمي ، بل إلى الحد الذي ينزل بهم عن البهيمية إلى (قتل الغرائز) لذلك ليس عبثاً أن يظهروا بشكلٍ جديد من الإدراك والتفكير والإحساس وأنماط السلوك التي تبدي للناس ذاتيتهم المميزة !
وبالنسبة للشخصية اليهودية ، رغم الاختلاف الذي قد يبدو بين خصائص الشكل اليهودي قديماً وحديثاً ، لكن أكثر الناس المتعاملين مع الموضوع اليهودي على اختلاف مجالاتهم يكادون ينظرون إليهم على أنهم امتداد لليهود القدماء ، وأحد أهم الأسباب في ذلك ، هو ما يظهره اليهود أنفسهم من اعتزاز وتمسك بسير أجدادهم ، ورموزهم ، وسبب آخر وهو بروزهم كمجموعة تسير تصادمياً مع خط سير المجتمعات بدوائر محددة ومتكررة دائماً ، تلفت النظر وتدعو للتأمل .

والذي يعنينا هنا أن العرض القرآني لليهود قدم تفصيلات معمقة ودقيقة ، فالهيئة المجسمة المرئية لشخصية اليهودي - كما عرضها القرآن بهذا التركيز الشديد ، وهذا البعد الشمولي – لحَرية أن نأخذ منها جانباً جانباً للبحث والتمحيص والدراسة .
وعلى الرغم من كل الصعوبات التي قد تقف في التعرف على هذه الشخصية ، يظل ذلك ممكناً طالما جرد الباحث خرافات اليهود ، وتمويهاتهم الملفقة من إطار دراسته وحُكمه ، وتناول الموضوع بتجرد وموضوعية .

شبهة:
هناك من يعتبر دراسة الشخصية اليهودية وفق مفهوم "الجوهر اليهودي" تعبيراً عن نموذج اختزالي عنصري ، تكون مقدرته التفسيرية منخفضة لأنه معادٍ ابتداءاً ، بدليل أنه يستبعد تفاصيل الواقع ومستوياته[2]، ومن ذلك ما يذكره

[1] يراجع : د. عبد الرحمن العيسوي / مقومات الشخصية الإسلامية / ص 153-154 , نزار العاني / الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي / منشورات المعهد العالمي للعالم الإسلامي / سلسلة بحوث علمية (إسلامية علم النفس) / ص113 .
[2] هذا الرأي عبر عنه د. المسيري صراحة في موسوعته : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية / المجلد الثاني / الجزء الأول / ص14

الدكتور المسيري وهو يهاجم أصحاب هذا المنهج في الدراسة حيث يقول : " إن هذا التفسير يبرز اليهود كتجمع بشري يتمتع بقدر عالٍ من الوحدة والاستقلال ، وله حركيات مستقلة عن البشر ، وأنه يفسر الواقع كله بصيغة واحدة بسيطة جاهزة ، ومن ثم فهو يتجاهل واقع الجماعات اليهودية المركب غير المتجانس ، وهو واقع لا ينطوي يخضع لقانون عام ، ولا ينضوي تحت نمط متكرر واحد [1] " .

وأقول رداً على هذه الشبهة : إنه يفترض بمن يتناول دراسة أي شخصية من خلال سماتها وخصائصها أن يتعامل معها مجردة من الزمان والمكان ، بمعنى أن أهم شيء يمكن أن نلحظه لتفاعلات الشخصية في المواقف المختلفة هو الثبات النسبي ، صحيح أن الإنسان بطبيعته لا يمكن بحالٍ أن يكون قطعة جماد لا تتفاعل مع الأحداث التي تطرأ في عصره ، لكن النهج العلمي الصحيح في دراسة الشخصيات لا يكون في إسقاط الأحداث والملابسات التاريخية على الأشخاص وإنما بالعكس ، حيث إن الأحداث التاريخية مهما تغيرت وتعاقبت زمانياً ومكانياً فإنه على اختلاف مسمياتها تبقى في دوائر متكررة ، يكون الدخول في ملابساتها مشتتاً للفكرة والهدف ، بدليل أننا حين نتتبع استقراء ردود الفعل المتولدة لدى هذه الشخصية أو تلك عبر مراحل متعاقبة ، فإننا نلحظ تشابهاً في طبيعة الردود ، وباعتماد ما تكرر منها في المواقف المختلفة نستطيع أن نقدم انطباعاً سليماً حولها ، فإنه حينها وحينها فقط يمكن أن نحكم على هذه الشخصية أو ذاك بالثبات النسبي ، والذي يمكننا من الخروج بسمات محددة لهذه الشخصية تميز طبيعتها عن غيرها وفق رؤية موثقة وموضوعية .

[1] ينظر رأيه : المصدر السابق / ص14

(ج) : المادية اليهودية (JEWISH MATERIALISM) :

قد تعرفنا بنظرة سريعة على مفهوم [الشخصية] ، فما الذي يمكن أن نفهمه إذا حددنا المفهوم أكثر في [المادية اليهودية] ، وبتعبير آخر ، حين ترتبط الشخصية بالمادية اليهودية ، فماذا يعني هذا المفهوم بالتحديد ؟

لمصطلح " المادية " معنيان :

- " المعنى الفلسفي : الإيمان بأن العالم كله مادة تتحرك وأن كل ما يبدو أنه ليس مادة (العقل والروح والنفس والفكر والوعي) إنما هو في واقع الأمر مادة ويمكن تفسيره من خلال مقولات مادية وان كل الظواهر الإنسانية العقلية والروحية ما هي إلا جزء من بناء فوقي يمكن أن يرد في نهاية الأمر إلى وفي التحليل الأخير إلى المادة (البناء التحتي) .

إن كل شيء في الكون يمكن تفسيره تفسيراً مادياً لأن كل التغيرات لها سبب مادي . ولذا ، فإن التفسيرات المادية هي التفسيرات الوحيدة الممكنة ، كما أن العقل الإنساني ليست له أي فعالية سببية ولا علاقة له بحركة الكون الذي يتحرك بذاته ، والكون لا يوجد فيه غرض ولا سبب ولا هدف ولا معنى ولا يوجد اله ولا غيب (وراء الطبيعة).

- المعنى الدارج : وهو حب النقود (التي يشار إليها على أنها "مادة" . فيقال فلان مادي أي أنه يحب المال حباً جماً .

والمدلولان قد يغطيان رقعة مشتركة ، فالإنسان المادي بالمعنى الفلسفي قد يكون محباً للمال ، والمحب للمال قد يكون مادياً بالمعنى الفلسفي ، ولكنهما على أية حال مختلفان ، فالمادية بالمعنى الفلسفي رؤية شاملة للكون تغطي علاقة الإنسان والطبيعة والإله ، أما المادية بالمعنى الدارج فهي تنصرف إلى جانب واحد في الطبيعة البشرية وهو حب المال [1] " .

وبالتأكيد فإن عبارة " المادية اليهودية " بالمعنى الفلسفي ، هي المقصودة في مدار البحث ، لأننا لا يمكن أن نحكم على الشخصية اليهودية من خلال المعنى البسيط الدارج فقط ، فنحن بحاجة إلى تناول الموضوع من محاوره وزواياه المختلفة حتى نخرج بصورة شاملة ومرضية لجميع أبعاد الشخصية .

[1] د. عبد الوهاب المسيري / موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية / المجلد الثاني / الجزء الأول / ص15

الفصل الأول

الجانب المادي في الاعتقاد عند اليهود كما يصوره القرآن الكريم

• المبحث الأول : المادية اليهودية في تعاملها مع الإلهيات

مدخل :

إن دراسة الشخصيات من خلال تصوراتها العقدية أمرٌ بالغ الأهمية ، ذلك أن المعتقد في حياة أي إنسان هو الموجه الحقيقي للدوافع والتصرفات السلبية والايجابية ، على عكس الحيوان الذي يتسم سلوكه من حيث غرائزه المنضبطة فطرياً بحدود حاجاته .

وفي هذا يقول الشيخ الميداني : " ومتى بلغ شعورنا بالشيء إلى حدٍ أصبح يحرك عواطفنا ويوجه سلوكنا حمل اسم (عقيدة)[1] " .

والعقيدة اليهودية التي نحن بصدد دراسة شخصية أصحابها ، نتعامل معها ابتداءاً من منطلق أنها عقيدة منحرفة ، وما يهمني في هذا المبحث ليس الوقوف على تفاصيل هذه العقيدة ومظاهر فسادها ، بقدر معرفة البواعث والدوافع التي سكبتها في هذا القالب وهذا المضمون المعبر عن الجوانب المشكّلة لتصورات أصحابها ، والذي يخصنا منها هنا هو الجانب المادي .

يقول الشيخ محمد الغزالي : " للعقيدة المنحرفة أسباب نفسية وأخرى علمية تظهر في أقوال المرء وأفعاله، وتلحظ مما يصدر من أحكام على الأشخاص والأشياء ، وتتفاوت هذه الأشياء قوةً وضعفاً ، وقلةً وكثرةً ، ولكنها على كل حال ذات أثر عميق في تحديد المواقف والاتجاهات[2] " .

لقد قدم لنا التراث اليهودي مجموعة عقائد وتصورات هي في الحقيقة محددات واضحة للشخصية اليهودية بل ومميزة لها قدر تميز ما تفرزه هذه العقيدة من أفكار جديدة وغريبة على محصلة التراث الإنساني في عالم المعتقدات .

---

[1]- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني /العقيدة الإسلامية وأسسها / دار القلم / دمشق / ط7 / 1994م / ص 31

[2]- د.محمد الغزالي / مشكلات في طريق الحياة الإسلامية / كتاب الأمة (1) / 1402هج / ص114

وإذا تجاوزنا النقولات والأساطير الدخيلة- التي أقحمها مزورو التوراة من خرافات الأمم والحضارات الوثنية- إلى جوهر ذلك كله المتعلق بصميم المعتقد الذي يغذي هذه الأفكار ، فإننا حينها نستطيع الاقتراب من النقطة التي تفصل القالب المعتقَدي اليهودي عن غيره ، وبالتالي الشخصية اليهودية عن غيرها .

ولا أدعي أن الوصول إلى مفتاح ذلك – في الشخصية اليهودية – جاء بدعاً أو كشفاً لسر غامض ، لأن العقيدة لا بد وأن تظهر مترجمة للسلوك ، فيلحظ كل من احتك بصاحب السلوك أوصافاً معينة ، قد يجيد التعبير عنها بعفوية ، فيقترب من تحديدها ببساطة .

ومع هذا فوصف الشخصية من خلال السلوك الظاهر فقط ، وإن كان يقربنا كثيراً لفهم العديد من الجوانب المحددة للشخصية إلا أنه قد يكون بعيداً عن مركز جوهر الشخصية .

وبعيداً عن المنهج العلمي الغربي في دراسة الشخصيات بمعزل عن أفق الدين وأطروحاته ، فإن المسلك العلمي الحق لهذا النوع من الدراسة يجب أن يكون مصبوغاً بصبغة دينية بحتة ، ذلك أن الدوائر التي تفصل بين الشخصيات هي – في تصوري - دوائر للمعتقدات .

بدليل أن القرآن الكريم في تصنيفه للناس ، جاء على أساس الاعتبار الديني في توجيه المسالك والمقاصد ، ورتب عليها التقييم بدرجاته .

ولأن مادة البحث محصورة أساساً في المنظور القرآني لها ، فلن يكون هناك صعوبة في تناول الموضوع العقدي من إطاره التشخيصي العلمي ، وقد قدم القرآن لنا مفتاح التعامل مع عالم الشخصيات - وهذه الشخصية تحديداً - كما قدم لنا مفاتيح آفاق كل العلوم .

وأما نصوصهم التي سأستعرض شيئاً منها ، فما هي إلا شذرات مما أفصح عنه القرآن الكريم في أوكد صورة ، وأظهره من نتائج وقفت على حقيقة البواعث المغذية للجانب الفكري العقدي الخاص بالشخصية اليهودية .

المطلب الأول : التجسيد الحسي للإله المصور في" الذات والصفات " :

من المعلوم أن الإله - وفق المنطق السليم وكما حددته القاعدة القرآنية - لا بد أن يختلف عن خلقه ويمتاز بكماله عنهم وقصورهم عن إدراكه والإحاطة به ، قال تعالى : {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** }(الشورى 11) ، وقال تعالى :{ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** } (الأنعام 103) .

والإله متره عن التجسيم والحلول الذي يمكن أن يتصوره الذهن البشري كذلك ، ولكن اليهود بفضل جملة العوامل الملازمة لطبيعة كفرهم ، والتي قادت إلى استحقاقهم تركيبة جديدة من الطباع ، لا يمكن أن يدركوا مما في الكون إلا ما هو حسي ..

وإني إذ أستشهد بعدة نصوص من كتابات اليهود في كتبهم المقدسة (اعتذر) عن محتوى ما تقدمه هذه النصوص من بشاعة وفظاعة - في حديثها عن الإله - يدحضها العقل ، ويرفضها أدنى درجات الذوق ... ولكن الأمانة العلمية تقتضي أن أدعم حديثي مع ما اختاره القرآن في تسجيل وقاحتهم وجرأتهم على الله ، وصولاً إلى معرفة هذه الشخصية عن قرب وإثبات مدى استحكام المادية في قلوبهم إلى الدرجة التي أخبر عنها القرآن (العشق القلبي) .

أولاً : صورة الإله كما يراها الفكر اليهودي :

هناك نصوص صريحة في تفسير ظهور الله على صورة إنسان في مواقع متعددة من التوراة ، فقد ظهر كرجل لإبراهيم (تكوين 18:16) ، وظهر كرجل ليعقوب (تكوين 32:22-29)...

كما جاء في سفر التكوين كذلك : " وقال الله لنجعل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء والبهائم ..... فخلق الله الإنسان على صورته " (الإصحاح ا:27) ![1]

وإذا كان الله عندهم في صورة إنسان فما هي هذه الصورة التي شكلها عقل اليهودي عن ربه "الإنسان"؟

---

[1]- ينظر : حسن الكرباسي / مطالعات في الكتب المقدسة / دار الكنوز الأدبية / ج1 / طبعة عام 1997 / بيروت / لبنان / ص79 , وكذلك ينظر : د.سعد الدين صالح / العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية / مكتبة الصحابة / القاهرة / ط2/ ص314

لاشك أن تجسيد الإله على شكل إنسان وغيره – حاشا لله - ليس مقصوراً على ذهن اليهود وحدهم ، فالأصل في الأمم الوثنية أنها كانت تتخذ شكلاً محسوساً للمعبود ، وليس جديداً ما طرحه اليهود في كتبهم حول مبدأ تجسيم الإله ، فما الذي يميز الحس المادي اليهودي عن غيره ؟

عند النظر إلى أصناف الوثنيين في طريقة تصورهم للإله المجسم ، فإنّ هذه الصورة لا تخرج عن إطارين اثنين ، فهي إما تعظيم المجسم - الصنم بأشكاله المتعددة - باعتباره الوسيلة المقربة إلى الإله أو إلى كبير الآلهة **{.. وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }** (الزمر 3)

والصورة الثانية : تأليه ذات الصنم ، بتقديس إنسان أو كائن معين ثم تخليده بصورة التمثال وعبادته على أساس أنه يمتاز عن غيره بصفات الكمال والنفع التي يعجز عنها البشر العاديون : **{ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آَلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا }** (نوح 23).

وكلا الصورتين محاولة لإلباس الصورة المتخيلة للمجسم المادي ثوباً معنوياً يسعى لتلبية وازع الغريزة من الميل نحو قوة عليا مقدسة ، فهل كان لليهود في تصورهم العقدي حالة من هاتين الحالتين ؟

قد يبدو للوهلة الأولى محاولة إسقاطهم تحت أي بند من بنود الوثنية ، ولكن الحقيقة التي يتوصل إليها كل ممعن في أبعاد هذا التصور وانعكاسه على شخصيتهم أن هناك شيئاً جديداً مختلفاً، وحتى لا أستبق النتيجة، فلننظر معاً كيف هو تصور اليهود للإله ؟

اعتقادهم بقصور العلم الإلهي :

يعتقد اليهود أن صفة العلم عند الإله ليست صفة انكشاف شامل لما كان وما يكون ، وإنما هي صفة محدودة قاصرة ، قابلة للتصويب ، فالله - في ظنهم - قد يعلم بعض الأشياء على غير وجهها الصحيح ثم يبدو له الخطأ فيعدل عما عزم عليه ، فمثلاً اتخذ الله قراراً بعقاب بني إسرائيل ولكن موسى ناقشه وأرجعه عن قراره فندم ، يقول سفر الخروج : "وقال الرب لموسى : .... فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم ..." وهنا يقول موسى : لماذا يا رب يحمي غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة ، لماذا يتكلم المصريون قائلين : أخرجهم بخبث ليقتلهم بالجبال ويفنيهم .... ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك ... فندم الرب على الشر الذي قاله إنه سيعمله بشعبه"خروج : (12- 7).

وهكذا يبدو الإله متسرعاً في قراراته ، ومما يلفت النظر في هذا النص ظهور موسى وكأنه أعلم من الله وصاحب سلطان عليه ، يرشده والإله يسمع وينفذ !

ومن نماذج جهل الإله عندهم ما جاء في سفر الخروج أن الله طلب من بني إسرائيل أن يرشدوه إلى بيوتهم بعلامات حتى يستطيع أن يميزها عن بيوت المصريين فيتزل ضرباته عليهم [1] .

إنكار اليهود علم الإله بالغيب :

فالله لا يعلم ما هو متوقع حتى ممن يختارهم بنفسه للمهمات ، والنص : " وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً :ندمت على أني قد جعلت شاول ملكاً ..[2] " !

" هل يستطيع أي فكر يهودي مهما بلغ في التأويل والتفسير بالرمز أن يقول لنا أي نمط من الأرباب هذا الرب الذي حزن لأنه عمل الإنسان في الأرض ، وأين كان علمه المتعلق بإرادته حتى فوجيء بتلك المصيبة التي جعلته يتأسف في قلبه ؟! [3] "

في نظرهم "الله ينسى" !

"فسمع أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب ..." الخروج (2 : 24)

يرون أن "الله يتفاجأ" !

جاء في الإصحاح الأول من سفر التكوين : " ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً "[4]

ويعلق الدكتور محمد الخولي على هذه العبارة بالقول : " إن استخدام (إذا) الفجائية يدل على أن الله تعالى قد فوجئ بحسن صنعته – حاشا لله – كيف يفاجأ الله بحسن صنعته وكأنه لا يعلم مسبقاً هيئة ما سيخلق ؟! " [5].

ينسبون إلى الذات الإلهية وصف الكذب !!

في سفر التكوين نص يقول على لسان الله إلى آدم محذراً إياه من الأكل من الشجرة : "لأنك يوم تأكل منها موتا تموت " (تكوين 2:17) وحسب النص المذكور ستكون نتيجة الأكل من الشجرة المحرمة الموت ولكن في نفس السفر تأتي الحية لتقول : "...فقالت الحية للمرأة لن تموتا ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عالمين الخير والشر .. " ثم تأتي التوراة لتثبت صدق كلام الحية حيث إن آدم وحواء لم يموتا وإنما صارا يعرفان الخير والشر : ".. وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر " (التكوين :3:22) [6]

---

[1]- يراجع النص في سفر الخروج : إصحاح32 , وكذلك ينظر : د.سعد الدين صالح / العقيدة اليهودية وخطرها .. / ص314

[2]- صموئيل الأول : (10/15)

[3] - ينظر التعليق : د. صابر طعيمة / التراث الإسرائيلي في العهد القديم / ص362

[4]- سفر التكوين : 31

[5]- الدكتور محمد الخولي /التحريف في التوراة / ص8

[6]- في نص آخر مناقض أن الكلام منسوب للشيطان وليس للحية (ينظر : المصدر السابق : ص 8) .

يصورون يهوه إلهاً متعطشاً للقتل وسفك الدماء !

في كثير من النصوص ومنها سفر التثنية يرسم اليهودي شكلاً ليهوه وهو يأمر الإسرائيليين بقتل كل ما هو حي في المدينة وجمع الأمتعة وسط ساحة المدينة ومن المدينة لتكون تلاً إلى الأبد (15:13-17)

ويهوه – في نظر كتبة التوراة - يرضى بأن تحرق المدن ويقتل أهلها شيوخاً وأطفالاً ونساءً ليكونوا له قرباناً كما ذكر في سفر العدد (31و32) : " حيث دفع الكنعانيين في يد الإسرائيليين فحرقوا قرباناً ليهوه .. " ، وفي نص آخر :" فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ماله ولا تعف عنهم ، بل أقتل كل رجل وامرأة وطفل ورضيع والبقر والغنم والجمال والحمير ... " صموئيل الأول (15: 3)

وواضح أن يهوه إله متعصب ينصرهم ظالمين أو مظلومين ولا يبرر لهم الجريمة بل يشرعها ويأمر بها لا لشيء إلا لشغفه بالكره والانتقام الشامل الذي لا يرحم حتى حيوانات البرية !

مما تقدم جملة نصوص صريحة يصلح الواحد منها للاستدلال على مدى ما أنتجه الفكر اليهودي المادي من تصورات حول الإله ، فقد أخرج لنا الإله بصورة ذلك الإنسان الهزيل العاجز تارة ، والنادمِ أخرى ، وهذه الصور الحسية المجسمة والمعددة والمنفرة (للإله) يستحيل معها تصور عقيدة إيمانية حقيقية عند اليهود بالمعنى الاصطلاحي المعروف للعقيدة !

فغالبية الوثنيين عندما تصوروا الإله أرادوا بهذا التصوير إلهاً محسوساً يعبدونه أمام أعينهم ، ثم هم اختلقوا الأساطير التي توهموها في تمجيد إلههم وذكر منافعه وقدراته ، و بهذا الإجراء نموا ميول حب معرفة الإله بصورة المحسوس - فتصوروه أمامهم بأشكاله المختلقة - عن إدراك ما يعطيه العقل لهم من المعطيات والدلائل على الإله الحق ، على أن اليهود يختلفون عنهم بأجواء الرسالة والنبوة والتوراة ، فالإله عندهم يفترض أنه لا يختلف في صورته عما هو في القرآن الكريم ، فهم أصلاً في ظروف تختلف عن تلك التي عند الوثنيين ، ومع هذا فاليهود لم يكتفوا بالصور المغلوطة والمشوهة للإله ، ولكنهم قاموا بأكبر عملية طمس لمعالم الألوهية في الإله ، فصورتهم التي قدموها للإله صورة غريبة لا يمكن لأحد منا وهو يقرأ هذه النصوص ، أن يشعر أنه أمام إله أي إله من أي نوع ، وكأن الموضوع هو أخطر من مجرد إله وثني ، فهذا الإله اليهودي ، عفواً (زعيم القبيلة) نجده يمارس السطو ، شديد الانفعال ، يأمر بسفك الدماء ، والأهم أنه يتمتع بقدرات ذكاء محدودة وصفات نقص لا تؤهله حتى لقيادة قبيلة صغيرة ! .

وعلى هذا فالعملية التي قام بها اليهودي هي عملية عكسية للعملية التي قام بها الوثني العادي ، فالوثني اختار من شكلٍ محسوس - غير مؤهلٍ ليتمثل دور الإله طبعاً — ليصير إلهاً حام حوله أساطير التمجيد والقداسة ، أما النمط اليهودي فقد أراد للإله المعروف بأسمائه وصفاته المنزهة عن الخلق ، أن يحاط بهالة من الأساطير الممسوخة التي تنزع عنه صفة الألوهية والقداسة !!

ثانياً : الرد القرآني على إلحاق اليهود صفات النقص بالله :

لم يهتم القرآن الكريم كثيراً بعرض تفاصيل السخف والسفه اليهودي في مجال تصورهم للإله ، وحيث أن صفات الله ظاهرة في القرآن الكريم ، فقد رد الأمر فيهم إلى أصلهِ وهو التحريف والافتراء الذي أوقعوه في شأنها .

لقد اكتفى القرآن الكريم من هذا الباب بانتقاء شيئين من ادعاءاتهم الواهية في صفات الله العليّة، أحدهما يتضمن قدحاً في وصفٍ ينزله إلى تركيبة المخلوق الجسمية (اللغوب) ، والآخر يتضمن قدحاً ينزله إلى تركيبة المخلوق النفسية (البخل) .

وهاتان الصورتان من خصائص الحوادث ، لا تنزلان الإله إلى مرتبة المخلوق وحسب ، بل تلصقان به صفات النقص والعيب الذميمين !!

وأكثر ما وقف عليه القرآن في قدحهم لذات الله هو الصورة البشعة التي تمثل فيها تجسيم الإله بصورة العجل الذي عبدوه مرات عديدة ، ولا جرم أن هذا المقام هو أحط ما يمكن أن يصل إليه فكر استعمى عن كل أجواء الهداية .

وسأبدأ بما حكاه القرآن عن اليهود من الدعاوى الباطلة في زعمهم الباطل أن يد الله مغلولة :

نموذج قرآني (1) :

البخل - في المنطق اليهودي - من أوصاف الله !

قال تعالى : {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } (المائدة 64)

وقال تعالى : {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} (آل عمران 181)

وليس في الآية الثانية تعيين القائلين إلا أن العلماء نسبوا هذا القول إلى اليهود لقولهم في موضع آخر: { **يد الله مغلولة** } عنوا أنه بخيل ، وغل اليد وبسطها مجاز مشهور عن التقتير والعطاء .

وقد رد القرآن عليهم بقوله : {**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا..**} وفيه تكذيب لهم ، ودعاء عليهم بالبخل ، وانقباض أيديهم عن الخير ، وشحها عن الإنفاق[1] ، والمعنى : ليس الأمر كما قال اليهود في حق الله تعالى ، بل هم الذين أمسكت أيديهم عن الخيرات ، وقبضت عن الانبساط بالعطيات [2].

ثم هم استحقوا اللعنة : { **وَلُعِنُوا** } أي طردوا من رحمة الله وفضله ، بسبب ما قالوه على الله تعالى من الإفك ، وقد نقل المفسرون رواية أبي بكر مع "فنحاص" اليهودي [3]، ولا يهم نسبة هذا القول إلى "فنحاص" أو غيره ، لأن القرآن قد نسبه إلى عموم اليهود ، قال الرازي : "وظاهرها يدل على أن قائل هذا القول كانوا جماعة ، لأنه تعالى قال : { **الذين قَالُواْ** } وظاهر هذا القول يفيد الجميع ، وأما ما روي أن قائل هذا القول هو فنحاص اليهودي ، فهذا يدل على أن غيره لم يقل ذلك ، فلما شهد الكتاب أن القائلين كانوا جماعة وجب القطع بذلك[4] " .. وفي موضع آخر يقول : "ذلك الجهل يناسب هذا الجهل ، ولأن التشبيه غالب عليهم والقائل بالتشبيه لا يمكنه إثبات كونه تعالى قادراً على كل المقدورات ، وإذا عجز عن إثبات هذا الأصل عجز عن بيان أنه غني[5] !"

وفي قوله تعالى :{ **سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍ** } أي "سنكتبه في صحائف الكتبة ، أو سنحفظه في علمنا لا نهمله لأنه كلمة عظيمة إذ هو كفر صريح بالله عز وجل واستهزاء بمكانته العلية ، ولذلك نظمه مع قتل الأنبياء ، قال البيضاوي : " وفيه تنبيه على أنه ليس أول جريمة ارتكبوها وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول [6] " ! .

أما طبيعة هذا الادعاء ، فواضح فيه علاقته المباشرة بفهمهم المادي السقيم ، الذي نزل بهم إلى القدر الذي كان شكل الاتهام "قدحاً مادياً" !

نموذج قرآني (2) :

وقفة مع زعمهم "استراحة الله" !!

---

[1]- يقول صاحب الكشاف : "ويجوز أن يكون دعاءً عليهم بغل الأيدي حقيقة , يغلون في الدنيا أسارى وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم" . (الزمخشري / الكشاف / ج1 / ص 424)

[2]- ينظر: الطبري / ج 10 / ص 452

[3]- رواية "فنحاص" لم أعثر عليها في أيٍّ من كتب الحديث الستة, (ينظر الرواية : تفسير الطبري : ج 21 / ص 95 , تفسير ابن أبي حاتم : ج 16 / ص231/ رقم : 4635 , الدر المنثور للسيوطي : ج2 / ص 123 , تأويل مشكل الآثار للطحاوي : ج4 / ص 379 / رقم : 1582)

[4]- ينظر: الرازي / التفسير الكبير / ج4 / ص494

[5] - المصدر السابق / ج4 / ص494

[6]- البيضاوي / أنوار التنزيل وأسرار التأويل / ج1 / ص 420

جاء في الإصحاح الثاني من سفر التكوين : " في ستة أيام صنع الرب السماوات والأرض والبحر وما فيها ، واستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل "!

أما الرد القرآني فقد جاء في قوله تعالى من سورة ق~ : { **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ** } ق~ (38)

وتأييداً لمناسبتها مع ادعاء اليهود ، يقول الواحدي : " قال جماعة المفسرين : إن اليهود قالوا : خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، أوّلها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، فأكذبهم الله تعالى بقوله : { **وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ** }[1] " .

والإمام الرازي أظهر تناقض طرحهم وتضاربه ، حيث قال : " .. ومن العجيب أن بين الفلاسفة والمشبهة غاية الخلاف ، فإن الفلسفي لا يثبت لله تعالى صفة أصلاً ويقول بأن الله تعالى لا يقبل صفة بل هو واحد من جميع الوجوه ، فعلمه وقدرته وحياته هو حقيقته وعينه وذاته ، والمشبهي يثبت لله صفة الأجسام من الحركة والسكون والاستواء والجلوس والصعود والنزول فبينهما منافاة ، ثم إن اليهود في هذا الكلام جمعوا بين المسألتين فأخذوا بمذهب الفلاسفة في المسألة التي هي أخص المسائل بهم وهي القدم حيث أثبتوا قبل خلق الأجسام أياماً معدودة وأزمنة محدودة ، وأخذوا بمذهب المشبهة في المسألة التي هي أخص المسائل بهم وهي الاستواء على العرش فأخطأوا (وضلوا) وأضلوا في الزمان والمكان جميعاً .

و للبقاعي ربطٌ جميل لمعنى الآية مع سياقها يقول فيه : " ولما دلّ على تمام علمه وشمول قدرته بخلق الإنسان إثرَ ما ذكره من جميع الأكوان ، ثم بإعدامه لأصناف الإنسان في كل زمان ، ذكّر بخلق ما أكبر منه في المقدار والإنسان بعضه على وجه آخر .. وافتتحه بحرف التوقع لأن من ذكر بخلق شيء توقع الإخبار عما هو أكبر منه : { ولقد خلقنا } أي بما لنا من العظمة التي لا يقدر قدرها ولا يطاق حصرها (السماوات والأرض) على ما هما عليه من الكبر وكثرة المنافع {وما بينهما } من الأمور التي لا ينتظم الأمر على قاعدة الأسباب والمسببات ... ولما كانت أقوالهم لا تليق بالجناب الأقدس ، أمر سبحانه بما يفيد أن ذلك بإرادته وأنه موجب لتنزيهه ، وكماله ، لأنه قهر قائله على قوله ..[2] " .

واللُّغُوبُ المقصود هنا كما جاء في لسان العرب : " التَّعَبُ والإِعْيَاءُ ...[3] " .

---

[1]- ينظر : الواحدي / أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري /أسباب النزول / الجزء الأول / ص266

[2]- البقاعي / نظم الدرر في تناسب الآيات و السور / الجزء التاسع / ص 293

[3]- ابن منظور / لسان العرب / الجزء الأول / ص 742

وقال ابن حجر: " أَيْ مِنْ نَصَب ، وَالنَّصَب التَّعَب وَزْنًا وَمَعْنًى ، وَهَذَا تَفْسِير مُجَاهِد فِيمَا أَخْرَجَهُ اِبْن أَبِي حَاتِم ، وَأَخْرَجَ مِنْ طَرِيق قَتَادَةَ قَالَ : أَكْذَبَ اللَّه جَلَّ وَعَلَا الْيَهُود فِي زَعْمهمْ أَنَّهُ اسْتَرَاحَ فِي الْيَوْم السَّابِع فَقَالَ " وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوب } أَيْ مِنْ إِعْيَاء [1] " .

والملاحظ أن في اختيار القرآن لدفع هذه الصفة وهي (اللغوب) إجمالٌ للكثيرِ من معاني النّقص التي تندرج وراءها ، فإن صفة التعب مشتركة بين جميع المخلوقات والتي هي إقرار واقعي على القصور الجسدي للمخلوق ، كما أن هذا النوع من القصور واضح ومدرك للعيان بالحواس المجردة ، فلا مجال إذاً إلا الإذعان بالضعف والانكسار الذي يُلزم الإنسان بمحدوديةِ حولِهِ ، وعليه فإن هذه الصفة تصلح أن تكون حداً فاصلاً بين المخلوق وبين الخالق ، ولكن أن ترى اليهودي ينسب إلى إلهه صفة كهذه فهو دليل ملموس على كونه كسر الحاجز الذي يفصل المخلوق عن خالقه !

وبالتالي أستطيع القول : إن شخصيةً كالشخصية اليهودية لا يمكن أن تنظر إلى خالقها نظرة ثقة واعتماد ، فإذا زاد على ذلك بأن سقط عنها معنى إدراك (التوكل) اللازم من التسليم لكمال القدرة الإلهية - وهذه درجة راقية في العبودية - فهي أفقدت نفسها قبل ذلك محوراً أساساً للعبودية وهو باب (الاستعانة) ولعلنا متفقون على أن أبسط شيء يدخل باب (الاستعانة) هو تَحَقُّق إدراك ضعف حول المخلوق ، وطلبه الاعتماد على ربه القوي القادر ، يقول الإمام أبو جعفر الطبري : " ومعنى قوله : {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } : وإياك رَبنا نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها -لا أحدًا سواك ، إذْ كان من يكفُر بك يَستعين في أمورِه معبوده الذي يعبُدُه من الأوثان دونَك ، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة [2] " .

ومن كلام الطبري نفهم أمراً ، وهو أن مفهوم (الاستعانة) لا ينكره حتى الوثنيون بدرجاتهم المتفاوته ، ولكن أن ينهار هذا الجدار بالصورة التي تُفقد الثقة بالمعبود وتنسب له صفة (التعب) ، وتسلب منه حوله وقدرته المطلقة ، فهذا يعني أن بدائية التصورات في الفكر اليهودي أكثر منها في عموم الفكر الوثني، ويعني كذلك أن مستوى العقل اليهودي لم يعد قادراً على استيعاب لغة التوراة في خطابها الديني عن الإلهيات ، إلا بعد عملية فبركة وطبخ كيميائي تنتج الجديد والمختلف عن عناصره المكونة له أساساً، فخرج لنا الإله بحركات وأفعال بشرية عادية خالية من معنى التبجيل والقداسة !

---

[1]- ابن حجر العسقلاني / فتح الباري في شرح صحيح البخاري / الجزء التاسع / ص 471

[2]- الطبري , أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310) / جامع البيان عن تأويل آي القرآن / ج1 / ص 161

نموذج قرآني (3) :

عبادة اليهود للعجل في العرض القرآني :

لقد اعتنى الكثير من المفسرين والباحثين في موضوع عبادة اليهود للعجل من خلال القرآن الكريم ، لاهتمام القرآن بتفاصيله من ناحية ، ولفظاعته من ناحية أخرى :

يقول تعالى : { **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)140)** } (الأعراف)

وهذه الآيات الكريمة جاءت بعد سياق طويل يحكي ما جرى بين موسى عليه السلام وقوم فرعون ومصيره ، لتستهل هنا تسجيل مواقف بني إسرائيل مع نبيهم موسى ، وعن معنى الآية يقول الإمام الطبري: " وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد الآيات التي أريناهموها ، والعبر التي عاينوها على يدي نبي الله موسى ، فلم تزجرهم تلك الآيات التي أريناهموها ، والعبر التي عاينوها على يدي نبي الله موسى حتى قالوا - مع معاينتهم من الحجج ما يحق أن يذكر معها البهائم إذ مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم يقومون على مثل لهم يعبدونها من دون الله - : اجعل لنا مثالاً نعبده وصنماً نتخذه إلهاً كما لهؤلاء القوم أصنام يعبدونها ... [1] ".

كما أن الفاء في قوله تعالى (فأتوا) تفيد الترتيب والتعقيب مما يدل على قصر الفترة الزمنية بين نجاتهم وطلبهم الغريب !

و الآيات السابقة تقرر حقيقة واضحة في قراءة نفوس هؤلاء القوم الذين عبدوا العجل بعد ذلك .
فهي تظهر أن الحكم المستخلص من كل الأحداث التي عايشوها في مصر ، لم تكن منظورةً إلا بعيون السوائم التي لا تعقل معنى ما تحويه خوارق العادات عند أصحاب الرسالات من دلالة ارتباطها برب السماوات !!

فإذا كان موسى في كل لحظة يذكرهم بأن ذلك كله لم يكن ليحصل إلا بمشيئة الله ، وهم قد رأوه كذلك مثلاً حياً للمؤمن المتعلق بالله دوماً ، فما هي حقيقة نظرتهم لرب موسى ، إلا أن تكون نظرتهم أنه رب لموسى

[1]- المصدر السابق / ج1 / ص19

دونهم ؟! ، وكأن العلاقة التي تربط بين معجزات موسى وربه – الذي طالما أخبرهم عنه وطلب منهم الاستعانة به – تخص موسى وحده ، وليس لعقولهم إلا انتظار أن يُحدِثَ لهم موسى صاحب الخوارق إلهاً لهم يعبدونه على النمط الذي يرغبونه ، فبادروا موسى عليه السلام بكل صفاقة وبكل ما تحويه العقول حين لا تفقه ربط المعاني ، ويؤكد ذلك وصف موسى عليه السلام لهم حينها بقوله { **إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** } وصفاً يؤكد جهلهم للأفق الذي يفتح ميدان الروح حتى ترفض هذا الإسناد [1].

ثم إن البيان الذي أظهره لهم موسى لم يكونوا ليعقلوه أو يغّير فيهم آلية التصور ، فهم اتخذوا العجل معبوداً لهم عند أول فرصةٍ خلوا بها مع أنفسهم دون سلطة موسى ، قال تعالى : { **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ** } (الأعراف 148)

وإن الحقيقة التي نصل إليها من خلال الربط بين مقطع الآيات الذي يذكر طلبهم السابق من موسى عليه السلام ، وهذه الآيات التي تصف اتخاذهم للعجل ، أن الأمر خارج عن حدود أي طرفٍ لمبررٍ يمكن أن يذهب بالموضوع إلى عوارض زمنية أو بيئية أدت بهم لهذا الانزلاق ، فواضح أن الفترة الزمنية بين نجاتهم وطلبهم ، وبين طلبهم وعبادتهم ، من القصر حتى لا تكاد تذكر ، فلا مكان أصلاً لافتراض النسيان وما زال هارون بين ظهرانيهم يذكرهم ..

تقول د. زاهية الدجاني في كتابها [نفسية بني إسرائيل في القرآن] : " كيف من الممكن أن نفهم قوماً قادهم نبيهم بمعجزاته المؤيدة من الله إلى الخلاص من عدوهم ونجاتهم وشق البحر أمامهم فمن المتوقع منهم أن يدركوا الهيمنة الإلهية على الأرض وضعف الإنسان وعجزه أمام كل هذا ، إذا لم يكن الحال كذلك لاستطاعت مثلاً قوة فرعون المادية مع جنده منع ما حصل لكن ذلك لم يحدث، فالقوة الإلهية أبطلت مفعول القوة المادية ... ومع ذلك فقد خاضوا أول اختبار لهم مع موسى بفشل ذريع [2] " [3] .

---

[1]- سيظهر تعليقي على هذه الآيات لاحقاً بخصوص موضوع طلبهم من موسى عليه السلام في مبحث النبوة الذي يلي هذا المبحث إن شاء الله تعالى .

[2]- د. زاهية راغب الدجاني / نفسية بني إسرائيل في القرآن / ص 68

[3]- أقول : وهذا الذي ذكرته الكاتبه جميل إلا أنها تابعت ووصفت السامري بالمتنبىء وبأنه حاول استخدام أسلوب نفساني خاص للتأثير على الغالبيه العظمى من القوم في التحرك عن مباديء وأحكام الدين نحو الوثنية .

والذي أراه أن المشكله لا تكمن في ذات السامرى أو أسلوبه بالقدر الذي يدور في ذواتهم العفنة التي سمحت لمثل هذه الألعوبة- وكانوا هم جزءاً مشاركاً فيها - أن تمر عليهم بكل سذاجه , والدليل لما قلت أمور مستوحاة من الآيات , أذكر منها :

الأمر الأول : أن أول طلب طلبه هؤلاء القوم بعد نجاتهم من فرعون كما ذكرته الآيات هو أن يجعل لهم إلهاً صنماً و كان موسى هو الذي يقودهم , ولم يكن للسامري في ذلك الوقت أي سلطة أو مجال .

والأمر الثاني : الفترة الزمنية القصيرة جداً في ترك موسى عليه السلام لهم فمن المستحيل أن يتحولوا كل هذا التحول بدون أن يكون لأنفسهم التهيؤ الكامل والمنبع الذاتي لقبول الانحطاط إلى شرك الوثنية والانقلاب إليه مرة واحدة في زمن قياسي , وأمر آخر في قوله تعالى من سورة الأعراف :"

إن جميع الملابسات والظروف التي أحاطت بهم – وكما بينتها لنا الآيات القرآنية – قد عزلتهم عن جميع ما قد يحدثه أي مؤثر خارجي في توجيه انحرافهم ، والآيات الكريمة وصفت لنا ظروف عبادتهم للعجل ، قد حصرت منبع السبب في ذواتهم ، وكشفت عن جهاز غريزة معطل ، أظهر التشخيص أنه المحرك للرابط بين عالم الموجودات المحسوسة والصلة العلوية بالقوة الخفية المدبرة لها ، والذي يقتضي الانتقال من الحس إلى المعنى ..

وإذا انتقلنا عبر سياق الآيات إلى الموقف الذي جمعهم مع موسى عليه السلام بعد عبادتهم للعجل ، فسنجد الحكم الصادر عليهم ليس متعلقاً بزلّةٍ ماضيةٍ تنهيها عقوبة آنيّة ، وإنما هو حكم ممتد إلى يوم القيامة ، امتداد هذا التعطيل فيهم :

{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) **وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** (153) **}**

ذكر المفسرين جواز أن يكون قوله :**{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ.. }** إلى قوله : **{ الدُّنْيَا }** من تمام كلام موسى، فبعد أن دعا لأخيه بالمغفرة أخبر أن الله غضب على الذين عبدوا العجل ، وأنه سيظهر أثر غضبه عليهم ، وستنالهم ذلة في الدنيا وذلك بوحي تلقاه ، وانتهى كلام موسى عند قوله :**{فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** وأن جملة **{وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ}** خطاب من جانب الله في القرآن ، فهو اعتراض والواو اعتراضية ذيل الله بهذا الاعتراض حكاية كلام موسى فأخبر بأنه يجازي كل مفتر بمثل ما أخبر به موسى عن مفتري قومه ، ويجوز أن تكون جملة : **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ }** إلى آخرها خطاباً من الله لموسى ، جواباً عن دعائه لأخيه بالمغفرة بتقدير فعل قول محذوف : أي قلنا إن الذين اتخذوا العجل إلى آخره ، مثل ما حكى الله تعالى عن إبراهيم في قوله تعالى : **{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** (126) [البقرة : 126] الآية[1].

والذلّة : خضوع في النفس واستكانة من جرّاء العجز عن الدفع[2] ، ومما جاء عند أبي السعود والآلوسي : " هي ذلة الاغتراب التي تضرب بها الأمثال والمسكنة المنتظمة لهم ولأولادهم جميعاً ، والذلة التي اختص بها السامري من

واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين} نسب الله تعالى فعل الاتخاذ إلى قوم موسى مع أن المتخذ هو السامري ويجيب المفسرون عليه بوجهين :
أحدهما : أن الفعل نسب إليهم لأنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به فكأنهم اجمعوا عليه , والثاني : أن يراد واتخذوه إلهاً ومعبوداً , أي أن الأمر مرجعه إليهم أولاً وأخيراً .

[1]- ينظر: ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 5 / ص 469

[2] - المصدر السابق / ج 5 / ص 469

الانفراد عن الناس والابتلاء بلا مساس [1] " ، وقال ابن عاشور : " نيل الذلّة إياهم أنهم يصيرون مغلوبين لمن يغلبهم ، فقد يكون ذلك بتسليط العدو عليهم ، أو بسلب الشجاعة من نفوسهم . بحيث يكونون خائفين العدو ، ولو لم يسلّط عليهم ، أو ذلّة الاغتراب إذ حرمهم الله ملك الأرض المقدسة فكانوا بلا وطن طول حياتهم حتى انقرض ذلك الجيل كله ، وهذه الذلّة عقوبة دنيوية [2] " .

وهذا التقرير في سورة الأعراف حولهم يظهر أمراً جوهرياً بخصوص عبدة العجل ليس متعلقاً بزمان موسى وحده ، ولعل سورة البقرة قد أثبتت الصورة الكاملة لما لحق بهم نتيجة كفرهم **{وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ }.**

وواضح كذلك من هذه الآيات في سورة الأعراف أنها عابت عليهم اتخاذهم العجل من ناحية عدم تشغيل عقولهم في أمر صلاحيته كإله **{ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) }** الأعراف.

وفي سورة البقرة كان العيب عليهم من عدة نواح :

- من ناحية التزامن القريب بين رؤيتهم عياناً مشهد غرق فرعون ونجاتهم بفرق البحر وعبورهم فيه، وبين طلبهم الغريب .

- من ناحية التوقيت الذي تم فيه عبادة العجل في ظرف ميقات موسى مع ربه ، قال الطبري : " ثم اتخذتم في أيام مواعدة موسى- العجل إلهاً ، من بعد أن فارقكم موسى متوجهاً إلى الموعد [3] ".

- من ناحية عدم جدوى الآيات البينات- التي عايشوها مع موسى عليه السلام - في منعهم وصدهم عن الوقوع في جرم فظيع كهذا الجرم ، يقول ابن كثير : " **{ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ..}** أي: بالآيات الواضحات والدلائل القاطعة على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله، والبينات هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفَلْق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن والسلوى، والحجر، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها **(ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ)** أي: معبودًا من دون الله في زمان موسى وآياته [4] " .

وقد تكرر في القرآن الكريم التعريض بهذه الحادثة في أكثر من موقف ، فجاء في سورة البقرة ذكر "العجل" أربع مرات ، ولاشك أن لذلك حكمته ودلالته ، وهي على الترتيب :

- في قوله تعالى : **{ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ } (51)**

- وقوله تعالى : **{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ... }** (54)

---

[1] - ينظر : أبو السعود , محمد بن محمد العمادي (ت951) / إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم / ج 3 / ص 45 , الآلوسي, أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي (ت 127هج) / روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / دار الفكر / بيروت / ط 1987م / ج 6 / ص 374

[2]- ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 5 / ص 469

[3]- الطبري / أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310) / جامع البيان عن تأويل آي القرآن / / 1987 / دار الفكر / بيروت / ج 2 / ص 36

[4]- تفسير ابن كثير / ج1 / ص 329

- و في قوله تعالى : {..**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ** } **(92)**.

- وقوله تعالى : {... **قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } **(93)**

و مناسبة الآيات الثلاث الأول أنها جاءت ضمن سياق تعداد النعم على بني إسرائيل ، أما الأولى فقد تلت الآية التي تذكر معجزة فلق البحر وإغراق فرعون أمام أعينهم لتفيد مزيداً من تشنيع فعلتهم واستقباحها .

و الآية الثانية هي ضمن السياق نفسه إلا أنها جاءت على لسان موسى عليه السلام وهو يبين لهم كفارة ما فعلوه وأن الله تعالى سيقبل توبتهم .

والآية الثالثة قريبة في مكانها من الآية الثانية لكنها تختلف عنها في الصياغة والسياق ، وفيها خطاب مباشر موجه من القرآن إليهم ،كما أن سياقها ربط فعل عبادة العجل بالتوبيخ مع مجيء البينات لأفعالهم السيئة ، وفي هذا ربط بين ماضيهم وحالهم بعد البعثة.

وفي قوله تعالى : { **وَإِذْ وَاعَدْنَا** ... } المعنى أن الله تعالى واعد موسى ملاقاة الطور لمناجاته فكانت المواعدة من الله لموسى ومن موسى لربه [1].

والعجل في الآيات الأربع التي في البقرة ، لم يبن من أي شيء ولكنه بين في سورتي الأعراف وطه قال تعالى : { **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ** (148)} وقوله تعالى في سورة طه : {.. **وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ** (87) }

والملاحظ أن الآيات الكريمة جميعها التي أشارت إلى العجل لم تذكر المفعول الثاني للاتخاذ في جميع القرآن وتقديره باتخاذ العجل إلهاً إلا أنها أشارت إليه في سورة طه {.. **فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ** (87) **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌفَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ** (88)}

وقد جاء وصف الآيات لهم (بالظلم) مباشرة من الله عز وجل ، وعلى لسان موسى تارة أخرى ، والظلم في أصله انعدام النور وجمعه ظلمات ، ويُعَبَّر به عن الجهل والشرك والفسق[2] .

وفي قوله تعالى { **وأنتم ظالمون** } المعنى : اتخذتم العجل ظالمين بعبادته وأنتم قوم عادتكم الظلم ، و يعلق د. فضل عباس في كتابه القصص القرآني على هذه المسألة بالقول : " وفي هذا أعظم دلالة على تخلخل العقيدة في نفوسهم

---

[1]- يقول الزمخشري : " فان قلت لم قال من حليّهم ولم تكن الحليّ لهم إنما كانت عارية في أيديهم ؟ قلت الإضافة تكون لأدنى ملابسه وكونها عارية في أيديهم كفى به ملابسة " (الكشاف / ج 1 / ص 109) .

[2]- الظُّلْمُ: أَخْذُكَ حَقَّ غَيْرِكَ .. وذكر نحو ذلك في وَضْعُ الشَّيْءِ في غير مَوْضِعِه (ينظر : الخليل بن أحمد الفراهيدي / العين / ج2 / ص 174 , الصاحب بن عباد / المحيط في اللغة / ج2 / ص 390

وانعدام نورها فكيف يصح في عقل عاقل أن يجعلوا العجل إلهاً لهم ولموسى كذلك وأن يبادروا فيصفوا موسى بالنسيان ! [1] ".

ما نلحظه من خلال هذه الآيات الكريمة في سورة البقرة أن قصة العجل لم تأت مفصلة هنا، وإنما على شكل إشارات في سياق الحديث عن نعمهم أو في سياق توبيخهم واستحقاقهم للعقوبة ، لكن الملفت هو تكرار التنويه إلى قضية العجل في هذه السورة أكثر من موضع ، والسبب في نظري أن فيه زيادة التركيز على الحدث ذاته ، وفظاعته أكثر من الدخول في تفصيلاته ، وكأن ما يلزم منه هنا ذكر فيما يخدم أغراض السورة ، [2] فليس المطلوب معرفة تفاصيل من أغواهم ليعبدوا العجل أو ما هي الطريقة في إخراجه أو ردَّةِ فعل موسى عليه ، لكن المطلوب تسليطُ الضوء على فعل" الاتخاذ" وتجريمهم بوصفهم أنهم استحقوا بذلك دخول دائرة الظلم من أوسع أبوابه :{**وأنتم ظالمون** } أي أنتم قوم عادتكم الظلم ، فالظلم هو حالكم الدائم وقد جاء وصف موسى حين سألوه قبلها أن يجعل لهم آلهه { **إنكم قوم تجهلون** } حيث وصفهم بالجهل المطلق وأكده لبعد ما صدر عنهم بعد ما رأوا من الآيات الكبرى[3] .

أما الآية الرابعة فتحتاج إلى توقف خاص ، حيث أنها تتحدث عن أمر خطير لا يتعلق فقط بمجرد سلوك خاطىء ارتكبوه بعبادتهم للعجل ، بل هي لا تتحدث أصلاً عن حادثة عبادة العجل بالتحديد، ولكنها جاءت لتقرر نتيجة معينة تصب في صميم شخصيتهم ، ذلك أنها جمعت في نسق غريب بين موضوع العجل والعشق القلبي ، حيث تقول :{**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ** } ، والمعنى كما يقول الزمخشري والمفسرون : " أي تداخلهم حبه والحرص عليه كما يتداخل الثوب الصبغ [4] " .

وأرى أن لهذه الآية دلالاتٌ خاصة تصلح أن تكون قاعدةً لوصف حالهم وما استقروا عليه في تركيب شخصيتهم وأداة توجيهها ، فاختيار النظم الكريم للفظ (**الشرب**) أكثر من مغزى ، يقول الرازي : " وأشربوا في قلوبهم حب العجل ، وفي وجه هذه الاستعارة وجهان :

الأول : معناه تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب ، وقوله : { **فِى قُلُوبِهِمْ** } بيان لمكان الإشراف كقوله : { **وَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً** } (النساء 10) .

---

[1]- أ د. فضل حسن عباس / القصص القرآني , إيحاؤه ونفحاته / ص45

[2]- يمكن وبعرض موجز أن أستلهم الروابط بين موضوعات سورة البقرة ومحورها وعلاقته مع بني إسرائيل , حيث أن هذه السورة تميزت بأنها أولت اهتماماً ملحوظاً في حديثها عن بني إسرائيل , حتى إنها أحصت أكثر من ستة عشر مرة شؤوناً وقضايا تخصهم ، ولعل أهم ما يميزها أنها عرضت جوانب ولقطات سريعة ومتتابعة من تاريخ بني إسرائيل في فترتهم السابقة , ثم أعقبتها بكشف حالهم فترة نزول القرآن , وحيث أن هدف السورة منصب على (رسم منهج المجتمع المسلم) , فقد قدمت -من خلال أسلوب [التخلية قبل التحلية]- اليهود على أنهم المثل الأعلى للمنهج المادي الذي يعادي منهج الفطرة القائم على الأيمان بالغيب .
ثم إن السورة الكريمة أرادت من خلال هذه الأدلة المتتابعة , إثبات أن بني إسرائيل قد استبعدوا عن مكانتهم في الاستخلاف وقيادة الأمم على منهج الله ليحل مكانهم أمة محمد صلى , وقد ناسب التعبير ب{يؤمنون بالغيب } للدلالة على هذا المعنى, كما تفردت بإعلان حقيقة كبرى وهي أن وباء المادية قد تشربته قلوب اليهود { وأشربوا في قلوبهم العجل } .

[3]- ينظر : البيضاوي / أنوار التنزيل / ج3 / ص55 , أبو السعود / ارشاد العقل السليم /ج1 / ص130

[4]- ينظر : الزمخشري / الكشاف / ج 1/ ص 192

الثاني : كما أن الشرب مادة لحياة ما تخرجه الأرض فكذا تلك المحبة كانت مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال [1] " .

وفي كلام الإمام الرازي من الإجادة والدقة ما يُغني عن البسط الكثير .

وأيضاً يمكن ملاحظة أن صيغة فعل (الشرب) يدل على أن فاعلاً غيرهم فعل بهم ذلك وهو الله [2] ، أي أنه جاء هنا كعقوبة عادلة ،كما أن الآية عللت السبب الذي أدى بهم إلى استحقاق هذه العقوبة، وهو طبيعة (كفرهم) .

وفي هذه الآية حكم واضح على ما حصل لهم من استغراقهم في المادية حتى قادتهم إلى درجة العشق والتشرب بحيث صار من الصعب بل ومن المستحيل أن ينفصل عنهم لأنه جزء من كيانهم .

ولقد وصف الله محل ذلك عندهم في القلب الذي هو في الأصل مركز التوجيه والتحكم والإرادة والحكم على الأشياء سلباً وإيجاباً ، يقول الراغب : " .. وقوله { **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ** }

قيل هو من قولهم أَشْرَبتُ البَعير شددت حبلاً في عنقه ، كقول الشاعر :

فأشربت الأقران حتى وقصتها بقرحٍ وقد ألقين كل جنين

فكأنما شد في قلوبهم العجل لشغفهم ، وقال بعضهم معناه أُشْرِبَ في قلوبهم حُبُّ العجل ، وذلك أنَّ من عادتهم إذا أرادوا العبارة عن مخامرة حب أو بغضٍ استعاروا له اسم شراب إذ هو أبلغ إنجاعٍ في البدن ، كقول الشاعر :

تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن و لم يبلغ سرور

ولو قيل حب العجل لم تكن هذه المبالغة ، فإن في ذكر العجل تنبيها أن لفرط شغفهم به صارت صورة العجل في قلوبهم لا تنمحي .. [3] " .

¤ **مسألة :**

قد يقول قائل كيف يدخل من تاب من عبادة العجل ، في دائرة هذه العقوبة الشديدة التي لحقت بهم في قوله تعالى في سورة البقرة : {**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ** } ؟

الجواب عن ذلك أكثر من وجه ، أولها أن الآيات التي في سورة الأعراف قد بينت ذلك في قوله تعالى : {**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** }(153).

---

[1]- الرازي / التفسير الكبير / ج 2 / ص 224

[2]- يرد الإمام الرازي على المعتزلة الذين أولوا فاعل (وأشربوا) على اعتبار أن هذه الآية دليل لأهل السنة أن كل محدث للأشياء هو الله.
ينظر الرد في : التفسير الكبير/ ج2 / ص 171)

[3]- الراغب / المفردات / ص 260- 261

والمعنى عند أبي السعود: " أي تمّوا على اتخاذه واستمروا على عبادته كالسامريِّ وأشياعِه ، كما يُفصح عنه كونُ الموصولِ الثاني عبارةً عن التائبين فإن ذلك صريحٌ في أن الموصولَ الأولَ عبارةٌ عن المصِرّين " [1]

وقد علل ابن عاشور ذلك بالقول : ".. وهذه الذلّة عقوبة دنيوية قد لا تمحوها التوبة ، فإن التوبة إنما تقتضي العفو عن عقاب التكليف ، ولا تقتضي ترك المؤاخذة بمصائب الدنيا ، لأن العقوبات الدنيوية مسببات تنشأ عن أسبابها ، فلا يلزم أن ترفعها التوبة إلا بعناية إلهية خاصة ، وهذا يشبه التفرقة بين خطاب الوضع وخطاب التكليف.

ومن هنا فالآيات السابقة كشفت أن الموضوع لم ينته بتوبة هؤلاء ، ولكنه ابتدأ وسيستمر مع ثلة تبقى على ولائها لصورة العجل وميلها نحوه .

كما أن آية أخرى أظهرت أن فعل اتخاذ العجل لم يكن فقط وقت ميقات موسى عليه السلام مع ربه ، ولكن هذا النوع من الكفر قد تكرر مرات عديدة ، فلو لاحظنا قوله تعالى في سورة النساء : **{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا } (153)** النساء

والمعنى بيان كمال جهالاتهم وإصرارهم على كفرهم فإنهم ما اكتفوا بعد نزول التوراة عليهم بطلب الرؤية جهرة ، بل ضموا إليه عبادة العجل وذلك يدل على غاية بعدهم عن طلب الحق والدين [2]

و"ثم" هنا تفيد الترتيب والتعقيب ، أي أن فعل اتخاذ العجل معبوداً لم يتم فقط فترة ميقات موسى مع ربه كما ظهر في سورة طه والأعراف ، ولكنه كذلك تم بعد حادثة الصاعقة وبعثهم من جديد ، كما تذكر الآية السابقة في سورة النساء !

ووجه آخر متعلق بالمسألة ، وهو أن العقاب الذي ذكره الله تعالى من إشراب العجل في قلوبهم ، لم يكن مختصاً بهذه المعصية وحدها فسياق الآية الذي ذكرته واضح في بيان أن الموضوع تجاوز هذا الفعل السيء إلى كفر عام بشريعة التوراة وأخذهم العهد عليها ، فقد جاء في نفس الآية : **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا..}.**

لقد أظهرت الآية الكريمة فنّاً رهيباً من فنون الكفر أوصلهم إلى الدرجة التي لم يعد يحدث فيها تتابع المعجزات أي أثر يذكر سوى المزيد من الاستخفاف والوقاحة : **{قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ }.**

[1]- أبو السعود / إرشاد العقل السليم / ج3 /ص 45
[2]- ينظر : الرازي / التفسير الكبير / ج 5 / ص 429

وإذا كانت سنّة الله تقتضي أن يهلك أقواماً غابرين رفضوا معجزة أنبيائهم فاستحقوا شكلاً من أشكال العذاب - وليس هذا ببعيد عن مخيلتهم وقد عاينوا فرعون يغرق أمامهم — فهم بتفاعلهم المقيت مع كل هذه المعجزات ، وكل هذه الفرص التي لم تعط لقوم غيرهم ، ثم هم رفضوها في كل مرة وأبوا إلا أن يفشلوا في كل اختبار مروا به ، لم تكن عقوبتهم -هذه المرة- عذاباً حسياً يهلكهم عن بكرة أبيهم ، ولكنه عذاب معنويٌ من نوع آخر :{ **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ }**.

وهذا العذاب أقسى وأشد ، لأنه سلبهم شيئاً من داخلهم ، و أحلّ مكانه "مادية عجلية" أُشربتها قلوبهم فأفقدهم غريزة إحساسهم بالمعنويات ، وأخلت بتوازنهم الروحي والنفسي ، فباتوا فصيلة آدمية مميزة بخاصية فقدانهم للمعنويات [1]، وحبهم الشديد للمادة ، حتى وصل إلى درجة العشق الكامل .

ومن طبيعة الأمراض المعنوية أن تحصل بالتدريج فهم شربوا حب العجل على جرعات ، كان لكل فتنة تمر عليهم نصيب منها حتى اكتمل قلبهم تشرباً لهذا المعشوق العجلي ، والذي هو رمز لكل ما يحويه دناءة المادة وتوابعها حين تعزل عن أفق المعاني ودواعي الروح .

ويحضرني في هذا المعنى القريب ، الحديث الذي أخرجه مسلم : ".. قَالَ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ " [2] .

---

[1]- للشيخ البهي الخولي –رحمه الله - الفضل في إبراز سمة "خاصية فقدان المعنويات" عند اليهود , في كتابه : بنو إسرائيل في القرآن , بصورة لم أعهدها عند غيره من الكُتّاب

[2]- رواه مسلم في صحيحه : (ج1 / ص349 , رقم : 207)

المطلب الثاني : التقليد الوثني وعلاقته بعشق المادة اليهودي:

رأيت من الإنصاف وقبل أن أدخل في إثارة موضوع التقليد الوثني - الذي قد يسهل تفسيره الظاهر لعلاقته القوية بموضوع المادية بجامع (المحسوس) بينهما - أن أتدرج بالوقوف أولاً على علاقة الفكر المادي بالتوحيد ، والتي قد تظهر بعيدة عنها بعض الشيء ، والدافع لذلك عندي ، هو سد الثغرات التي من الممكن أن تحدثها بعض الادعاءات اليهودية وبعض نصوص العهد القديم القائلة بدعوى توحيد الإله ، والذي قد يصعب الربط بينها وبين فكرهم المادي الشامل في تصور الإلهيات .

مدخل:

ما من شك أن أهم ما يميز طبيعة الإنسان عن غيره من المخلوقات هو بحثه المستفيض في الكون وأسرار الحياة ، و لم يمر على البشرية حتى فترة إيمانها بالمحسوس المجرد فقط ، لم تعدم في جانب – ولو كان ضئيلاً - صبغة روحية لنقاط تحمل المقدس من الشكل المحسوس على تفسير فجوات لا يمكن أن يغلقها المحسوس أبداً .

ومع أني أجزم بأنه لا مسوغ عقلي مقنع يدعو لحملنا على التسليم بنظرية تطور الأديان والتي تعتبر الإنسان قد مر بمراحل عديدة من أشكال الوثنية وتدرج بها وصولاً إلى توحيد الله ، لكن قد تكون الحسنة الوحيدة في النظرية نظرتها إلى التوحيد على أنه أرقى ما يمكن أن يصل إليه الفكر الديني عند البشر [1].

والعجيب المحير في الوقت نفسه ، أن التوحيد يقف حاجزاً أمام تقبل الأفكار الوثنية التي هي دون مستوى الرقي الفكري الذي أطلقه السمو العقدي لحامل فكرة التوحيد ، فإذا حددنا من ذلك كله رسالة (التوحيد) الذي دعا إليه الإسلام - وهي بالتأكيد قمة ما يمكن أن يصل إليه فكر التوحيد من مثالية حقيقية منسجمة مع الواقع – وأضفنا إلى تلك الرسالة أشخاصاً مجددين لها(أنبياء بني إسرائيل) يجلون ما يمكن أن يراكمه البعد والفترة الزمنية الطويلة من أهواء تذهب بالفكرة والدين- كما تحقق فعلياً لليهود من أجواء مثالية - وقفنا مندهشين أكثر أمام هذا التناقض العجيب الذي حملته لهم رسالة الأنبياء من التوحيد ، وذلك المنطق الذي يحملونه من التصورات الوثنية في كتبهم ، والمظاهر الوثنية التي رافقتهم حتى فترة وجود أنبيائهم معهم .

وإذا استثنينا القليل المؤمن الذين أنصفهم القرآن بقوله : **{وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ }** الأعراف(159) ، نخرج بأن هذا الإشكال لا يحله إلا افتراض أن الفقه الحقيقي لمعنى التوحيد الذي تعاقب أنبياء بني إسرائيل على تبليغه لم يكن له صدى حقيقي في عقولهم ، فإذا عمقنا النظر في نطاق الدوافع المتغلغلة في نفوس

[1]- للأسف , فقد تأثرعدد من الكتاب المسلمون بهذه النظرية الغربية , ومنهم الكاتب والمفكر المعروف عباس محمود العقاد في كتابه: (الله) حين بنى الكثير من طرحه عليها !

هؤلاء القوم ،كشف لنا سرعة استجابتهم للمظاهر الوثنية ميلهم الكبير نحو المادية كبداية ملحوظة في مظاهر العبادة وشكلها الذي اختاروه ، ومن هذه البداية يمكن أن نناقش فكرهم المادي وعلاقته بالتوحيد :

أولاً : الفكر المادي اليهودي والتوحيد :

أبدأ تحت هذا العنوان بما انتهى إليه العقاد بقوله : " إن الوحدانية التي كان يدركها الإسرائيليون في ذلك الزمن لم تكن وحدانية تفكير ولكنها وحدانية تغليب لرب من الأرباب على الأرباب ، و لم يخط اليهود خطوة غير هذه الخطوة وهي أن لليهود إلها يعلو على آلهة غيرهم من البشر [1] " .

ويقول د. صابر طعيمة : " بعد البحث المستفيض في موضوع (عقيدة التوحيد في العهد القديم) يمكن القول : إن الذي يؤكد بالبرهان القاطع والحجة الدامغة على أن موضوع العقيدة الدينية في الإله عند بني إسرائيل تفتقد عقيدة التوحيد تماماً ذلك أنه على ضوء التراث الذي انتهى إلينا لم يرق بنو إسرائيل بالفكرة الدينية و لم يعرفوا معنى التتريه للإله الخالق وبالتالي لم يعرفوا معنى التوحيد الخالص ... فليس هو الإله المنفرد بالخلق والواحد في الكون والخالق لكل شيء ، ولكنه الإله الأعظم بين الآلهة الأقل عظمة ... والعجيب المحير هو أن جماعة إسرائيل التي تتحدث عنها الأسفار لم تطالعنا بعبادة وعقيدة في الإله بغير ذلك النمط المعروف من خلال العجل والصنم ...

وحتى في المراحل التي ارتقوا فيها بعقيدة الإله الذي يؤمنون به لم يتزهوه أبداً ، فهو إما حالٌّ في صورة وموقف ... وإما جسم وكيان وحيز في صورة وموقف آخر ... وإما صورة خيالية غير محددة الهوية ولا معروفة الصفات في موقف ثالث ... وهكذا[2] ".

فإذا كان الباحثون قد خرجوا بدايةً بهذه النتيجة الواضحة من نصوصهم التي بين أيدينا وغيرها ، ففي القرآن الكريم ،كذلك ما يكشف هذه الحقيقة ، حيث جاء في سورة التوبة : **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) }**

وفيها يثبت الله على اليهود أنهم في فترة من فتراقم نسبوا له الولد ، ويبدوا أن هذا الإجرام قد تم في وقت متقدم نسبياً ، لأنه لم يكن له أثر ظاهر في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ولعل هذا الوقت هو بدايات تشكل اليهودية بمصطلحها الديني المستقل ، بدليل أن عزير عليه السلام تعاصر زمنه مع فترة ضياع التوراة (مرحلة السبي

[1]- عباس محمود العقاد / إبراهيم أبو الأنبياء/ دار الهلال / ص361
[2]- د. صابر طعيمة / التراث الإسرائيلي / ص363)

البابلي) [1]، لذا فالقرآن عندما طرح قضية نسبة أهل الكتاب للولد ، ناقشها من منظور ادعاء النصارى بعيسى عليه السلام .

ومع هذا فلحكمٍ معينة أراد الله أن يشهر فعل اليهود في هذا الموضع الوحيد في القرآن ، وقد يكون أحداها رد دعوى نسبتهم إلى التوحيد ، وإثبات تقبلهم لفكرة تجسيم الإله بالصورة والعوارض البشرية ،كما أن الآية الكريمة عللت أن الأمر عائد إلى مجرد كونه شكلاً من أشكال التقليد{ **يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ**}.

وعلى فرض ما يدعيه اليهود بحملهم لصورة من صور التوحيد جدلاً [2]، فمن المؤكد أن هناك أيضاً تفسيراً أو أكثر ، يمكن أن يحل إشكالية العلاقة بين الطبيعة المادية اليهودية وفكرة التوحيد عندهم :

والذي أراه أن الصورة التي يرسمها قلبٌ متعلق بالمادة وفكر محصور بمحدوديتها لا يمكن أن يتصور الإله إلا على شكل [رب المصالح] لذلك فهذا السيد الرب لا بد وأن ينحاز- في الفكر اليهودي المادي - إلى الصورة التي تحقق رغبة المتطلع للكسب من هذه المصالح ، ولا مخرج من هذا إلا بإله واحد يجتمع فيه الأنا اليهودي لإشباع رغبته في تمثل المصالح الدنيوية المادية بصورة مريحة ، فتم هذا الإله على الطريقة اليهودية معزولاً تماماً عن الخلق والكون ، ومسخر فقط لخدمة النمط اليهودي [3].

إذن فمنطق التوحيد في الفكر المادي اليهودي جعل وحدانية الإله متروعة من أي شكلٍ في الإطار الأفقي أو العمودي الذي يمكن أن يحيط بفكرة الإله الواحد ، والنتيجة ليست افتراضية ، بل هي ظاهرة في المنطق الذي أفرز نظرية [شعب الله المختار]، المتعلقة أكثر بتحجيم صورة الله عنها بتعظيم صورة الشعب ، حيث إن الصورة التي احتزأت الإله من مكانه الحقيقي كرب للعالمين إلى رب لعالم بني إسرائيل لا يمكن بدايةً أن تلتقي مع الوحدانية بشيء ، ولا يمكن نهايةً أن تحتفظ بمعنى جوهري لمفهوم الألوهية في الخلق والسيطرة والتدبير .

وهذا يقودنا بالضرورة من إثارة موضوع (الوحدانية) إلى الدرجة التي يثارُ فيها موضوع علاقتهم بالوثنية من ناحية المنظور المادي الغالب في شخصيتهم .

---

[1] - يراجع ما ذكرته حول هذا الموضوع في التمهيد .

[2] من النصوص التي تتحدث عن التوحيد صراحة, ما جاء في سفري الخروج واللاويين : " .. ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلا : أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أمامي , لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض ولا تسجد لهن ولا تعبدهن" (سفر الخروج 20)
ونص اللاويين يقول : "..يقول موسى : لا تصنعوا لكم أصناماً ولا تقيموا لكم تماثيل منحوتةً أو أنصاباً مقدمة ولا ترفعوا حجراً مصوراً في أرضكم لتسجدوا له ...." (لاويين 26 :10)
وهما واضحان في الدعوة إلى التوحيد ونبذ الأصنام ,

[3] - أُفَضِّلُ استخدام مصطلح (النمط اليهودي) للدلالة على أن أصل الرابط الذي يجمع بين اليهود اليوم هو نمطهم المتشابه في صفات نفسية وفكرية محددة.

ثانياً : ظاهرة النقولات الوثنية في التراث اليهودي وعلاقتها بالفكر المادي :

لم أجد أحداً ممن تناول التراث الإسرائيلي بالبحث والتمحيص إلا ويخرج- على الأقل – بنتيجة يصف فيها مضمون النصوص بالتضارب والتناقض .

وأستشهد بكلام المتخصص "جيمس فريزر" في كتابه : الفولكلور في العهد القديم ، حيث يقول : " العجيب المحير هو أن جماعة إسرائيل التي تتحدث عن الأسفار لم تطالعنا بعبادة وعقيدة في الإله بغير ذلك النمط المعروف من خلال العجل والصنم ... وهل يستطيع باحث منصف أن يرى قضية (الألوهية في العهد القديم) من خلال هذه النصوص مطروحة بغير مؤثرات الوثن والصنم وأساطير الخرافة في الأمم البدائية [1] " .

وإثبات أثر العقائد الوثنية القديمة في العهد القديم ليس بالأمر الصعب ، فمثلاً لو اخترنا بعض النصوص من نفس الموضوع هنا ، سنجد فروقاً جلية في المعنى والصياغة والمضمون يتضارب فيها مفهوم الإله بصورة واضحة .

ومن النصوص التي تتحدث عن تعدد الآلهة بأشكال متنوعة ، وغيرها من الطقوس الوثنية ، أذكر منها على سبيل المثال :

عبادة الحية :

ما جاء في سفر العدد : " .. الرب أمر موسى أن يصنع حية محرقة ويضعها على راية فكل من لدغ فنظر إليها يحيا سفر العدد (21 : 6-9) ، حتى أنه ورد نص صريح في سفر الملوك يتحدث أنهم كانوا يوقدون للحية النار : " وسحق[2] حية النحاس التي عملها موسى لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ..." [3] (الملوك 18:4)

عبادة الملائكة:

---

[1]- جيمس فريزر في كتابه : الفولكلور في العهد القديم / الجزء الاول / ص263 / القاهرة عام 1972, نقل عنه : صابر طعيمة / التراث / ص373

[2]- هذه إشارة إلى الملك حزقيا ابن أحاز ابن الملك يهوذا (686 – 714) ق.م الذي وسحق الحية لأنهم كانوا يوقدون لها الأضاحي , كانوا يعبدونها منذ خمسة قرون .(شفيق مقار / السحر في التوراة / ص179).

[3]- ويعلق الكاتب شفيق مقار على النص :" إذن راية الحية هي كانت راية يهوة وفيها تجسيد الإيمان الديني الضارب في القدم في قدرة الحية في الديانات الماترياركية التحت أرضية من الآلهة الأم الأرض مصدر الحياة , وباتخاذه تلك الراية اتخذ يهوه لنفسه سحر الحية ذاك , ولا غرو أن عبد بنو إسرائيل تلك الراية طوال قرون ... وهذه صورة اخرى من صور الشعب : يعبدون الافاعي ويقولون انهم شعب الله المختار !! "./ شفيق مقار / السحر في التوراة / ص179 , سفر العدد (21 : 6-9)

(الكروبيم) وهي منحوتات الملائكة الصغيرة المجنحة لم تشذ عن هذه القاعدة فقط بل أصبحت موضوع عبادة خاصة واستمرت وتطورت حتى عصور متقدمة جداً ، وما زال أصحاب فرقة القبالا الباطنية[1] يعبدونها إلى اليوم" [2]

طقوسٌ وثنية في القرابين !

جاء في أسفار الخروج واللاويين ومزامير داوود نصوص تصف المذابح التي اتخذها اليهود بصفات أقرب إلى التقاليد الوثنية ، ومنها جعل المذبح بقرون إيمانا بقدسية القرون كما كان الوثنيون في طقوسهم الدينية يربطون الذبيحة بقرون المذبح لتتأهل للتقدمة الإلهية، هكذا قلدهم العبريون بتقديم الذبيحة بعد ربطها في قرون المذبح ،فإذا لم تربط الذبيحة إلى قرون المذبح كان من المتوجب على الأقل أن يوضع من دمها على هذه القرون [3].

وفي نسبة هذه الطقوس إلى الرب وموسى حاضرة وجاهزة في كل وقت : " لأنه هكذا قال الرب لموسى : وتأخذ من دم الثور وتجعله على قرون المذبح بإصبعك " ! (خروج 29 : 12)

أما عن طقوسهم في عبادة العجل فحدث ولا حرج ، حيث يذكر الكتاب المقدس العجول في أماكن عديدة ، قد أحصيت منها في قاموس الكتاب المقدس صوراً كثيرة ، منها ما يصف قيمة العجول عند اليهود : [(أمثال 14:4)، (عاموس 6:4)، (زكريا 15:23) ، (عدد 19:1-22)، (عزرا 9:13 -14)

والعادات التي كانت تتعلق بها :(تكوين 15:9-17) ، ومنها ما يرمز إلى الصفات التي تتحلى بها العجول كالقفز والصوت العالي (أرميا 5:11) (أشعيا 15:5) ..

· **مرد التناقض في (التصور اليهودي للإله) وعلاقته بالشخصية اليهودية المادية :**

هناك عدة أسباب يمكن أن نرد لها هذا التناقض ، أحدها - وبإيجاز شديد - سبب واضح جداً لا يحتاج تكلفاً في البحث والتعليل ، يعود إلى الفترة الزمنية الطويلة التي أعقبت ضياع التوراة و محاولة تأليفها من جديد ، وتعاقب مراحل تزويرها متأثرة بالظروف الاجتماعية والسياسية .

ولا أريد أن أدخل في تشعبات مراحل التزوير وتحليل عوامله ، ولكن الملاحظة الجديرة بالاهتمام هي التأثر الواضح بالنقولات الوثنية ، فإذا تأملنا هذه النقول نجدها نفسها تتنوع وتتضارب وتختلف في كثير من الأشكال والصور والهيئات .

[1] = سأتحدث أكثر عن فرقة القبالا في المطلب الثاني لمبحث المعجزات من هذا الفصل .

[2]- ينظر : سهيل لبيب /التوراة بين الوثنية والتوحيد / ص5

[3] - يراجع أسفار : (اللاويين 9 : 9 /15) و (مزمور 118 : 27) و (خروج 29 : 12) .

وعلى افتراض أن المزاج اليهودي متقلبٌ هذا التقلب السريع والمتعدد ، فلماذا احتفظ بهذه النقولات كل هذا الوقت ؟! وحتى نكون واقعيين وأكثر دقة ، يجب أن نعترف كذلك أن الكثير من مظاهر الطقوس الوثنية لم تعد ممارسة في الحاضر اليهودي المعاصر، وكأن الموضوع ليس هو الإيمان بحقيقة هذه النصوص ، أو بمعنى أقرب لو كان الاعتقاد اليهودي داخلاً حقيقةً بشيء من مظاهر هذه الطقوس ، لكان على الأقل تجاوز مراحل النقولات إلى فكر وثني مستقل له قواعده وأصوله وتقاليده الوثنية المعرفة والواضحة تماماً كأي ديانة وثنية أخرى ، ولكن ليس هذا الخليط المتضارب من النقولات الوثنية بالتي يمكن أن تستقر عليها أي ديانة ، وما أريد أن أصل إليه بالتحديد أن اليهود لم يكونوا يمارسون في نقولاتهم شكلاً من أشكال الدين الحقيقي الراسخ الاعتقاد والممنهج عن قناعة ، وإنما هم لم يتجاوزوا مرحلة التقليد ، أي أن هذه النقولات الوثنية هي مظهر من مظاهر العشق المادي ، ومعلوم أن العاشق يقلد مظاهر معشوقه في كل شيء ، فلا يخرج الأمر عن تقليد لشيء مرغوب ومحبب !

لقد أظهر الله لنا بداية هذا التقليد بقوله **{قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ}**الأعراف138
ثم أظهر الله لنا مواقف عديدة ومن مراحل مختلفة مروا بها مع أنبيائهم ليخرجوا بطبيعة كفرٍ مميزة ، هي آخر حصيلة التقلبات التي انتهت بهم إلى الإقرار بحقيقة واضحة أعقبت تفردهم بشكل من أشكال الكفر المتراكم في كل مرة ، ليكون حكم القرآن عليهم في النهاية **{وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ}** البقرة (93)

وهذا الإله المصور في عقيدة العهد القديم كزعيم قبيلة هزيل أو قائد عصابة -كما رأينا- ليس رمزاً عقدياً يمثل معنى روحياً مقدساً ، وإنما وضع ليؤدي وظيفة إلحاق الشرعية لكل ما أراد اليهود فعله في سبيل تحقيق المصلحة المادية (رمز تبريري) .

إذن فالموضوع الذي كشفه القرآن أن المادية العجلية قد صار مكانها ليس حيز الاعتقاد [1]، بل حيز العشق القلبي ، وهذه المظاهر التي نراها ليست إلا تمثيل لبعض من ميولهم في إرواء عشقهم للمادة !
لقد حل العشق المادي محل غريزة التدين فأفقد القوم خاصية استشعارهم للمعنويات ، فهم أثبتوا من خلال ماكشفه القرآن الكريم و فضحته نصوصهم أنهم فشلوا حتى في تصور الإله الوثني بالصورة المقدسة على أي شكل محسوس لائق .

[1] يقول الكاتب اليهودي شتاينشدر (1893) : " إن تاريخ الأديان التي أنجبها الدين اليهودي , عبارة عن حلقة غير منقطعة من جرائم الشروع في قتل أبيها .." (د. هرتزس / في الفكر اليهودي / دار مجلتي / القاهرة / ص96 / نقل عنه : د. عبد الله التل / الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام / ص67 / المكتب الإسلامي / بيروت) .

ثالثاً : المادية اليهودية ومظاهر التشديد في الأحكام والعبادات :

إذا كانت جميع المعاني والمصطلحات الدينية لا تدخل قاموس اليهودي إلا مجردة من دلالاتها الروحية والتعبدية ، فبالتأكيد سيكون ما لمسناه - من فقدان صلة الضمير اليهودي بأفق المعنويات- نتيجة متأصلة وعميقة في تفسير مظاهر الطقوس والعبادات اليهودية على أنها مجرد تعبير عن تفاعلهم الحسي مع ما يشاهدون من صور شكلية ملونة للعبادات عند الغير ، وقد قدمتُ أنّ هذا الأمر لا يخرج عن آلية التقليد، بشواهد حية من تصرفاتهم وتعبيراتهم .

كما توصل الباحثون " أنه ليس في جملة العقيدة الدينية الإسرائيلية على مدى ضخامة أسفار العهد القديم محاولات تتحدث فيها هذه الأسفار عن صور أخلاقية إيمانية، فيها يقوم المؤمنون بالتبتل أو التعبد لله بروح جماعية أو فردية ، الأمر الذي جعل معظم علماء الأديان من الغرب يرجعون في يسر وسهولة الصلوات والأدعية الإسرائيلية التي جاءت في بعض فقرات العهد القديم إلى مصادر تأثرت بها ونقلت عنها الصلوات الإسرائيلية من بابل وفارس حين كانوا في الأسر بعد أن فقدوا كل مصادر الوحي الإلهي[1] " .

ولكن حتى الشكل التعبدي الذي راق لهم هو أسير شكل متنطع متشدد ، وفي حقيقته ترجمة للعقلية المادية المغالية، لذلك من السهل أن نرى ما اعتمدوه من أحكام ، من الصعوبة والشدة التي تناسب شعب أصحابها ، وكذلك فإن أحكام الشريعة التوراتية تناسبت بحكمة مع ميلهم الدائم للعصيان والتمرد **قال تعالى : {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا }** [النساء :60]

وقوله تعالى : {فَبِظُلْمٍ مّنَ الذين هَادُواْ } أي فبأي ظلم منهم ، والمعنى ما حرمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبوه . وقد ذكر المفسرون في هذا التحريم أمرين :

الأول أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا في كتابهم، وحرَّفوا وبدلوا أشياء كانت حلالا لهم، فحرموها على أنفسهم، تشديدًا منهم على أنفسهم وتضييقًا وتنطعاً ، والثاني : أن يكون شرعيًا بمعنى : أنه تعالى حَرّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالا لهم قبل ذلك، كما قال تعالى: **{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزلَ التَّوْرَاةُ }** [آل عمران: 93] المراد أن الجميع من الأطعمة كانت حلالا لهم، من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل وألبانها [2].

---

[1] ما أقره الباحثون من نتيجة , ذكرها د. صابر طعيمة في رسالتة الجامعية : التراث الإسرائيلي في العهد القديم / ص 390

[2] ينظر : ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج 3 / ص 165

والذي أراه أن كلا الاحتمالين وارد لأنهما عائدان مباشرة إلى ظلمهم ، فالأول يفسر أن طبيعة ظلمهم قادتهم إلى أن يشددوا على أنفسهم ، والثاني يظهر أن نتيجة ظلمهم قادت إلى تحريم التوراة عليهم أحكاماً كانت حلالاً.

ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة ، كما قال في سورة الأنعام: **{ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ }** [الأنعام: 146] أي: إنما حرمنا عليهم ذلك ؛ لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيهم ، والبغي مجاوزة الحد ، فهم تجاوزوا حدهم وتنطعوا في كل شيء ، ولهذا قال: **{ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا ..**

وأيضاً نحن نلمس طبيعة تشددهم في كل شيء ، ومن سمات هذا التشدد في عباداتهم وأحكامهم ، ما يلي :

- تعدد المحرمات وكثرتها بصورة غير مسبوقة في الشرائع السابقة على نزول التوراة ولا في شريعتي المسيحية والإسلام ، وقد فصلت التوراة هذه المحرمات فيما يلي :

" وكلم الرب موسى وهارون قائلا : كلما بني إسرائيل قائلين لهم هذه هي الحيوانات التي تأكلونها كل ما شق ظلفه إلى شقين ويجتر من البهائم فإياه تأكلون " .

ومن مظاهر التشدد ما ذكر في الإصحاح الحادي عشر من سفر اللاويين : " ابن عرس والفأر والظب والجرذون والحرباء ... هذه هي النّجسة من الدبيب الذي يدب على الأرض ، وكل من مسها بعد موتها يكون نجسا حتى المساء ثم يطهر ، وكل من وقع عليه واحداً منها يكون نجسا إلى المساء ثم يطهر . وإذا وقع منها شيء ميت على كل متاع من خشب أو ثوب أو جلد يكون نجساً ".

"وكل متاع يتنجس يلقى به في الماء ويكون نجساً إلى المساء ثم يطهر ".

"وكل متاع من الخزف وقع فيه منها فكل ما فيه يتنجس وأما هو فتكسرونه ، لأن ما يأتي عليه ماء من كل طعام يكون نجسا" (لاويين 33:11)".

- وأما طمث النساء ، فيكفي أن يتسبب في نجاسة ذاتية لصاحبته ، فكل من يلمسها من البشر فهو نجس وكل شيء تلمسه فهو نجس ، وكل من يلمس شيئاً لمسته فهو نجس [1].

- وأي شخص يموت في حجرة أو خيمة سواءً كانت الميتة طبيعية أو قتلا فهو نجس ، ويعتبر المكان الذي مات فيه – حجرة كان أو خيمة – نجسا لمدة سبعة أيام ، كذلك كل الأواني والفرش الذي كان بها .. وكل الأشخاص الذين كانوا بها أو دخلوها تصيبهم النجاسة وكل من مس جثة إنسان ميت وينقل نجاسته إلى كل شيء يمسه !

[1] ينظر الإصحاح العشرون من سفر الاويين , فقرات (20 – 28) .

وفي مراسم تكفير الخطايا إذا أخطا احدهم سهوا في أقداس الرب يقدم إلى الكاهن كبشا سمينا تكفيراً عن خطأ السهو ! [1].

- ومن الممارسات المعقدة في مراسم تكفير الخطايا، هو الدور الذي يلعبه الكاهن أو الحاخام في ذلك ، لحرق الذبائح في محرقة المعبد (أو المذبح كما يطلقون عليه) برش الدم على قوائم الدار أو قوائم المذبح حتى يكون الدم المنتشر أدعى للتكفير![2]

- وكما هو الحال في أحكام العبادات [3]نجد أحكام المعاملات في الشريعة اليهودية قد امتازت بالشدة والغلظة ، إلى درجةٍ يصعب تطبيقها ، فمثلاً : " من ضرب أباه أو أمه يقتل ، ومن شتم أباه أو أمه يقتل " [4].

وقد جاء في أكثر من موضع شرائع أخلاقية تحرم لبس الملابس ، المنسوجة من أكثر من صنف بمعنى ألا يكون الثوب من كتان وصوف ، أو قطن وكتان معاً ... ونحو ذلك [5]

أما جذور هذا التشدد فقد بدأت من عهدهم مع موسى عليه السلام ، وقد فصل لنا القرآن أسلوبهم المتشدد مثلاً في قصة البقرة ، فجاء في أسانيد كثيرة ذكرها الطبري عن ابن عباس ، قال : " لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم[6] " .

وهذه المظاهر استمرت طيلة رفقتهم لسيدنا موسى وبعده ، فنلحظ توبتهم في سورة البقرة بقتل أنفسهم ، قال تعالى : { **فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ** } وبالتأكيد فإن لاختيار هذا النوع من العقوبة حكمة ناسبت طبيعة نفوسهم .

وما رأيناه من هذه المظاهر بلا شك، انعكاس للنفّس المادي الذي يستهويهم في كل شيء ، كما لها دلالتها الوثيقة على كونهم لم يفهموا روح الأحكام ولا روح العبادة كما لم يفهموا - قبل ذلك - روح العقيدة ومعنى الاتصال مع الله.

---

[1]- ينظر : د. فاروق اسماعيل / الوثنية مفاهيم وممارسات / ط85 / ص 123- 124

[2] - حول مظاهر التشدد في طقوس المذبح , ينظر : لاويين (1: 15) , (9:9) , (4:18) ,

[3]- للمزيد حول هذه الأحكام ومظاهر التشدد فيها , يراجع على سبيل المثال كتاب "المجتمع اليهودي " للمؤلف زكي شنودة , وكذلك : : د.احمد لطفي عبد السلام / جذور العنف والعنصرية في الفكر الديني اليهودي وامتداده الى الدولة الاسرائيلية / المكتبة الاكاديمية / القاهرة / ط2002/ ص55- 59

[4] - الاويون (9:20)

[5] - منها ما نصه : " ويخزى الذين يعملون الكتان الممشط , والذين يحيكون اللأنسجة البيضاء " أشعياء (9 : 19)

[6] - ينظر : الطبري / جامع البيان / ج 2 / ص 47

المطلب الثالث : المنطق اليهودي المادي في فهم المصطلحات العقدية :

في هذا المطلب ، سأتناول مجموعة معطيات يفرضها الفكر اليهودي في تحليلاته لبعض الأحداث ، وفهمه لبعض المصطلحات العقدية بطريقة مادية بحتة غير مباشرة (بدون استخدام مصطلح المادة واشتقاقها)، حتى تلك التي ليس لها علاقة بوجه من الوجوه التي تحملها المعاني المادية ، فسيظهر أن الفكر اليهودي عاجز عن إخراجها خارج رقعة التصور المادي ، وعاجز عن التعامل معها وفق دلالاتها المعنوية المعروفة عند جميع الأمم ، مع العلم أن هذه التفسيرات تكشف بوضوح سر ما أفرزه القلب المتعشق بالمادة حين يغيب عن رؤية الجانب الفسيح الآخر لعالم المعاني والروح .

أولاً : نماذج من المصطلحات العقدية عبر عنها اليهود بأنفسهم تعبيرات عزلتها عن مضمون معانيها الأصيلة :

- مصطلح (الإله) مجرد لقب:

ومن المفارقات في لغة الأسفار الخمسة عند حديثها عن الإله والنبي ، أن النبوة في منطق الأسفار قد ترقى إلى مقام الألوهية فيصبح النبي إلهاً وهذا الخلل الديني الذي نعثر عليه بين سياق الأسفار ونصوصها ، هو بالطبع من أكبر البراهين على انعدام إدراك المعنى الحقيقي لمفهوم الألوهية والنبوة ، فالإله بهذا المعنى مجرد مالك للقب الألوهية وله أن يعطي اللقب لأيٍّ شاء !

ببساطة يخبرنا الإصحاح السابع في سفر الخروج في الفقرات الثلاث الأولى منه : "فقال الرب لموسى انظر :أنا جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيك ..." ! [1]

ويعلق الباحث في التراث الإسرائلي طعيمة بالقول : " و لم يخبرنا الإصحاح إذا كان موسى الإله الجديد بإمكانه أن ينقلب يوماً على الإله الذي منحه هذا اللقب فيعزله تماماً كالملوك الأرضيين ! [2] "

وإذا أردنا أن نفهم هذا السياق من المنظور الذي تعنينا فيه هذه الشخصية سنرى فهما مادياً محصور الأفق بقوامة أعطيت للألقاب بعيداً عن معنى الإدراك الحقيقي لقوامة الأرض والسماوات !

- علامة الفرق بين المؤمن والكافر (عند الرب) علامة حسية!

---

[1]- ينظر ما ذكره الدكتور طعيمة في رسالته الجامعية : [التراث الإسرائيلي ..] عند حديثه عن النبوة في العهد القديم .
[2]- المصدر السابق / ص 145

يطلب الرب فيما نسب كاتب السفر (الوثني) إلى موسى بأن يقوم ومن معه من جماعة إسرائيل على بيوت الإسرائيليين ويرشوها بدماء الكباش المضحاة حتى يكون ربهم على بينة منها ، ولا تمتد يده إلى بيوتهم ساعة أن يدمر بيوت المصريين [1] ...

وهذا القول الجاهل الذي ينسب إلى رب العالمين - فوق صفات الظلم والعدوان والعنصرية- الجهل بالأشياء ، وعدم التمييز بين بيوت أعدائه وبيوت المؤمنين به ، وكأن الإله لا يملك التمييز بين المؤمن وغيره إلا من خلال علامات حسية ظاهرة تفرق بينهما [2].

- اكتساب خصائص الألوهية بالأكل ! :

" ودعا آدم اسم امرأته (حواء) لأنها أم كل حي ، ووضع الله لآدم وامرأته أقمصة جلد وألبسهما ، وقال الله: لقد أصبح آدم كواحد منا ... فلعله أكل أيضا من شجرة الحياة فيحيا إلى الأبد)!

ولعل هذا النص يدل على إمكان اكتساب الألوهية بالأكل كما يدل على مبدأ تكثير الآلهة [3]،[4] .

- إنارة القلوب استبدلوها بإنارة السّراج !

كان اليهود يعتبرون أن إضاءة السراج دليل على الثروة والبركة لذلك كانوا يضيئون منازلهم طيلة الليل (أيوب 6/ ارميا 25:10) (الأمثال 13:9)[5].

- ترانيم وتسابيح بلفظ (العجل) !

ومن أكثر ما لفت انتباهي وأنا أتتبع موضوع العجل في صفحات قاموس الكتاب المقدس ، هو شرحهم لعبارة يرددها اليهود في ترانيمهم ، والمفاجىء فيها إدخال لفظ (العجل) كنوع من التسبيح !!

وأنقلُ حرفياً ما تكلّف الكِتاب بمهمة تعليله لهذا ، حيث يقول :" ويستعمل كاتب سفر العبرانيين عبارة [عجول شفاهنا] مجازياً ، والقصد منها كلامنا وحمدنا وشكرنا لله ، إذ إن الشكر تقدمه شفا الإنسان لخالقه مثل العجول التي هي تقدمة الإنسان المادية لله" [6]

ولا حاجة للتعليق عليه ، إذ فيه من الطرافة والغرابة ما يغني عن التوضيح.

- قصة بركة يعقوب !!

---

[1]- تفاصيل القصة في الفقرات (13-14) من الإصحاح الثاني عشر من (سفر الخروج)
[2] - ينظر التعليق د. طعيمة في رسالته الجامعية : [التراث الإسرائيلي ..] /./ ص 145
[3] - ينظر : محمد قاسم / التناقض في تواريخ وأحداث التوراة / ص7
[4] - ينظر : علي محمد الباجي الشافعي / على التوراة / ص (198,34) / دار الأنصار /القاهرة
[5]- النص نقلاً: زكي شنودة / المجتمع اليهودي / ص487
[6] - قاموس الكتاب المقدس / تأليف مجموعة من الأساتذة اللاهوتيين / دار الثقافة / ط9 / ص 607

جاء في سفر التكوين قصة غريبة تذكر طريقة حصول يعقوب على شرف البركة[1] ، موجزها أنّ اسحق عليه السلام كان يدّخر البركة ليمنحها لابنه الأكبر عيسو ، فطلب شرطاً لذلك أن يقدم له صيداً وفيراً واستغل يعقوب خروج أخيه للصيد ، فتآمر – حاشاه - مع أمهِ لسلب تلك البركة ، فقام بدور خبيث خدع فيه أباه وأوهمه أنه عيسو – وكان اسحق قد فقد بصره ، فسارت عليه الخديعة ومنح البركة ليعقوب ،ثم تبين له أن ابنه كذب عليه فغضب وندم لأن البركة خرجت من يديه ، وصرخ عيسو لأن الأمر لم يعد بيد والده !

ولنبق مع (**البركة**) مدار حدث القصة ، وفي معناها يقول الراغب : "البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء، وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة ، والمبارك ما فيه ذلك الخير ، دلّ على ذلك قوله تعالى : {**وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ** }[الأنبياء50] تنبيهاً على ما يفيض عليه من الخيرات الإلهية .... ثم يتابع فيقول : " ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة ..[2] ".

من هذا المعنى نفهم شيئاً جوهرياً غايةً في الأهمية ، فإذا كانت البركة ذات مضمون معنويٍ خالص ، وهي منه وحده تعالى يهبها لمن يشاء ، ويدعو بها الصالحون لمن يرجى له خيراً ، فإن شاء الله استجاب الدعوة ، وإن شاء أرجأ الاستجابة ، فهل الحيلة والخديعة التي جازت على إسحق على فرض أنه أعمى ، تجوز على الله ؟!

وإذا رضي إسحق أو تغاضى عن مكرِ يعقوب ، فهل يعقل أن يجعل الله رضاه بإعطاء "اللقب" تبعاً لمكر هؤلاء ؟! ثم كيف يمكن أن يتعلق تحقيق اسحق عليه السلام لبركة ابنه بطلبٍ مادي ساذج (صيد من البرية) ليس له أدنى ارتباطٍ بعملٍ صالح أو بوادر تقوى ؟!

والأهم من ذلك كله هو منطق الفهم اليهودي لمضمون البركة ، فمن العرض الشيق للقصة يعتقدون أن البركة تورث تماماً كالمتاع المادي للابن الأكبر، فالبركة في منظورهم شيء مادي محسوس ، قابل حتى للسرقة !!

وليس لهذه القصة أن تمر مرور الكرام ، وهي في أحد أهم الأسفار التوراتية وأولها (سفر التكوين) ، كما أنها تتحدث مباشرةً عن موضوعٍ غايةٍ في الحساسيةِ عندهم ، لأنها تحكي طريقة حصول أعظم رموزهم على مرتبة البركة من الرب ، والتي توارثوها بعد ذلك إلى اليوم ، وصاروا يتعالون بها على الأمم والشعوب ، وإذا تجاوزنا مبدأ الصراع والحيلة الذي حكّمته القصة ، فالملاحظ أن الأفق اليهودي عاجز عن إدراك أبسط ما يدخل قاموس المعنويات ، فلم تسعفه حسية التفكير ولا مادية التصور – على الرغم من مسرح الخيال الرحب الذي أبدوه في مثل هذه الأساطير والأوهام البطولية المكذوبة - حتى من اختلاق قصة مقنعة يظهر فيها فهمهم لأبسط وأوسع المصطلحات المعنوية الدينية انتشاراً .

[1]- تفاصيل القصة في (سفر التكوين : الإصحاح 27)

[2]الراغب الأصفهاني / المفردات / ص54

وكأننا نقف أمام فصيلة آدمية خانها طبعها من اقتحام أفق المعنويات ، وأثبتت بجدارة أنها غير قادرة على تجاوز حد المادة إلى ما وراءها ، ليس في الفعل وحسب ، وإنما حتى في التصورات !!

ثانياً : نماذج قرآنية للإخفاق اليهودي في إدراك دلالات الرموز والمعاني القدسية :

النموذج الأول :

يقول تعالى في سورة البقرة : **{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59)}**

وفي سورة الأعراف : **{ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162) }** .

وقوله **{ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ }** أي وضعوا مكان **{حِطَّة}** قَوْلاً غيرها ، يعني أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار ، فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به ، ولم يمتثلوا أمر الله .

يقول الزمخشري : " وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه وهو لفظ الحطة فجاؤا بلفظ آخر ، لأنهم لو جاؤا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به ، لم يؤاخذوا به . كما لو قالوا مكان حطة : نستغفرك ونتوب إليك . أو اللّهم اعف عنا وما أشبه ذلك . وقيل : قالوا مكان حطة : حنطة .. استهزاء منهم بما قيل لهم ، وعدولاً عن طلب ما عند الله ... "[1]

]**فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ }** بدلوا بما أمروا به من التوبة والاستغفار بطلب ما يشتهون من أعراض الدنيا] .

وقوله تعالى :**{ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ }** كرره مبالغة في تقبيح أمرهم وإشعارًا بأن الإنزال عليهم لظلمهم بوضع غير المأمور به موضعه ، أو على أنفسهم بأن تركوا ما يوجب نجاتها إلى ما يوجب هلاكها فاستحقوا **{ رِجْزًا مّنَ السماء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }** عذاباً مقدراً من السماء بسبب فسقهم ، والرجز في الأصل : ما يعاف عنه[2].

[1]- الزمخشري / الكشاف / ج 1 / ص 94
[2]- ينظر : البيضاوي / أنوار التنزيل / ج 1 / ص 329

وعلى اعتبار ماهية التبديل -كما جاء في الصحيحين أنهم قالوا :حبة في شعيرة ، وفي رواية أخرى حبة في شعرة [1] - يظهر أنهم قاموا بعملية تحويل للفظ من معناه الذي يحوي دلالات إيمانية روحية متعلقة بفهمٍ متصلٍ بالمعنى القدسي ، إلى لفظ سخيف متعلق بدونية الأرض وماديتها .

وهذا التصرف يدل بوضوح على أنهم تلقوا هذا النوع من العبارات الراقية المدلول بحس ميت ، فلم يعقلوا منها إلا أحرفاً مفرغةَ المضمون ، مسلوبة الروح ، فسَهُل َعليهم تشويهها لتناسب مستوى السفه الذي بلغته عقولهم ، فيقرأوها بلغة المادة التي يجيدون .

النموذج الثاني:

قال تعالى : { مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } (النساء : 46)

الرعي حفظ الغير لمصلحته ، وقوله : { رَاعِنَا } أي : راقبنا ، واحفظنا ، وصيغة المفاعلة تدل على أن معنى { رَاعِنَا } : ارعنا ونرعاك ، واحفظنا ونحفظك ، وارقبنا ونرقبك ، ويجوز أن يكون من : أرعنا سمعك ، أي : فرغه لكلامنا.[2]

ونسب الرازي إلى جمهور المفسرين على أنه تعالى إنما منع من قوله : { راعنا }[3] لاشتمالها على نوع مفسدة لوجوه ، أقواها أن اليهود كانت لهم كلمة عبرانية يتسابون بها تشبه هذه الكلمة وهي «راعينا» ومعناها : اسمع لا سمعت ، وسمع اليهود فافترصوه وخاطبوا بها النبي صلى الله عليه وسلم مريدين نسبته إلى الرعن ، أو سبه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابون بها ، فنهي المؤمنون عنها وأمروا بلفظة أخرى وهي قوله : { انظرنا } ، قال الرازي : "ويدل على صحة هذه التأويل قوله تعالى في سورة النساء :{ **وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا واسمع غَيْرَ مُسْمَعٍ وراعنا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِى الدين (46)** }النساء [4] "

---

[1]- نص الحديث الذي في البخاري : - حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ نَصْرٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : { ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ } , فَبَدَّلُوا فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَقَالُوا حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ
(صحيح البخاري / ج 11/ص 204 , رقم : 3151) والرواية التي بلفظ (شعرة) رقم : 4119 .
(وفي صحيح مسلم : ج14 / ص 300 , رقم : 5330).

[2]- ينظر : البيضاوي / ج1 / ص 143 , الشوكاني / فتح القدير / ج 1 / ص 156

[3] - يقول الشيخ دراز في [النبأ العظيم] في قول (راعنا) : " وهي كلمة ظاهرها الأدب , ولكنها في العربية لها معان أخرى حمقاء , وفي العبرانية كلمة شتم قريبة منها , فإن لفظ (رع) عند اليهود معناه شقي شرير , وكلمة (راع) معناها الشر والشقاوة , فإذا أضيف إلى ضمير المتكلمين صار بلسانهم "راعيونا" ومعناه في الخطاب أنت ضرنا وشقوتنا .... ولعلهم والله اعلم كانوا يلوون ألسنتهم في النطق بها ليقربوها من الصيغة العربية ستراً لنيتهم واكتفاءا بالرمز المفهوم فيما بينهم . فأمر الله المؤمنين أن يخاطبوا الرسول بقولهم (انظرنا) حتى لا يجد المنافقون سبيل إلى التلاعب بلفظ ذي وجهين . أو أيضاً فان (راعنا) كلمة يقولها السائل المستقصي يطلب بها إصغاء المسئول إليه حتى يفرغ هو من أسئلته . وتلك عادة اليهود عند إكثارهم من السؤال . فأمر الله المؤمنين أن يحافظوا على حسن الاستماع حتى لا يحتاجوا الى السؤال , وان يقولوا (انظرنا) وهي كلمة يقولها المتعلم إذا أراد التثبت بما يقال له لا الزيادة عليه (النبأ العظيم / هامش ص182)

[4]- الرازي / التفسير الكبير / ج 2 / ص 269

والملاحظ أن هذا التصرف الذي أقدم عليه اليهود ليس مجرد تلاعب بصياغة الألفاظ ومعانيها ، وإنما هو – كما أخبر القرآن الكريم – من قبيل لِيِّ الألسن بقصد الطعن في الدين ، وهذا دليل آخر يضاف إلى رصيد انحراف فطرهم وقلوبهم في استشعار وتقييم موازين المعاني ودلالات الألفاظ .

النموذج الثالث:

يقول تعالى : {**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ** } (88)البقرة

وفي سورة النساء : {...**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا** }(**النساء 155**)

من المعاني التي رجحها المفسرون في معنى { **غُلْفٌ** }: عليها غشاوة ، أو غلاف وهو الغطاء ، وقيل لا تفقه، ونقل عن قتادة : { **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ** } هو كقوله: { **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** } [فصلت: 5] ،وقال عبد الرحمن بن أسلم، في قوله: { **غُلْفٌ** } قال: يقول: قلبي في غلاف فلا يَخْلُص إليه ما تقول، قرأ { **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** }

وهذا هو الذي رجحه ابن جرير الطبري ، واستشهد بما روي عن حذيفة، قال: القلوب أربعة. فذكر منها: وقلب أغلف مَغْضُوب عليه، وذاك قلب الكافر.

وفي تفسير ابن أبي حاتم : { **قُلُوبُنَا غُلْفٌ** } قال: لم تختن ، أي ليست طاهرة ، وأنها بعيدة من الخير.

وقول آخر حكاه ابن عباس في قوله: { **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ** } قال قالوا: قلوبنا مملوءة علمًا لا تحتاج إلى علم محمد، ولا غيره، ونقل ابن كثير عن العوفي قوله: "{ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ** } أي: أوعية للعلم"[1].

وعلى هذا المعنى جاءت إحدى وجوه القراءات ، فيما حكاه الطبري: {وقالوا قلوبنا غُلُف} بضم اللام، أي: جمع غلاف، أي: أوعية، وقدم القرطبي هذا الرأي بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر،كما كانوا يَمُنُّون بعلم التوراة ، ولهذا قال تعالى: { **بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلا مَّا يُؤْمِنُونَ** }

وجملة القول في معنى الآية كما ذكر أبو حيّان : " الضمير في قالوا عائد على اليهود ، وهم أبناء بني إسرائيل الذين كانوا بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا ذلك بهتاً ودفعاً لما قامت عليهم الحجج وظهرت لهم البينات ، وأعجزهم عن مدافعة الحق المعجزات ، نزلوا عن رتبة الإنسانية إلى رتبة البهيمية[2] "

وقال الزمخشري :"هذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده ، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها[3] "

---

[1]- ينظر : ابن جرير الطبري / جامع البيان / ج 2 / ص 314 , ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج1 / ص 325 , تفسير ابن أبي حاتم / ج 1 / ص 481

[2] أبو حيان / البحر المحيط / ج 1/ ص 390

[3] الزمخشري / الكشاف / ج 6/ ص 143

ومن هنا فإن الحالة التي وصف اليهود بها أنفسهم ، تظهر مدى السلبية التي تفاعلوا بها مع الدعوة الربانية ومضامينها ، كما تظهر استعدادهم النفسي وتهيؤهم القلبي المسبق لها قبل ذلك ، وهذه بالتأكيد هي إحدى مظاهر المادية المعشقة في قلوبهم ، والتي أنتجت أنهم **{.. فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا }.**

وقلوب كهذه استحقت أن يتبع الله حكمه عليها في نقس الآية :**{ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ }.**

النموذج الرابع :

يقول تعالى : **{ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) .. وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143) }** البقرة

ومناسبة الآية ما رواه البخاري عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

"بَيْنَا النَّاسُ يُصَلُّونَ الصُّبْحَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ إِذْ جَاءَ جَاءٍ فَقَالَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرْآنًا أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا فَتَوَجَّهُوا إِلَى الْكَعْبَةِ "[1] .

قال الإمام أبو جعفر الطبري : "يعني بقوله جل ثناؤه :**{ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ }**، سيقول الجهّال"مِنَ الناس"، وهم اليهود وأهل النفاق ، وإنما سماهم الله عز وجل{سُفهاء} لأنهم سَفِهوا الحق ، فتجاهلت أحبارُ اليهود، وتعاظمت جهالهم وأهل الغباء منهم، عن اتِّباع محمد صلى الله عليه وسلم، إذ كان من العرب و لم يكن من بني إسرائيل، وتحيّر المنافقون فتبلَّدوا...ثم ذكر: وبما قلنا في"السفهاء" -أنهم هم اليهود وأهلُ النفاق- قال أهل التأويل"[2].

وجاء كذلك في الرواية التي ذكرها ابن أبي حاتم في تفسيره ما يؤكد أن اليهود هم السفهاء المقصودين في هذه الآية [3] .

وعند الراغب : " السَّفَهُ خفة في البدن ، ومنه قيل زمام سفيه كثير الاضطراب وثوب سفيه رديءُ النَّسْج ، واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل في الأمور الدنيوية والأخروية...[4] " .

وقال الألوسي : " أي الخفاف الأحلام أو المستمهنوها بالتقليد المحض ، والإعراض عن التدبر [5] "

---

[1] الحديث في صحيح البخاري : ج13 / ص 416(رقم 4128) وهناك روايتان ذكرهم البخاري للبراء وأبي سعيد الخدري- رضي الله عنهما- على نحو هذا الحديث.

[2]- الطبري / جامع البيان / ج 3/ص 129

[3]- نص الرواية: - حدثنا أبي ، ثنا محمد بن عمرو ... عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن يهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ، ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك ، وإنما يريدون فتنته عن دينه ، فأنزل الله " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها (1)) وروي عن سعيد بن جبير ، وقتادة ، والسدي ، والربيع بن أنس ، نحو ذلك (تفسير ابن أبي حاتم /ج5 / ص 195 / حديث رقم : 1320) .

[4]- الراغب / المفردات / ص240

[5]- روح المعاني / ج2 / ص36

وقوله{ **مِنَ الناس** } في موضع نصب على الحال ، والمراد منهم الجنس ، وفائدة ذكره التنبيه على كمال سفاهتهم بالقياس إلى الجنس [1].

وهذه الآيات الكريمة تحمل الكثير من المعاني والفوائد التي يمكن أن يعطيها موضوع تغيير القبلة فيها ، ولكني سأحاول الاقتصار على الجانب الذي يخص علاقة اليهود بموضوعها ، وكيف تعاملت البلاغة القرآنية في عرضه :
هناك من المحللين من يعتبر أن اجتماع قبلة المسلمين مع اليهود حرك في اليهود الشعور بالأفضلية على أساس القدم في القبلة بالقدس ، لذا كان الرسول الكريم يلتمس العون من الله تعالى في هذا الصدد في ثم إن الله عز وجل قد تلطف برحمته على رسوله الكريم ليجعله مستقلاً عن اليهود بتحويل قبلته للكعبة [2] .
ولكني أرى أن هناك أبعاداً أخرى أهمها :
أن الموضوع الذي طرحته الآية الكريمة متعلقٌ أساساً بمبدأ التغيير في القبلة ، حيث جاء قوله تعالى {.. مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عليها } ثم جاء التعليل بقوله تعالى: { **قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** (142) }
ومعلوم أن الصراط المستقيم الذي أراده الله تعالى لهذه الأمة لتسير عليه ولا تحيد عنه هو صدق التوجه إلى ذات الله أينما أراد وكيفما أراد وبالصورة التي أرادها ، وهذا الذي يعطي للإسلام تميزه ولحامليه من أمة محمد ، حيث ظهر منهم صدق الامتثال والطاعة لهذا الأمر خلافاً لمن حادت به السبل من الأمم الأخرى ، والرسالة بهذا الأمر (تغيير القبلة) تحمل بين طياتها معنىً دقيقا في النظرة والتوجه إلى ما هو مقدس وطبيعة اكتسابه للتقديس ، الذي هو خارج عن الصورة الاجتهادية في الاعتبار والتقييم ، الماثل لنوع من أنواع الانقياد والتسليم ، وبهذا نفهم قوله تعالى : { **قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** }.
إن مستوى السفه الذي بلغه العقل اليهودي لا يستطيع أن يفهم حقيقة النظرة للرموز المقدسة بدلالاتها الطبيعية ، فماذا تعني الكعبة أو الحجر الأسود أو غيرها من الرموز المقدسة إذا لم تكتسب قدسيتها من الله تعالى ؟!
وهذا الدرس الذي أراده الله بحكمته (تغيير القبلة) كشف جانباً من الفارق بين عقل المسلم وعقل السفيه المتمثل في اليهود ومن هم على شاكلتهم في السفه، قال تعالى : {.. **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ..**}.

[1]- المصدر السابق / ص 36
[2] - ينظر الرأي السابق : د. زاهية راغب / الموقف اليهودي من معجزة الإسراء / ص 89

والمسلم حين أدرك ماذا يعني الإيمان بالغيب ، سهل عليه أن يفهم العلاقة التي تربط بين هذه الرموز المحسوسة ودلالتها الغيبية التي أضفت عليها معاني القداسة والتعظيم **{.. وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ..}**.
أما سفاهة نتاج المادة المتمكنة في الوجدان اليهودي ، فحين ذهبت به إلى مظهر تقديس شيء معين ، قد وجهته إلى ذات هذا المقدس بتجريد معانيه الغيبية التي بها اكتسب القداسة أصلاً ، فبات (الرمز المقدس) هو و(الصنم) صنوان في هذا المجال !
لقد عزل "الفكر التعبدي" عند اليهودي نفسه عن إفرازات منطق التقديس وأبجدياته في محور التعبد لله واستبدل بها أفقاً محصوراً في أضيق نقطة يحصل فيها التوجه إلى ذات ذلك المقدس على أنه رمز عصبي خاص بالنمط اليهودي يستحيل تغييره أو استبداله ، يقول تعالى : **{... وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ...}** وبهذا يظهر لوناً جديداً من ألوان السفه اليهودي من خلال نظرتهم للمقدسات .

¤ نتيجة :

- قد رأينا معاً هبوط التصور العقدي عند اليهود عن مستوى ما قدمه عموم الفكر الوثني ، إلى درجة الانسلاخ التام من بواقي الفطرة في ميلها نحو إشباع دواعي الروح .

- وقد رأينا كذلك كيف أن الفكر اليهودي فشل حتى في تفسير المصطلحات والمعاني الدينية بدلالتها القدسية والمعنوية والروحية .

- و إني لأقف في جملة من ادعى أن اليهود قد تفردوا بصورة جديدة في أسلوب تعاملهم مع الإله تختلف عن أي صورة وثنية أخرى ، فهم ألبسوا المجسم المادي للإله ثوباً مادياً آخر لا مكان فيه لقيمة معنوية عليا يمكن أن ترفع الإله لمكانته المرموقة في العرف البشري يتحقق من خلالها إشباعٌ لغريزة التدين- حتى وإن كان بالمفهوم الأعمى والمتخبط عند سائر الوثنيين .

- وهؤلاء إذ خلت غريزتهم من أدنى ميول يسوقه داعي التدين لحق أو لباطل ، انصب ولاؤهم للمادة كخيار وحيد وباقٍ دوامَ قلوبهم التي تنبض بحبها وتتجرع هوى عشقها .

فإن ثبت ذلك بصحة الشواهد وكثرتها مما سطروه وأجمله القرآن ، تبين الدليل على دقة الوصف القرآني لهم **{وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ..}** (البقرة93)

ثم كان هذا الدليل يثبت صحة الحكم عليهم بكونهم يحملون الشخصية المترجمة عن قلب متشرب لمادية العجل غائبة تماماً عن أفق المعنويات !!

المبحث الثاني : الجانب المادي في النبوة عند اليهود كما يصوره القرآن الكريم

تمهيد:

سبق أن ذكرتُ تصور اليهود المادي للإلهيات فما تصورهم للنبوة ؟

النبوة سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده لإزاحة علتهم في أمر معادهم ومعاشهم [1]، قال الراغب : " والنبي لكونه منبئاً بما تسكن إليه العقول الذكية 2 " .

و الفطرة الإنسانية لم تأخذ في البدء عنوان ربها كاملاً ، ولا تعرفت على وجوده إلا إجمالاً ، لذا فهي شديدة التلهف إلى لمعرفة خالقها والتعرف على صفاته وأفعاله وكيفية خلقه للإنسان والغاية من ذلك الخلق .

وهذه الطلبات المتنوعة المستعجلة توحيها الفطرة إلى عالم الإنسان الداخلي ، وتظل تضغط على زر في الجهاز العقلي له للإجابة عنها وإسعافها بالعلم الصحيح والزاد المريح ، فإن أقيم أودها وسدت خلتها وأشبعت جوعتها عاش الإنسان في سلام مع ذاته ، وإخوانه ، ومع الكون المحيط به ، ومن هنا كانت الحاجة إلى وجود نبي حاجة فطرية وضرورة عقلية [3] .

ويلاحظ أن النبي يقابله عند أصحاب الديانات الأخرى (الرجلُ الملهم أو المقدس أو السفير) ، وتتفاوت درجة التقديس حتى تصل إلى رتبة التقديس المطلق عند بعضهم كالبوذية مثلاً، فالطبيعي إذن أن ينظر إلى النبي كواسطة أو كل ما يعبر عن الإله - من أشكال الواسطات الأخرى- بهالة من الاحترام والتبجيل لكونه كاملاً أو قريباً من الكمال ، وهذا المعنى يشترك فيه حتى أهل الوثنية والجاهلية بصورها المتعددة في نظرتهم إلى النبي أو ما يحل محله من أشكال أخرى للواسطة (كالصنم)[4] فأي من هذه التصورات موجودةٌ عند اليهود في نظرتهم للنبوة والأنبياء ؟

---

[1] -البهي الخولي / بنو اسرائيل في القرآن / ص 164

[2] - الراغب / المفردات / ص483

[3] - ينظر : محمد رشدي عبيد / النبوات في ضوء العلم والعقل / الفصل الثاني , تحت عنوان : (منهج النبوة وأشواق أهل الأرض) / ص59

[4] - حول هذا الموضوع , ينظر: د.صابر طعيمة / التراث الإسرائيلي / فصل : النبوة في العهد القديم

وفي المنظور الإسلامي ، فعلى اعتبار أن النبوّة في حقيقتها أمرٌ إلهيٌ واقعٌ باختياره جل وعلا { **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ** } (القصص 68) .

فإن لهذا الاختيار معنى قدسي لمكان النبوة والأنبياء { **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** } (الأنعام 124) وفي هذا يقول الشيخ البهي : " فكان في النبوة عنصر من نور يرى به كل نبي من مجد الله وجلال سلطانه ما يتلاشى إلى جانبه ملك الدنيا بما فيها ومن فيها ، فيستحيل عليه أن يتخلى عما يشهد وهو كل شيء...إلى مالا يشهد وهو... لا شيء فالنبوة إذاً ذات وجود إيجابي وفاعلية مقررة [1] ".

وحتى المنطق السليم لا يمكن إلا أن يتصور النبي مؤهلاً لما يدعو إليه ، يقول الإمام الرازي : " هو الذي يكون كاملاً في نظامي المعارف والأعمال ويقدر أيضا على معالجة الناقصين ، ويمكنه السعي في نقل الناقصين من حضيض النقصان إلى أوج الكمال [2] " .

ثم إذا كان المقصود من تعاليم الأنبياء وتذكيرهم وإرشادهم تحقيق أمرين :

أحدهما : إزالة الأخلاق الذميمة الجسمانية عن النفس ، والثاني : تحصيل الصفات الحميدة الروحانية في النفس [3].

فكيف يمكن بحالٍ أن نتصور النبي متصفاً بغير صفات الكمال وهو المختار لأداء هذه المهمة ؟!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " والنبي معصوم وهنا المعجزة وما دلت على النبوة بل على متابعة النبي وصحة دين النبي [4] "

أما كيف يتعامل اليهودي مع أنبيائه فهي (معاملة) بالتأكيد تختلف ، ليس في سلب النبي مكانته المستحقة في الكمال والعصمة وإنما شيئاً يتجاوز ذلك هبوطاً إلى جعله في انحطاط يصل إلى مستوى أقذر الناس ، مما ينم عن خلل عميق في تركيبة الشخصية اليهودية ، والتي تضع دعاة القيم والسمو الإنساني في صف العداوة والسوداوية ! ولا أريد أن أبدو مستبقاً للأمور ومتعجلاً للحكم ، ولكن هذا الحكم مبدئي في حقيقة الأمر ، لأن الوصول إليه من خلال المصادر اليهودية- الغنية بالشواهد على ذلك - من السهولة بمكان أن يجعل الموضوع مبتوتاً فيه دون الحاجة إلى فصل في الدعوى ، فليس مجال دراستي في هذا المبحث تكرار حقيقة ظاهرة في تلويث اليهود لصورة الأنبياء ، ولكن مقصدي الوقوف على هذه الظاهرة ومعرفة أبعادها ومنطلقاتها في النفس اليهودية .

---

[1] - البهي الخولي / بنو إسرائيل ../ ص164

[2] - كما بتابع الرازي قوله : " كمال حال الأنبياء – عليهم السلام – في حصول أمور أربعة :
أولها : كمال القوة النظرية ,,ثانيها : كمال القوة العملية , ثالثها : قدرته على تكميل القوة النظرية لغيره ,رابعها : قدرته على تكميل القوة العملية لغيره ولا شك أن كمال حاله في القوتين مقدم على قدرته من القوة العملية ,.." وهناك وجوهاً استدل بها الإمام الرازي على أن النقصان –وان كان شاملا للخلق عاماً فيهم – لا بد وأن يوجد شخص فيهم كامل بعيد عن النقصان ... لمعرفة الوجوه ينظر : الرازي / النبوات / ص164, .

[3] المصدر السابق / ص171

[4] الإمام ابن تيمية / كتاب النبوات / تحقيق : د عبد العزيز الطويان / ص143

والحق أن النظرة التحليلية للأسلوب والشكل التي تعاملت بها هذه الشخصية مع مقام النبوة والأنبياء تصلح لأن تكون شاهداً حياً يضرب في عمق شخصيتهم المادية ، وقد صور القرآن كثيراً من مواقفهم كان أشدها هو التفاعل المقيت مع الأنبياء من خلال القتل ، الذي يمكن اعتباره أقصر وسيلة مادية ليقطعوا بها كل ما له معنى اتصال بالسماء والوحي ، وبالتالي مزيداً من البعد عن كل معنى روحي ومزيداً من الإخلاد إلى الأرض !

ولما كان ماضي اليهود من النبوة والرسالة ، موقف جاهر الرفض والعداوة والتآمر ، لم يكن استقبالهم للرسالة عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم بأحسن حالاً ، بل أثبت واقعهم استمرار نهجم لذات السجل القديم العدائي للأنبياء في الخفاء والعلن .

ثم إن الأسلوب القرآني في المعاملة وإدارة الحوار مع اليهود ، كشف عن الطبيعة اليهودية الخبيثة في ملفهم الآخير مع خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، والذي ترجموا فيه صدق ذلك عملياً ، ليظهر أن الموقف اليهودي قد استقر ببعثة النبي محمد عليه السلام ، استعداداً لمرحلةٍ جديدةٍ في العداوة للإسلام ، وقد أخذت فصول اليهود وحروبهم مساحة لا بأس بها من السيرة النبوية ، والتي تستلزم الكثير من الوقفات للدراسة التحليل مما لا يتسع هنا لذكره .

لذا سأحاول – في هذا المبحث - إن شاء الله – أن ألقي إضاءات تعكس ما طوته شخصيتهم من خلال العرض القرآني لها بخصوص أبرز أنبيائهم ، وشيئاً مما سطروه هم أنفسهم من تصورات ، وحيث أن كثيراً من مواقفهم تتشابه من حيث الحكم عليهم آثرت أن يكون عرضي لها بصورة الانتقاء خشية الإطالة والتكرار، على أمل أن يكون في اختياري منها ما يكفي لتحقيق المطلوب وتشخيصه ، أما نماذجي المختارة فهي مواقف للأنبياء الكرام : (موسى وهارون ، وداوود وسليمان ، وعيسى) عليهم أفضل الصلاة والسلام جميعاً ، ولنبدأ بسيدنا موسى عليه السلام (الموصوف عندهم بأنه أعظم نبي[1]) :

المطلب الأول : النظرة اليهودية إلى موسى عليه السلام :

لقد تولى القرآن الكريم تسجيل الكثير من الأحداث عن سيدنا موسى عليه السلام رسمت صورة واضحة عن هذا النبي الأوفر ذكراً ، والتي أظهرت ملامح شخصية عظيمة تحقق من خلالها التوازن في العرض بينها وما يقابلها من الشخصية الأخرى (الشخصية اليهودية) ، وصولاً إلى حقيقة واضحة وهي أن لهذا النبي الكريم من الميزات الروحية والخُلقية ما جعله مؤهلاً ليواجه أصعب نموذج إنساني عرفته البشرية من بلادة إحساس وقسوة قلب وفساد روح ...

[1] - فقد جاء في سفر التثنية : " ولم يقم بعد نبي في بني اسرائيل مثل موسى الذي عرف الرب وجها لوجه "(34: 10)

وقبل دراستي في الآيات القرآنية آثرت أن أبدأ حديثي بنصوص توراتية تحمل النظرة إلى أعظم نبي عند اليهود باتفاقهم أنفسهم لنرى ضمن هذه النظرة الإبداع القرآني في استرجاع الصورة الحقيقية لموسى عليه السلام وتقديمها لنا كأحسن ما يكون المثل القدوة :

توطئة : نظرهم إلى موسى من خلال التوراة :

موسى قبل الرسالة ، قاتل عمد !!

وفي هذا نص صريح في سفر الخروج : " .. فالتفتَ إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل " (خروج2:12)

موسى لحظة تكليفه بالرسالة :

ولئن كان قاتل عمد قبل النبوة فهو – في نظرهم - عندما كلف بالرسالة تملص منها وطلب أن يكلف غيره ، ففي سفر الخروج قال : " استمع أيها السيد أرسل بيد من تريد ، فحمي غضب الرب على موسى " (الخروج 4:(13-14)

وبالمقابل أكثر القرآن الكريم في تسليط الضوء على شخصية موسى عليه السلام من خلال مواقف كثيرة تظهر بالتجربة ودقة المشاهدة التباين الحاصل بين التركيب القائم لهذه الشخصية الكريمة ، بدوافعها الكامنة وما يقابلها من سوء التكييف والاستقبال لدى الطرف الآخر المضاد لها ، وأعني به (الشخصية اليهودية) .

وهنا نجد رد القرآن الكريم باستحضار جميل لشخص موسى عليه السلام ، و تصوير حقيقة المشاعر التي اعترته وقت تكليفه بانتقالها السريع من خوف ورهبة إلى امتثال وطاعة ثم استعانة على أدائها بدعاء عكس الأسلوب العالي في الطلب وتحمل الأمانة **{قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) }** طه

يقول الشيخ ابن عاشور : " ولما علم موسى ذلك لم يبادر بالمراجعة في الخوف من ظلم فرعون ، بل تلقى الأمر وسأل الله الإعانة عليه ، بما يؤول إلى رباطة جأشه وخلق الأسباب التي تعينه على تبليغه ، وإعطائه فصاحة القول للإسراع بالإقناع بالحجة ، وحكي جواب موسى عن كلام الرب بفعل القول غير معطوف جرياً على طريقة المحاورات .

ورتّب موسى الأشياء المسؤولة في كلامه على حسب ترتيبها في الواقع على الأصل في ترتيب الكلام ما لم يكن مقتض للعدل عنه[1] " .

في نظرهم : موسى أخفق في أداء أمانة الرسالة !!

يدعي كاتب التوراة أن الله يصف موسى وهارون بالخيانة ، ثم لأجل ذلك وجبت لهم عقوبة حرمان دخولهم الأرض المقدسة ، والنص : " يخاطب الله موسى قائلا : لأنكما خنتماني في وسط بني إسرائيل .... فإنك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل " (تثنية 3:51)

ومما سبق ثلاث نصوص انتقيتها من التوراة يظهر فيها تشخيص اليهودي لسيدنا موسى عليه السلام من خلال تفاعله مع الرسالة ضمن مراحلها الثلاثة ، فهو بداية لم يكن مهيئاً لها أصلاً حيث لم يتورع عن اقتراف الكبائر ، ثم يعترض على قبولها ويطلب تولية غيره ، وبعد أن تولاها خانها فاستحق العقوبة والغضب ، ومن هذه النصوص الغنية عن التعليق أنتقل إلى النظرة اليهودية إلى موسى عليه السلام كما عرضها القرآن الكريم ..

ثانياً : النظرة اليهودية المادية إلى موسى عليه السلام في العرض القرآني :

لقد أظهر لنا القرآن الكريم نظرة اليهود إلى موسى مجردة من المعاني السامية للنعمة التي صحبتهم بوجوده معهم كنبي له اتصاله بالوحي والسماء ، فنظروا بداية إلى موسى كمنقذ ومخلص فلم يفلحوا فقط في استغلال نعمة الله عليهم وتأييده لهم بالآيات الكبيرة - حتى يلمسوا مظهر القوة الإلهية ، وسيطرتها على نواميس الكون وتفاعلاته ، فيذعنوا ويستسلموا مطمئنين إلى فرج الله القريب — بل تجاوزوا ذلك بسلبية إحساس أفقدتهم طعم النعمة التي لم يلحظوا وجودها أصلاً ، وقد سجل القرآن شيئاً من مواقفهم التي كشفت تعاميهم عن كل ما جاء به موسى من دعوى للسمو والتحرر ، فكان عليه السلام في نظرهم (وسيلة للخلاص) أو القائد الملهم الذي جاءهم لينقذهم مما هم فيه من الكرب والعذاب !

[1] ابن عاشور /التحرير والتنوير /ج 9 / ص 39

وفيما يلي أعرض مقتطفات مما سجله القرآن عليهم أثناء صحبتهم لموسى عليه السلام في محاولة لفهم طبيعة هذا التفاعل وما شكله نوع الإيذاء الذي لحقه وأخوه عليهما السلام جراء ذلك ، وعلاقته المباشرة بشخصية اليهود المادية :

نموذج أول :

وقفة مع : الشخصية اليهودية أول عهدها مع موسى عليه السلام نبياً :

لقد رسمت لنا الآيات الكريمة التي تناولت هذا الموضوع صورةً أولية للنموذج الذي سينتهي إليه تشكل هذه الشخصية اليهودية من خلال أول عهدها مع موسى عليه السلام كنبي ، وليس هدفي هنا عرض مختلف الأحداث التي رافقت موسى عليه السلام مع قومه ، وإنما انتقاء ما يمكن أن يظهر الشخصية اليهودية ببعدها الحقيقي المميز لها إثباتا لصحة الدعوى في الفرض القائل بإفراطها واستغراقها المتناهي في المادية :

وسأبدأ بأول موقف جمع بين موسى عليه السلام وقومه ، بعد إظهار نبوته على الملأ وانتصارهِ على جمع فرعون ، وهذا الموقف وإن كان قصيراً إلا أن القرآن الكريم اهتم بتسجيله كأول وثيقة تؤرخ تصرف هؤلاء القوم في بداية عهدهم مع نبيهم :

يقول تعالى في سورة الأعراف : { **وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآَلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)** }

والآيات التي بين أيدينا تبين تصرف فرعون معهم قبل مجيء موسى عليه السلام - من قتل أولادهم واستحياء نسائهم - ووصفه بالبلاء العظيم حيث قال تعالى: { **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** } القصص(4))

وهذا التسجيل القرآني لهذه الواقعة قد ذكره القرآن أيضا بعد بعث موسى عليه السلام نبياً وانتصاره في الجولة مع السحرة ، حيث جاء في سورة الأعراف كذلك {**سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** (127) }

وإذا قارنا بين تصرف فرعون في الموقفين ، نجدهُ استمراراً على الخطة السابقة في أسلوب تعذيبهم ، ولكن هل للمعادلة أن يتساوى وقعها على أنفسهم في كلا الحالين ؟!

وإنه لحري أن نقف وقفة تأمل مع هذه الآيات الكريمة وهي تكشف لنا عن هذا المنعطف الخطير الذي استفتحت به الشخصية اليهودية عهدها مع الرسالة من خلال هذا الحوار القصير الذي دارَ بين أصحابها ونبيهم موسى عليه السلام :

يقول تعالى : {**قالَ لَهُمْ موسى اسْتَعينوُا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين)128)** }

وما يظهر من الآية جلياً أنهم لم يفهموا وعد موسى لهم بالعاقبة إن صبروا فلم يكن ما يحرك فيهم أي معنى لهذا النداء العالي : { **قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)** }

ويمكن أن يُطرح التساؤل التالي : هل طلب منهم موسى عليه السلام في هذه المرحلة أن يجاهدوا قوم فرعون ؟ أم ترى تلك الآيات التي أجراها الله على يديه هي من تولت ذلك ؟!

إن الجواب لا يخرج عما ذكرته الآية الكريمة ، فكل ما طُلِبَ منهم أمور معنوية ، و هي تحويل الألم الذي يلقونه إلى طاقة توجههم للاستعانة بالله عز وجل ، واحتساب هذا الأمر (صبراً) يجر لهم الخير والثواب : (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا...)

ثم ذكر قاعدة في التوكل والتسليم وهي فهم حقيقة القدرة الإلهية القائمة على المشيئة المطلقة في التصرف والتسيير { **إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ..** } وأعقب بعدها بالبشرى الموعودة بالنصر والفرج :(**...وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)** }

ولكن هذا المستوى من الخطاب لم يكونوا ليستوعبوه أو يفهموا مراميه ، إذ لم يحرك فيهم شيئاً سوى إحساسهم القديم بالإيذاء الذي يلقونه من فرعون وجنده { **قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا** }[1]

وفي هذا يقول الشيخ البهي : " إن استواء الأسود والأبيض محال في النظر السليم وما تفسير استوائها لدى إنسان ما إلا فقدان سلامة البصر ، وكذلك شأن أيام العقم والرخاء ، لا تفسير لاستوائها لدى طائفة ما إلا خلو ضمائرهم من حاسة إدراك المعنويات ، فإذا لم يحس هؤلاء لأيامهم مع موسى امتيازها بنداء الروح ومعالم الفرح ببعث الباطن ، ودبيب الصحة بيقظة مقومات النفس ، و لم يروا فيها إلا امتداداً لمحنتهم السابقة فهم لا جرم أنهم أموات الباطن !.." 2

النموذج الثاني : تصوير القرآن لشخصية اليهودي لحظة التقائها بجمع فرعون :

[1] ينظر ما ذكره الشيخ البهي حول هذا الموضوع , في كتابه : بنو اسرائيل في ميزان القرآن / ص 145
[2] المصدر السابق / ص 146

(موضوع "الطلب" من موسى وانعكاسه على شخصيتهم المادية) :

وهنا يمكن الوقوف مع هذه الشخصية من الجانب الذي حصل فيه التأزم إلى أقصى مداه وهو لحظة رؤيتهم لجمع فرعون، وبالتأكيد فإن هذه اللحظة ثمينة عند من يعتدون بدراسة الشخصيات :

قال تعالى : { **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** (62)} الشعراء

يقول الزمخشري : " المعنى إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد [1] " ، وعند أبي حيان : " أي ملحقون ، قالوا ذلك حين رأوا العدوّ القوي وراءهم والبحر أمامهم ، وساءت ظنونهم 2 " .

تذكر الآيات الكريمة أنه في هذه اللحظة التي أحس فيها قوم موسى ارتفاع نسبة الخطر إلى أقصى مداها استسلموا لوضع الإحباط الناتج عن فقد الأمل ، و لم يخلق عندهم هذا الوضع أي ردة فعل نحو اللجوء إلى الله أو لموسى مثلاً وهو صاحب المعجزات المعروفة!

وإن البشر - بتشخيصهم الطبيعي - حين يتعرض الواحد منهم لموقف صعب تنقطع فيه أسباب النجاة المادية ، فلا ريب أنه يتذكر الله حينها مهما بلغت درجة غفلته ، وقد استخدم القرآن هذا الأسلوب في إقامة الحجة على الناس إثباتاً لضعفهم ، ورجعهم إلى فطرتهم التي تفر إلى القوة الخفية الموجدة لحظة المآزق المهلكة ، وجاء تمثيلها للعالق في البحر أكثر من موضع : {**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا** (67)} الإسراء

يقول الإمام القزويني في سراج العقول : " إن الإنسان إذا دهاه أمر وضاقت به المسالك ، فلا بد أن يستند إلى إله يتأله له ، ويتضرع نحوه ويلجأ إليه في كشف بلواه ويسمو قلبه صعوداً إلى السماء ، ويشخص ناظره إليها .... فيستغيث خالقه وبارئه طبعاً وجبلة لا تكلفاً وحيلة...وهي الفطرة المذكورة في القرآن والحديث ، ولكن الناس قد ذهلوا عن ذلك في حالة السراء ، وإنما يردون إليه في الضراء ... [3] " .

إن ظلال الغبش والران الذي يلقى على الفطرة أوقات الغفلة وإن طالت ، سرعان ما يزيله أول الشعور بالاضطراب وانقطاع الأسباب ، فتتجلى الفطرة وتعود إلى صفائها تلتجيء إلى خالقها ، وعندها تظهر علامات الخشوع والخضوع فتخلص في القصد والدعاء ، يقول تعالى : { **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ**

---

[1] الزمخشري / الكشاف / ج 5 / ص16
[2] أبو حيان / البحر المحيط / ج 8 / ص406
[3] الإمام القزويني / سراج العقول / ص65 , نقل عنه : د. مصطفى مسلم / مباحث في التفسير الموضوعي / ص 145

السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41) } الأنعام [1]

ولكن هل أحسن موقفٌ بهذه الشدة استدعاء هؤلاء القوم إلى استثارة كوامن فطرتهم كما هو متوقع ؟

الجواب ظاهر في المفاجأة التي حصلت وسجلها القرآن ناطقة بلسانهم ، وهي أنّ هذه اللحظة الحرجة والحاسمة على شدتها لم تفلح في إزالة أو تحريك سجاياً لغريزةٍ مفككة ومبعثرة ، لتجمع نفسها وتستنهض قواها على الأقل لحظة الإثارة، ففشلت قلوبهم من اللجوء إلى ربها أو حتى لموسى على الرغم من الظرف المشجع على ذلك (وجود نبي صاحب معجزات كبيرة) فكان قولهم : { **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** } انعكاس للقوة التي من الممكن أن تتعامل معها هذه الشخصية لحظة اضطرابها ، وهي لا شيء سوى الحسابات المادية فلا مكان إذاً لطلب الدعاء أو التضرع أو حتى الركون إلى قوة موسى – وهو في نظرهم القائد صانع الأعاجيب - لذا كان من الطبيعي أن نلحظ المعيّة الإلهية رافقت موسى عليه السلام واستثنتهم في جواب موسى عليه السلام رداً عليهم : { **قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين**}

- ولنبق محتفظين بهذا الموقف الذي أظهر القوم عاجرين عن الطّلب ، أيِّ طلب ، وننتقل سريعاً إلى أول طلب سجله القرآن عليهم بعد خلاصهم ونجاتهم ، قال تعالى : { **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** (138) } الأعراف

وشاهدي من الآية في هذا الموضع منحصر بالطلب ، فهنا يظهر أن القوم نطقوا أخيراً بطلب يطلبونه من موسى عليه السلام ، وموضوع هذا الطلب ليس هو النجاة أو النصر إذ احتاجوه وقت لحاق فرعون بهم ، أو أي شيء يتعلق بالتمكين و وما بعده ، ولكنه شيء من نوع آخر { **قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ ...**}

أما طبيعة "الطلب" فمن المهم دراستها لأنها تعكس كوامن الشخصية ودوافعها من ناحية إظهار رغباتها ، ولذا نلحظ الاهتمام القرآني بتسجيل هذين الحدثين كما هما بخطابهم المباشر له ، ولعل هذه المفارقة العجيبة تظهر شيئاً من حقيقة هذه الشخصية التي لا تتقن حتى أولى أبجديات الطلب !

ويمكن أن نلحظ من رد موسى على هذا الطلب أنه حاوياً أمرين : وصف وبيان ، قال تعالى : {**إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140)** } الأعراف

الأمر الأول : وصفه لهم بصفةٍ تحدد ذلك الوصف وهو (الجهل) بدقة تنم عن طبيعتهم تلك من ناحية ، و تحمل لتلك الشخصية استمرارية الفعل من ناحية أخرى .

[1] للمزيد حول موضوع : الفطرة حالة الاضطرار , ينظر : محمد جمال الدين القاسمي / دلائل التوحيد / ص24 – وكذلك : د. مصطفى مسلم / مباحث في التفسير الموضوعي / ص 145

و الجاهل لا يملك تقدير الأمور كما يجب ، وفي التشبيه المعروف عندما ينظر إلى طفل لا يفرق بين الذهب ولعبة لامعة فيفضل الأخيرة عليها ، يُقال إنه جاهل ، كذلك هؤلاء ، لم يستطيعوا بعد إدراك عظمة الألوهية ووَقْعِها في النفس وما لها من قيمة عليا تبعث السموَّ عن النظر الهابط إلى فعل هؤلاء القوم من عبدة الأصنام .

والأمر الثاني من رد موسى عليه السلام إخبارهم عن مآل الفعل الذي أمامهم أنه الهلاك لا محالة لأنه قائم على باطل، ثم استثارتهم من منطلق الغيرة والحرص عليهم بتوجيه أنظارهم نحو المفاضلة بينهم وبين جميع الأمم الوثنية أمثال هؤلاء العاكفين على الأصنام ، وكأنه يقول :ما كان ينبغي أن يكون هذا الطلب منكم وأنتم على ما أنتم عليه من نعمة التأييد بالوحي والرسالة !

يقول الإمام الرازي : " ذِكْرُهُ في هذه الآية من التعجب منهم على وجه يوجب الإنكار والتوبيخ فقال : { **أَغَيْرَ الله أَبْغِيكُمْ إلها وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين** } والمعنى : أن الإله ليس شيئاً يطلب ويلتمس ويتخذ ، بل الإله هو الله الذي يكون قادراً على الإنعام بالإيجاد وإعطاء الحياة وجميع النعم ، وهو المراد من قوله : { **وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين** } فهذا الموجود هو الإله الذي يجب على الخلق عبادته ، فكيف يجوز العدول عن عبادته إلى عبادة غيره1؟"

وفي هذا المعرض يقول صاحب الظلال : " إنها العدوى تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام ، ولكنها لا تصيبها إلا حين يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية ، وطبيعة بني إسرائيل - كما عرضها القرآن الكريم عرضا دقيقا صادقا أمينا في شتى المناسبات ، طبيعة مخلخلة العزيمة ، ضعيفة الروح ، ما تكاد تهتدي حتى تضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط ..... ذلك إلى غلظ في الكبد ، وتصلب عن الحق ، وقساوة في الحس والشعور ... ولم يقل تجهلون ماذا ؟ ليكون في إطلاق اللفظ ما يعني الجهل الكامل الشامل ..... الجهل من الجهالة ضد المعرفة ، والجهل من الحماقة ضد العقل ! ولو أنهم هم اتخذوا آلهة لكان أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة ...!! 2" .

وليت الأمر توقف على الطلب ، فكما هو معروف للجميع - وحتى بإقرار كتبهم - حصول ذات فعل العصيان الذي وبخهم عليه نبيهم موسى ووعظهم وحذرهم منه ، ولو وضعنا موضوع اختيارهم لمعبودهم جانباً [3]، ونظرنا فقط من زاوية عصيانهم لوصايا نبيهم ، لظهر هنا مرة أخرى قصر الفترة الزمنية لنقضهم العهد تماماً كما حصل عند طلبهم السابق من موسى عليه السلام ، مع ملاحظة أمرٍ مهم ، وهو أن يتم مثل هذا العصيان الكبير بوجود نبي معهم (هارون) ما زال يذكرهم وينهاهم ، مما يعكس لهذه النفسية سرعة الاستجابة لداعي التمرد حتى

---
[1] الرازي / التفسير الكبير / ج 4 / ص29
[2] قطب / الظلال / ج3/ ص 1366
[3] مكانه في المبحث السابق

بوجود الرادع ، فإذا كان هذا الرادع لا يحمل من القوة المادية ما يكفي لحملهم على الالتزام يكون العصيان والتمرد في أعلى درجات الوقاحة { **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91)** }طه ولنا أن نقارن بين موقفهم مع هارون وجوابهم له وبين وما حصل في جوابهم مع موسى : {**قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)** } .

و أُرجح أن أقوى ما ذكر في معنى الآية[1] يكون : ما أخلفنا موعدك بسلطان كانت لنا على أنفسنا نقدر أن نردها عما أتت ، لأن هواها غلبنا على إخلافك الموعد ، فيكون هذا حكاية جوابهم لموسى عليه السلام مجملاً مختصراً شأنَ المعتذر بعذر وَاهٍ أن يكون خجلان من عذره فيختصر الكلام[2] ، وعند ابن عاشور :" أن ظاهر حال الفاء التفريعية يكون ما بعدها صادراً من قائل الكلام المفرّع عليه، والمعنى : فمثلَ قذفنا زينةَ القوم ، أي في النّار ، ألقى السامريّ شيئاً من زينة القوم فأخرج لهم عجلاً . والمقصود من هذا التشبيه التخلّصُ إلى قصة صوغ العجل الذي عبدوه [3] ".

ويقول صاحب الظلال : " يعتذرون بذلك العذر العجيب ، الذي يكشف عن أثر الاستعباد الطويل ، والتخلخل النفسي والسخف العقلي ! [4] "

وقد يصلح هذا الدليل أن يضاف إلى سلسلة الحلقات المكملة لإطار ماديتهم ،وحتى تكتمل الصورة - أقصد المصيبة- سنرى تطوراً سريعاً يلحق فنَّ التبرير[5] في شخصيتهم حين يتقدم بنا الزمن خطوات يسيرة إلى الفترة التي تم فيها تزوير قصة عبادة العجل ، ليصبح هارون صانع العجل !!

نموذج ثالث : وقفة سريعة مع هارون عليه السلام وفق الرؤية اليهودية :

---

[1] رجح بعض المفسرين ومنهم الطبري أن يكون موسى هو الذي أمرهم بأخذ الحلي , ونصُّ قوله : " والقول عندي في تأويل ذلك أنهما قراءتان مشهورتان -(حُمِّلنا) و(حَمَلنا) - متقاربا المعنى، لأن القوم حملوا، وأن موسى قد أمرهم بحمله، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب ...." انتهى والحق الذي أراه أن سياق الآيات والأسلوب الذي اختاروه في تبريرهم لا ينفي أن يكون لموسى عليه السلام علاقة بهذا الأمر وحسب , بل يظهر أنهم اعتبروه وزراً أي ثقلاً فهم يشيرون إلى هذه الأحمال . ويقولون : لقد قذفناها تخلصاً منها لأنها حرام . فأخذها السامري فصاغ منها عجلاً , وفي هذا يقول ابن عطية : وتحتمل هذه التسمية أن تكون من حيث هي ثقيلة الأجرام ، ويحتمل أن يكون من حيث آمنوا في قذفها وظهر لهم أن ذلك هو الحق فكانت آثاماً لمن حملها . (ابن عطية / المحرر الوجيز / ج4/ ص 420) .

[2] ينظر : الطبري / جامع البيان / ج18 / ص 353

[3] ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج9 / ص 89

[4] سيد قطب / في ظلال القرآن / ج4 / ص 419

[5] يحلل الدكتور(جوست ميرلو) سلوك إلقاء اللوم بأن الحافز للوم هو الدفاع عن النفس, وإعفاؤها من مواجهة الذنب ...ويعتقد أن الحاجة إلى لوم الآخرين تنشأ كخطة مصطنعة ...) ينظر : جوست ميرلو / ذلك السلام الصعب / ص5 , نقل عنه : عباس البلداوي / الشخصية بين النجاح والفشل / ص 72

أقول : إنه يجب التفريق بين سلوك اللوم الطبيعي , وهذا الذي يرافقه الكذب والتملص الكامل من الذنب بتحميل كافة تبعاته على الآخرين , فإنه عند ذلك يصبح مرضاً قاتلاً, وهو المعني لدى الشخصية اليهودية .

لقد أعمل كاذبو التوراة خيالهم الذي لا يمكن تصوره إلا أن يحاط بإطار الكذب المحبوك بأنسجة الافتراء والقذف فعملوا لهارون دمية ممسوخة من أوهامهم ، وألبسوها لباس (السامري) ، فصار ذلك النبي الموحّد الداعي إلى وحدهم هو صاحب الفتنة وصانع صنم العجل !

يقول سفر الخروج : " اجتمع الشعب إلى هارون وقالوا له : إصنع لنا آلهه تسير أمامنا .. فطلب إليهم أن يجمعوا أقراط الذهب التي بينهم ، فجمعوها وجاءوا بها فاخذ ذلك الذهب من أيديهم وصنعه عجلاً مبسوطاً ، فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من مصر ، فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ونادى هارون غداً عيد للرب ! " (الخروج:32) .

وفي التعليق على هذا النص ، يقول الشيخ البهي : " ومنطق الفهم للمعنى القدسي للنبوة تتريهه غاية التزاهة عن الردة إلى عبادة الأصنام ، ولكن هؤلاء الذين خلت أذهانهم من كل استعداد للمدركات العلوية وآثارها في النفوس لا يتصورون لتلك النبوة أيّ فاعلية أو عاصم من أي كبيرة أو صغيرة ...... ولما كانت عقولهم تجري في مفترياتها وتأليفاتها على قانون تلك الحسبة فلا جرم بكون التأليف والافتراء مطبوعاً بطابعها شاهداً ببراءة الله ورسله منه ، ولولا حسية تلك المفتريات لكان من أصعب الأمور أن تدفعهم بتزييف التوراة والكذب على الله [1] " .

وما أعجب أن يكون هارون عليه السلام ، التي أظهرت الآيات الكريمة وقوفه في وجههم وبيان باطلهم هو صاحب العجل وصانعه ، قال تعالى : { **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90)**} طه، ومقابلتهم ذلك باستضعافه ومحاولة قتله **قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } الأعراف(150)

وفي هذه الآيات نلحظ أمرين : الأول قلة أنصار هارون لدرجة استضعافه ، والثاني : محاولة لجوئهم إلى العنف لا إلى إحكام العقل والبينة ، مع أن البينة واقعة بمجرد الرؤية وقد عابت عليهم الآيات سخافة تفكيرهم (**أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا**) طه (89).

وبهذا يظهر تصرف اليهود مع موسى وأخيه عليهما السلام خراب القلب الإيماني الذي يستجيب لمتطلبات والتزامات العمل في ظل طاعة النبي و الرسول أو حتى أدنى تفاعل إيجابي يطال على الأقل أولى أبجديات الطلب ، مما يلفت النظر إلى الطبيعة التي تنطوي عليها هذه النفسية ...

نموذج أخير : إيذاء موسى (طبيعته وعلاقته المباشرة بالشخصية المادية) :

[1]- البهي الخولي / بنو إسرائيل في ميزان القرآن / ص 165

معلوم أن الصور التي تم فيها إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام تحمل أشكالاً كثيرةً ومتعددة ، منها ما يخص كفرهم برسالته ، وجحود آياته ، ومنها متعلق بإيذائه شخصياً كانتقاصه وعيبه في نفسه ، وكثرة مجادلته وعصيان أوامره والاستخفاف بعهودهم معه ونقضها ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله جهرة ، وتكذيبه ، وخذلانه ... وقد حكى القرآن ألواناً من إيذائهم ، ظهر أكثرها بارزاً من خلال تفاعلهم مع المعجزات التي جاءهم بها ، ولأن الحديث عنها في حينها قد يكون أنسب ، انتقيت آية قرآنية كنموذج أخير ، ميزتها أنها علقت صراحة بإثبات فعل (الإيذاء) منهم إليه عليه السلام ، كما أن في مناسبة تفسيرها ما يمكن حمله كدليل آخر على طبيعة شخصيتهم وإفراطها في المادية :

قال تعالى:{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (9)**} الأحزاب[1]

ومعنى الآية العام : يا من آمنتم بالله تعالى حق الإيمان ، التزموا الأدب والطاعة والاحترام لنبيكم صلى الله عليه وسلم واحذروا أن تسلكوا معه المسلك الذي سلكه بنو إسرائيل مع نبيهم موسى - عليه السلام - حيث آذوه بشتى أنواع الأذى ، { فَبرَّأَهُ الله مِمَّا قَالُواْ } أي : فأظهر الله تعالى براءته من كل ما نسبوه إليه من سوء .
{ وَكَانَ عِندَ الله وَجِيهاً } أي : وكان عند الله تعالى ذا جاه عظيم ، ومكانه سامية ، ومترلة عالية ، حيث نصره - سبحانه - عليهم ، واصطفاه لحمل رسالته[2] ...

وهذه الآية تثبت صراحة إيذاء اليهود لموسى عليه السلام ، وقد ذكر البخاري في مناسبة تفسيرها قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ ... الحديث[3]) .

---

[1] وهناك آية أخرى في سورة الصف : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5) }

[2] ينظر : طنطاوي / الوسيط / ج1 / ص 4154

[3] أما تتمة الحديث وهي : { وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ ثَوْبِي حَجَرُ ثَوْبِي حَجَرُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا })
تخريجه : في صحيح البخاري : ج 11 / ص205 / رقم 3152 , صحيح مسلم : ج 21 / ص73 / رقم : 4373 , سنن الترمذي : ج 11 / ص 10 / رقم : 4103 , مسند أحمد / ج9 / ص 138 / رقم 4103
أقول : أما ذكر في الشق الثاني من الحديث , بخصوص طريقة تبرئة الله له ففيها نظر , إذ لا يجب أبداً أن تحمل على ظاهرها , لأن فيها ما يصطدم مع قاعدة شرعية في موضوع فرض الستر , إذ لا يعقل أن ينتهك الله ستر مسلم , فمما بالنا بالأنبياء , والذي أراه : أن معنى النص {فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا ..} على لا يؤخذ على معنى التعري الكامل , وإنما على التعري المسموح شرعاً , والذي فيه ستر تام للعورة , بدليل , أن موسى عليه السلام وصف بأول الحديث, أنه لا يرى من جسمه شيء , بسبب حياءه , فلزم أن يكون المقصود هنا كشف ما هو مسموح برؤيته شرعاً مما كان موسى يستره .(والله أعلم)

و الحديث ظاهر في أن الشخصية اليهودية لا تعرف للحياء مكان حتى تفسره أو تفهمه ، والحياء خلق رفيع ، وهو قبل كل شيء خلق فطري ، نابع من طيعة الروح الإنسانية ، لذا تستحيل استقامته في نفْسٍ لا تستوعب المعاني لتزنها أو تعطي لها اعتباراً حين يُغَيِّب عنها ظلام المادة كل أفق لمعنىً أو خلق كريم .

ومن هنا يسهل علينا أن نفهم سر وطبيعة هذا النوع من الإيذاء كما جاء معللاً في الحديث الشريف الذي فضح هذا اللون الصارخ في الطبيعة التي انطوت عليها النفسية اليهودية بمغالاتها في المادة إلى المستوى الذي يستحيل معه أن تفهم أي معنى آخر غيرها !

المطلب الثاني : النظرة اليهودية المادية كما عرضها القرآن لأنبياء من بني إسرائيل : (داوود وسليمان ، وعيسى عليهم السلام)

أولاً : تقدير الله للنبيين الكريمين : داوود وسليمان ومقارنته بالتصور اليهودي عنهما :

إنّ أول ذكرٍ جاء لنبي الله داوود ضمن ترتيب سور القرآن الكريم كان في سورة البقرة[1] عند سياق الحديث عن المعركة الواقعة بين طالوت وجالوت ، حيث جاء اسم داوود عليه السلام في آخر آية في القصة كبطل مؤمن تم تتويج النصر على يديه بقتله جالوت {**فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ .. (251)**}

وفي هذه الآيات تظهر تزكية الله لداوود عليه السلام تزكيةً عملية بعد المراحل التي تمت وفق سلسلة امتحانات جرى من خلالها تصفية النخبة الذين وصفهم الله تعالى بقوله : {**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ ملاقوا اللَّهِ ..**} ، فكان عليه السلام من القلة القليلة المختارة التي ثبتت كذلك إلى النهاية أمام تهاون العزائم وخذلان الصف وكثرة الأعداء وبأسهم ...

فأظهرت لنا الآيات الكريمة جانباً مهماً من شخصيته وهي تحمل رصيداً روحياً عالياً ، ودفعاً إيمانيا قوياً مكّنه أن يكون أهلاً لشرف أن يتم قضاء رمز الكفر على يديه .

ثم بعد أن ظهر سيدنا داوود في نهاية القصة كبطل حمل شرف هذا التأهيل ، أظهر الله إكرامه بثلاث ميزات

---

[1] الآيات من سورة البقرة (246-251) وسيأتي تحليل ل الشخصية اليهودية من خلال قصة طالوت في الفصل القادم إن شاء الله .

أخرى :{ **وَآَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ** }.

وإذا نظرنا إلى تحليل القصة من الجانب النفسي فلا شك أن الآيات الكريمة قد أظهرت لنا داوود عليه السلام في هذه النفسية العالية التي انطوت على عزيمة صادقة خلافاً لغالبية قومه ، الذين فشلوا في سلسلة اختبارات كشفت عجزهم أمام دواعي الإخلاد إلى الأرض وما ولدته من تبعاتٍ سيئةً على نفوسهم .

وكذلك في سورة (**ص~**) صور لنا القرآن الكريم داوود عليه السلام في أعلى درجات السمو الروحي والشفافية ، وإن إنساناً يبلغ به المقام أن تسبح معه الجبال الجامدة في تناغم واحد ، لحري أن يكون قد اجتاز حواجز وعقبات كثيرة فوق كل ما له صلة بدونية الأرض وأثقالها !![1]

قال تعالى : {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (20) } ص~

وهنا يذْكر تعالى عن عبده ورسوله داوود عليه السلام أنه كان ذا أيدِ ، والأيد: القوة في العلم والعمل.

ونقل المفسرون[2] عن ابن عباس وابن زيد والسدي : الأيد: القوة ، وقرأ ابن زيد: { **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** } [الذاريات: 47] وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة، وقال قتادة : أعطي داود عليه السلام قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام، وجاء في السنة أنه عليه السلام كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر[3].

وقوله: { **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ** } أي : إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: { **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ** } [سبأ: 10] وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا تستطيع الذهاب بل تقف في الهواء وتسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعا له.

ومع النبوة والملك آتاه الله من فضله قلباً ذاكراً وصوتاً رخيماً ، يرجع به تراتيله التي يمجد فيها ربه ، وبلغ من قوة استغراقه في الذكر ، ومن حسن حظه في الترتيل ، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون .

كما أننا يمكن أن نلحظ أمراً في اختيار الله تعالى لحادثة وقعت مع نبي الله داوود عليه السلام وعرضها من خلال

---

[1] للمزيد ينظر : سيد قطب / الظلال / ج5 : ص 34

[2] ينظر : الطبري / جامع البيان / ج21 / ص 176 , ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج 7 / ص57 , أبو السعود / إرشاد العقل السليم / ج5/ ص468

[3] وهذا ثابتٌ في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى" وإنه كان أوابا، وهو الرجّاع إلى الله عز وجل في جميع أموره وشئونه (ينظر : ابن كثير / ج7 / ص 51) , تخريج الحديث في صحيح البخاري :ج4/ ص 294, رقم(1063) , وفي مسلم : ج 6 / ص47 , رقم (1969) .

الآيات القرآنية ، ذلك أن اختيار هذه الحادثة كشف عن مدى الحساسية المرهفة التي ينبض بها صاحبها في تعامله مع أبسط أمر يمكن أن يعتريه في شؤون حكمه ، حيث التذكر الدائم والرجوع إلى الله ومراقبته في كل سكناته وحركاته ، يقول تعالى : { **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (25)** } ص~.

بعد اطلاعي على أقوال المفسرين في هذه القصة [1]، أرجح القول بأخذها على حقيقتها على اعتبار أن الخصمَ قوم من الناس مختصمون في نعاج بينهم على الحقيقة ، إذ لا يوجد في الآية ما يدل على كونهم ملائكة ، بل على العكس فإن الملائكة لا توصف بالخصم ، كما لا تحتاج إلى أن تتسور المحراب حتى تصل إليه ، والله أعلم .

يقول الإمام الرازي : " فحكم عليه بكونه ظالماً بمجرد دعوى الخصم بغير بينة ، لكون هذا الحكم مخالفاً للصواب ، فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة ، إلا أن هذا في باب ترك الأفضل والأولى فثبت بهذه البيانات أنا إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه ، فإنه لا يلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود عليه السلام ، بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه ، ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه الأول : أن الأصل في حال المسلم البعد عن المناهي ، لا سيما وهو رجل من أكابر الأنبياء والرسل ، والثاني : أنه أحوط ، والثالث : أنه تعالى قال في أول الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم :{ **اصبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17)** } ...[2] " .

ولو كان المراد ما قيل من قصة المرأة التي على كل مسلم تتريهه وسائر إخوانه عليهم السلام عن مثلها لقيل « وعلم داود » ولم يقل : وظن - كما يشهد بذلك كل من له أدنى ذوق في المحاورات [3] .

وأكبر دليل على هذا ، ما جاء به السياق الذي أحيطت به القصة أنها سيقت مساق المدح لداوود ، فهي لا تخرج أن يجري ذكرها إلا للترقية في رتبة الكمال ، فكانت هذه الحادثة إنما هي للتدريب على الحكم ،لا بامرأة

---

[1] قال ابن العربي في أحكام القرآن (54/4) : وما يجوز فعله ابتداء يجوز طلبه، وليس في القرآن أن ذلك كان، ولا أنه تزوجها بعد زوال عصمة الرجل عنها،" وأيده القرطبي في الجامع (ينظر رأيه : الجامع لأحكام القرآن / ج15 / ص 176) .

[2] الرازي / التفسير الكبير / ج 6 / ص214

[3] ينظر هذا الرأي : د. سعد المرصفي (كما يقول : " ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء فقد كذب على الله عز وجل وقوله ما لم يقل , وزاد في القرآن ما ليس فيه , وأقر على نفسه الخبيثة أنه كذب الملائكة ..." (الرسول واليهود وجهاً لوجه / ج1 / ص297)..

أقول : وهذا الذي ذكره الدكتور المرصفي فيه من الشدة البالغة ما لا داعيَ لها , حيث أن اعتبارهم من الملائكة احتمال وارد على ضعفهِ , خاصة أنه مذكور عند جل المفسرين ويمكن أن يحمل على أنه تشبيه صوري – على قول بعض المفسرين - مع أني قد لا أرى دخوله باب الاعتبار والترجيح لما قدمت من الأدلة المذكورة أعلاه , واعتبارهم من الملائكة لا يلزم أن يكونوا معرضين بالنساء, فهذا موضوع آخر , ويلزم التفريق .

ولا بغيرها ، فيكون قوله تعالى : فغفرنا له ذلك : أي الوقوع في هذا الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه [1] .

كما أن علاقة مقدمة القصة بخاتمتها أقرب كذلك إلى فهم السياق على هذا النحو وقد جاء في مقدمتها قوله تعالى :{ **إنَّه أوَّابٌ** } تعليل للأمر بذكره إيماء إلى أن الأمر لقصد الاقتداء به، كماختم الله هذه القصة بقوله : { ***وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزلفى وَحُسْنُ مَئَابٍ*** } ومثل هذه الخاتمة إنما تحسن في حق من صدر منه عمل كثير في الخدمة والطاعة ، وتحمل أنواعاً من الشدائد في الموافقة والانقياد، أما إذا كان المذكور السابق هو الإقدام على الجرم والذنب فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به [2] .

وأما تسجيل هذه الحادثة هنا - فبالإضافة إلى ما ذكر- فإنها تكشف لنا جانباً روحياً قوياً في شخصية داوود عليه السلام يعكس نقيض ما تقدمه لنا الشخصية اليهودية عنه- عليه السلام - ليكون في ذلك مزيد إثبات الحجة عليهم في مفارقة أنبيائهم لهم ، ولنا أن نتصور مقدار الغل الذي يكنّه كاذب التوراة وهو يسرح خياله العفن في قصة داوود مع أوريا[3]، وما فيها من نسبة القذف إليه وانتهاك حرمة الجوار والغدر ثم القتل مع سابق التدبير والإصرار ، وإني إذ أنزه البحث عن الخوض في تفاهة هذه القصة سأكتفي بذكر شيء من النص الذي وضعوه في حق الرب وهو يعاتب داوود كما ورد في تعليقه عليها في الإصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني :

" هكذا قال الرب إلـــه إسرائيل :....لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه ؟ ...احتقرتني ، هاأنذا أقيم عليك الشر في بيتك .. [4] " !!

إن المتمعن في طبيعة هذه النظرة العدائية من اليهودي لأنبيائه وما كشفه لنا أسلوبهم المنحط في الطعن فيهم من خلال كتبهم المقدسة لتظهر -كما أرى - تجرد اليهودي من نصرة (أصحاب القيم) ولو كانوا أبناء جنسه ، وهذا يكشف تجذر الخلل في غريزة الميل إلى نصرة جنسه كذلك ، وهذه الصفة تصلح كدليل آخر في الاستغراق

---

[1] ينظر هذا الرأي : د. سعد المرصفي / الرسول واليهود وجهاً لوجه /ج1/ ص299 .

[2] ينظر : ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 7 / 128

[3] تفاصيل القصة المُخْتَلقَة واردة في : (سفر صموئيل الثاني : 11)

[4] :يعتبر الشيخ ابن خُمير(ت7هج) صاحب كتاب : (تنزيه الأنبياء..) أنَّ الأمرَ لا يخرجُ عن أنِّ داود عليه السلام قال لبعض أصحابه: انزل لي عن أهلك وعزم عليه في ذلك وأن الأمر لا يخرج من دائرة المباح ,واستدل بما استدل عليه المفسرون من قول سعيد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما: إن لي زوجتين أنزل لك عن أحسنهما ، فقال له : بارك الله لك في أهل .(ينظر : ابن خمير (أبي الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي المعروف بابن خُمير/ تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء / تحقيق : د. احمد عبد الجليل الزبيبي/ دار اين حزم / ص 59 / دمشق / ط1 / 2003م)

والحديث في صحيح البخاري :رقم (1131) - وصحيح مسلم : رقم (1159)).

أقول : هناك فرق واضح بين أن يعرض إنسان عطية أو شيئاً يملكه شهامةً و إيثاراً على نفسه, وبين أن يطلب أحد منه ذلك , فإن طلباً من هذا النوع ,وإن كان مباحاً فلا يدخل دائرة المروءة ومحال على الأنبياء الإخلال بالمروءة , ثم إن هذا أبعد عن سيدنا داوود بالذات - لو سلمنا افتراضاً بأن الطلب كان فعلاً بخصوص امرأة أعجبته – وقد جاء في البخاري (1930) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) ,فكيف لداوود عليه السلام أن يعف عن أخذ راتبه من بيت مال المسلمين – وإباحة ذلك لا تحتاج إلى دليل لسريانها مسرى العرف –ويأبى إلا أن يأكل من عمل يده , ثم يضع عينه على أخص ما في أيدي الناس ؟!

المادي لدى هذا الفصيل ، على اعتبار أن غريزة (الانتصار للجنس الواحد) غريزة حيوانية قبل أن تكون إنسانية ، وضمن هذا الإطار يسهل علينا أن نفهم قوله تعالى عنهم في موضع آخر: { **بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى** } (13 الحشر) !

والدليل على ما أقول أنه لو لاحظنا معاً مسيرة الشعوب وحضارتها عبر العصور ، لوجدنا أنها تعتز بعظمائها ومفكريها ، وتحاول تخليدهم على نحو ما ، خاصةً إذا كان قد مر على دعوتهم وفكرهم مدة من الزمن ، فحتى لو وُجِد لذلك (النجم) -كما يسمونه - بدايةً من قاوم أو عارض من أبناء جلدته فسرعان ما تتلاشى وغيرها لاحقاً نصرة للقومية و تحقيقاً لما يُعرف بغريزة إظهار الذات ، والتي يعتبر الاعتزاز برموزها العليا جزءاً أساسياً فيها - أما الإسلام فقد وجهها نحو الانتصار للفكرة والعقيدة ، ولاشك أن هذا أسمى بكثير - هذا عند البشر العاديين، أما لهذا الصنف المتفرد فإننا سنعجب كثيراً كيف يصل بهم الحقد على أنبيائهم كل هذا المبلغ إذا لم نكن نفهم لهذه الشخصية طابعها الخاص ، حيث لا مكان أبداً ولا اعتبار لأي نتاجٍ خيرٍ يمكن أن تقدمه لهم حضارتهم ورموزها في مجال المعاني والقيم ، وإلا كيف لنا أن نفهم كل هذا االتشويه والتقبيح الذي رسمه كاذبوا التوراة ومزوروها على داوود عليه السلام مثلاً وهو يمثل صانع العصر الذهبي والمتربع على تاريخهم بطوله وعرضه !

ولو كان نتاج النبوة صنعةً مادية كاختراع جهاز كهربائي ، لما رأيناهم يسلبونه حق انتسابه إلى هذا الاختراع ، بل سيحرصون على الافتخار به ، لذلك لا ينسى اليهود لحظةً أن يقدموا داوود عليه السلام كملك ، ولكنهم يرفضون تماماً الاعتراف بأنه كان نبياً صالحاً قبل كل شيء ، وأنه قد نجح في أداء رسالته على أتمها ، ولربما يظهر ذلك أوضح في تعامل الشخصية اليهودية مع ابنه سليمان عليه السلام ، حيث لا يكاد - في أحسن التقديرات- يذكر لقبه (كنبي) البّتة ، فهو الملك الوثني الشرس ، رفيق النساء الذي حكم بالحديد والنار (حاشاه)!

ولو بقينا مع سليمان عليه السلام في العرض القرآني ، لوجدنا من أكبر الدلائل ما يضاف إلى شواهد ماديتهم المقيتة ، فسليمان الذي يمثل مصدراً مهماً في مجدهم التاريخي ، وهم يتغنون بهيكله صباح مساء ، رأيناه في تصورهم رمزاً للعشق الوثني ، وكأنهم صبّوا كل ميولهم ورغباتهم في خرافات ألبسوها للملك الأعظم شهرة ، فحاكوا صورته بالقالب الذي يرغبونه حتى يتسنى لهم تقبله رمزاً لهذا التمثيل !

و في التقديم القرآني لشخصية سليمان "كنبي وملِك " إحدى أقوى الحجج على الشخصية اليهودية التي أفقدها غلوها المفرط في المادية ، توازنها ورؤيتها الصحيحة لمعنى الحياة والوجود الإنساني .

لقد انتقت الآيات الكريمة مواقف من عهد سليمان أظهرت أمراً بالغ الأهمية وهو أن هذا الملك - الذي فُضِّلَ ملكه على العالمين- لم يفتنه شيء من ملكه عن علاقته القوية الصادقة بالله ، فسخّر كل ما لديه في نصرة الدين

والدعوة للتوحيد :

فجاء في سورة ص~ قوله تعالى : { وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) } حيث تستهل الآيات بإقرار داوود وسليمان عليهما السلام بنعمة الله وفضله ، وردها إلى مصدرها (الله عز وجل) ، يقول قطب : " إن داود عليه السلام أوتي الملك مع النبوة والعلم ، ولكن الملك لا يذكر في صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان ، إنما يذكر العلم ، لأن الملك أصغر من أن يذكر في هذا المجال ! [1] "

كما ذكرت الآيات تمكن سليمان من هذا الملك الشيء العظيم : **{ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) }**النمل ، والمفهوم أنها وراثة العلم ، لأنه هو القيمة العليا التي تستأهل الذكر ، ويؤكد هذا إعلان سليمان في الناس : **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا ..}** فيظهر ما علمه من منطق الطير ويجمل بقية النعم مع إسنادها إلى المصدر الذي علمه منطق الطير.

والمعنى : خلفه سليمان فهو وارث ملكه والقائم في مقامه في سياسة الأمة وظهور الحكمة ونبوءة بني إسرائيل والسمعة العظيمة بينهم [2].. ، فالإرث هنا مستعمل في معناه المجازي وهو تشبيه الأحوال الجليلة بالمال وتشبيه الخلفة بانتقال ملك الأموال لظهور أن ليس غرض الآية إفادة من انتقلت إليه أموال داوود بعد قوله : { ولقد آتينا داوود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضّلنا } النمل : 15 ، فتعين أن إرث المال غير مقصود فإنه غرض تافه [3].
وجملة { نِعْمَ العَبْدُ } في موضع الحال من { سُلَيْمانَ } وهي ثناء عليه ومدح له من جملة من استحقوا عنوان العبد لله .

يقول ابن عاشور : " وتعليق هذا الظرف ب { أوَّابٌ } تعليق تعليل لأن الظروف يراد منها التعليل كثيراً لظهور أن ليس المراد أنه أوّاب في هذه القصة فقط لأن صيغة أوّاب تقتضي المبالغة . والأصل منها الكثرة فتعين أن ذكر قصة من حوادث أوبته كان لأنها ينجَلي فيها عِظم أوبته[4] " .

ثم تخبرنا الآيات الكريمة أنه في اللحظة التي سار بها هذا المِلِك في أوج ملكه وأبهة جيشه الذي شمل الإنس والجن والطير في ظاهرة لم يُسْبَق لها ، تذكر شيئاً لا يمكن أن يخطر على بال من كان في مثل وضعه أبداً ،حيث أنه لم يكن في جو تأمل وصفاء ، بل صوره لنا القرآن وهو يتقدم جيشاً عظيم المبلغ عدةً وعتاداً ، ثمّ إن كل هذا

[1] ينظر : سيد قطب / في ظلال القران / ج 5 / ص 375
[2] "وعِلم منطق الطير أوتيه سليمان من طريق الوحي بأن أطلعه الله على ما في تقاطيع وتخاليف صفير الطيور أو نعيقها من دلالة على ما في إدراكها وإرادتها . وفائدة هذا العلم- كما ذكر المفسرون - أن الله جعله سبيلاً له يهتدي به إلى تعرف أحوال عالمية يسبق الطير إلى إدراكها بما أودع فيه من القُوى الكثيرة ، وللطير دلالة في تخاطب أجناسها واستدعاء أصنافها والإنباء بما حولها ما فيه عون على تدبير ملكه وسياسة أمته ، مثل استخدام نوع الهدهد في إبلاغ الأخبار وردها ونحو ذلك " (ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج10 / ص 275) .
[3] ينظر : التحرير والتنوير / ج 12/ ص 223
[4] المصدر السابق / ص224

التمكين المادي مجتمعاً ذلك الوقت -كما صورته الآيات - لم تولد لديه لحظةَ غفلةٍ عن أن يراعي شعور نملة ! وبالتأكيد فإن تصرفاً كهذا ينُمُّ عن رهافة إحساسٍ ورقةِ شعورٍ لا يمكن أن يصل إليها إلا من مَلَكَ قلباً شاكراً كَقلْبِ سُليمان عليه السلام : (**فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**)

يقول الزمخشري : " فإن قلتَ : ما أضحكه من قولها ؟ قلتُ : شيئان ، إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم ، وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى ، وذلك قولها : {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} تعني أنهم لو شعروا لم يفعلوا ، وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً : من إدراكه بسمعه ما همس به الذي هو مثل في الصغر والقلة ، ومن إحاطته بمعناه ، ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع [1] الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك [2] " .

ولو قابلنا هذه الصورة التي عرضها القرآن الكريم لشخصية سليمان عليه السلام ، مع ما كاله خيال كذبة التوراة لوجدنا مفارقةً عجيبةً بين واقع سليمان وما أراده مؤرخو شخصيته من اليهود أن يسجل على ملكهم ونبيهم ، يقول كذبة التوراة : " إن النبي سليمان عرف قيمة المرأة حق المعرفة ، وكانت محبته للنساء فاقت محبة والده للنساء " (الملوك الأول (11:1-8) ، وقول سليمان : " ...لكم أحبك ألذ من الخمر !" (نشيد الإنشاد 6:7-8) ، وما سوى ذلك من الغزل الفاحش ! [3] .

وهكذا فقد رأينا أن القرآن الكريم في عرضهِ لجوانب من حياة داوود و سليمان عليه السلام لا يمكن أن يلتقي بشيء منها مع التصوير اليهودي لها ، والذي لا يفسره إلا دوافع ران المادة ، حين أعمت كل قلبٍ متشرّب بها عن كل صورة معنوية نبيلة ترقى في تقويم خصائص النبوة وسمو الرسالة ... !

والحق أن هذا قد طال حتى كبار الأنبياء الذين صاروا بالنسبة لهم مجردين من معاني القداسة _كما أسلفت — وهم أرادوا أن يستبدلوا نبوتهم بوثنيةٍ مختلقة يمجدونهم من خلالها ، وبالتالي يصيِّرونهم رمزاً لهذا العشق !

يقول الشيخ محمد الغزالي : " ويبدو أن الفكر اليهودي يحسب النبوة ميراثاً دنيوياً يمكن الاستيلاء عليه بالشطارة والمهارة ، وليست هبة عليا يمنحها رب العالمين ممن اصطفاهم من أهل الطهارة والنظارة ![4] "

---

[1] . وحقيقة { أَوْزِعْنِي } اجعلني أزع شكر نعمتك عندي ، وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عني ، حتى لا أنفك شاكراً لك (الزمخشري / الكشاف / ج 5/ ص 69 , أبو السعود / إرشاد العقل السليم / ج 5 / ص 179

[2] الكشاف / ج 5/ ص 69

[3] للإطلاع على النصوص : نشيد الإنشاد {(ا:2) (1:2) (5:2) (4:3)(4:5)(5:1) (7:7) (10:8) ...} والتعليق عليها ينظر : شفيق مقار / الجنس في التوراة / ص 75

[4] الشيخ د. محمد الغزالي / اليهود المعتدون ودولتهم إسرائيل / دار القلم / بيروت / 1999م / ط1 / ص319)

إذن فالموضوع – كما هو ظاهر – لا يتعلق بتمجيد هؤلاء الأنبياء من منطلق ديني ، إذ لا يخرج الأمر عن استخدام المسميات فقط ، فماذا أبقى اليهود لشخصية سليمان مثلاً - الذي نذر مملكته للدعوة إلى التوحيد – سوى الأصنام والنساء ؟!

فالقضية – كما أراها – مسخ كامل لحقيقة وجوهر النبوة ، وبالتالي لحقيقة وجوهر الدين ، ولا يمكن أن نفهم بحالٍ أنّ هؤلاء عندما قاموا بعملية تشويه كبرى للنبوة ومعالمها ، كانوا ينطلقون من مغزى ديني معين ، وإنما كان يحركهم شيء آخر مختلف عن الدين وتعلقاته ، وهو ليس إلا ما فسّره القرآن ب(دافع الهوى)، ونوع الهوى عندهم متميز عن غيرهم بمؤثر "المعشوق" الذي حصّلوه من طبيعة كفرهم **{أُشربوا في قلوبهم العشق بكفرهم }.**

عندما نفهم هذه الشخصية بصورتها الحقيقية حينما يكون الحيز لهذه الغريزة قد أُفْرغ أو بمعنى أدق (أُشْرَب مكانه ماديّة عجلية) فإن حلّ اللغز في فهم الشعارات الزائفة (كنجمة داوود وهيكل سليمان ..[1]) يغدو أسهل ، فليس لبشرٍ مكانٌ للتمجيد والتقدير مهما قدّم إلا أن يكون فاقداً للحمه ودمه أو بالأحرى لإنسانيته ، ومصنوعاً من الذهب المسبوك على هيئة العجل أو ما يتمثل به من المصالح المادية !

ولنبقى مع شاهد أخير ، من أنبياء أولي العزم يثبت استمرار انغماسهم في دنس المادة وعشقها ...

ثانياً : أمرهم مع عيسى عليه السلام :

لقد جاء النبي عيسى عليه السلام بأقوى مثلٍ يمكن أن يُضرب للإنسان صاحب الرسالة الذي حملت ظروف حياته بجميع ملابستها لواء ذلك المنهج القابض على معول الهدم لجدار المادية ، حيث كان لمعجزاته في إحياء الموتى .. ولجميع الأمور التي رافقت بعثته عليه السلام من أولها إلى آخرها الأثر الواضح في ذلك .

وأول ما يظهر من تلك العلاقةِ هو طريقة ميلاده عليه السلام كما هو معروف ، حيث شاءت إرادة الله أن يكون في ميلاده معجزة تكسر كل الحسابات المادية والحواجز المفتعلة من اعتبار الأسباب والمسببات ، فكان عيسى عليه السلام إثباتاً فعلياً لانهيار منهج المادية الذي أقاموه سداً بينهم وبين ربهم وبينهم وبين إحساسهم بإنسانيتهم .

جاء في سفر إشعيا ما نصه : " ولكن يعطيكم السيد نفسه آية ، ها العذراء تحبل وتلد ابناً .." (7:14) وهذا النص بشارة صريحة بمعجزة ميلاد عيسى عليه السلام وهو موجود إلى الآن ، ورغم ذلك لم يصدق اليهود إشعيا

---

[1] لقد اختزلوا داوود عليه السلام إلى نجمة , وسليمان عليه السلام إلى هيكل حجارة , وأخرجوا من قائمتهم منهجهم الرباني الفريد في تحقيق معنى الاستخلاف على الأرض , ثم إن هذه الشعارات وغيرها في حقيقتها لم تظهر أو يُنادى بها إلا حين أصبحت ضرورة للم شملهم بتحقيق مصلحة إقامة دولة لهم وإشباعاً لعنصريتهم بالشعور الناتج عن عزلتهم عن باقي المجتمعات , إذاً فهي وسيلة لتحقيق غرضهم الخبيث دون ليكون لرموزها أي اعتبار !.ينظر : سيد قطب / في ظلال القرآن / ج 6 / ص 207

ولا عيسى - كما هم مع جميع أنبيائهم - فعندما ولدت العذراء عيسى اتهموها بالزنى : **{ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا }**النساء (**156**)

وإذا ناقشنا موضوع تهمتهم لمريم الصديقة ، وجدنا أنه لا يمكن أن تركن على أي احتمال مبرَّر مهما بلغ من البساطة ، فكل الظروف التي أحاطت بهذه المعجزة جعلت من السهولة تصديقها ، فطهر مريم ونسبها وأسلوب حياتها كفيل بالظن الحسن ، ولكن الله شاء أيضاً أن يتمم براءتها بنطق عيسى عليه السلام وهو طفل أمام أعينهم ، وإذا ماديتهم المقيتة تتنكر لكل معنى مجرد يمكن أن يترك أثراً روحيا عميقا يذكِّرُ بعظمةِ الله تعالى وقدرته ، ليكونَ استقبالهم لها ولولدها أشد ما يكون من النكران ، وقد صورت الآيات مشهد رؤيتهم إياها ، وهم متعجلون الحكم ، دون محاولة إبداء استفسار أو طلب توضيح : **{ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** (28)**}**مريم .

والفرية كما يقول الراغب : " أصلها من الفري وهو قطع الجلد للخزر والإصلاح والإفراء للإفساد ...وقوله : **{لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا }** قيل معناه عظيماً ، وقيل عجيباً ، وقيل مصنوعاً ، وكل ذلك إشارة إلى معنى واحد [1] " .

وإذا اعتبرنا أن لأحدهم بعض العذر في استباق السبب وتعجل الحكم، لرؤيتهم مشهد مريم في تلك الحالة الأولية، فلا يمكن أن يبقى أي فسحة لعذر وهم يرون معجزة عيسى يكلمهم بالمهد ، والقرآن يثبت أن كل المعجزات التي رافقت عيسى وأمه لم تغير ، ليس في موقفهم من الإيمان وحسب ، وإنما لتهمتهم مريم كذلك : **{ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا }**النساء ، وحتى سجله الحافل بالمعجزات - من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى - التي تقتل في طريقها كل حسبان في الاعتداد بالأسباب المادية لم يمنعهم حتى من التآمر على قتله !

والذي يُلحظ من استحكام المادية في نفوسهم وما ولدته من قسوة في القلب وحسية في التفكير ،أنها أبعدتهم كل البعد عن إدراك قدرة الله وأمره وتسييره للسنن الكونية وفق مشيئته ، وإذا أضفنا عنصر التوقيت الزمني (الفترة التي جاء فيها عيسى عليه السلام) وهي فترة متأخرة نسبياً في تاريخ أنبياء بني إسرائيل ، لوجدنا أن حال هذه الشخصية سيختلف من ناحية تقويم قياس (تفشي المادية في قلوبهم) عنها في الفترة التي صحبوا فيها موسى عليه السلام مثلاً ، فمن المعروف أنه قد تعاقب بين الفترتين أنبياء كثر ، ولا بد أن تكون فتنة الإنعام عليهم بوفرة الأنبياء وسقوطهم في كل محطة فيها ، قد تركت دوائر سوداء كثيرة في معالم شخصيتهم ، وليس بحال أن نتصور نتيجة يتعادل فيها السلب والإيجاب في التفاعل مع الأنبياء ورسالتهم ، وإذْ لم تكن النتيجة شيئاً إيجابياً (أن يؤمنوا)

[1] الراغب / المفردات / ص 380- 381

، فهي بالتأكيد سلبية بكل المقاييس ، والله سبحانه قد علل **{وأشربوا في قلوبهم العجل ..}** فوراً بقوله تعالى : **{ .. بكفرهم }** .

ومن هنا، فإن طبيعة كفرهم التي تميزت بالفشل الذريع والمتكرر عند كل امتحان يدعَون فيه إلى الفطرة الحنيفة ، جعلت استحقاق قلوبهم لداء (عشق المادة) نتيجة طبيعية وعادلة .

لقد كشف عيسى عليه السلام عن المرحلة شبه النهائية في تكوين هذه الشخصية فكان أن آمن به من يستحق الخروج من وحل اليهودية وماديتها إلى شرف الإسلام ونوره ، ثم ليبقى ذلك الوحل للسواد الأعظم منهم ممن توارثوا بكفرهم عشق العجل ، و برفع عيسى عليه السلام من بينهم ، رُفع آخر عهد لهم مع النبوة .

هذا وبعد جولة في بعض محطات اليهود مع أنبيائهم ، أظهرتْ من الأمثلة ما يصلح الواحد منها كأكبر شاهد على العلاقة بين المادية المستحكمة في نفوسهم و طبيعتهم المميزة العداء لكل ما هو مقدس أو يمثله ، بقي أن أنتقل من تناول أمثلة مخصوصة ومحددة إلى الشكل الأعم ، باعتباره ظاهرة أصيلة تحكم علاقة هذا النوع من الشخصية مع أنبيائها ، وسأتناول من العناوين العامة مسألتين رئيسيتين تحملان لوناً فاقعاً يميز حقيقة هذا التفاعل المقيت مع الأنبياء ، هما مسألة اقتران الأنبياء بفعل الكبائر ، وظاهرة قتل الأنبياء ، وأبدأ مع المسألة الأولى :

مسألة (1) : لماذا يقترن الأنبياء مع أقبح الكبائر ؟

يمكن لأي متصحف للكتاب المقدس تصور فظاعة أن يرد زنا المحارم في التوراة أكثر من سبعة مواضع منسوباً إلى أنبياء ورسل ![1]

ويعلق ابن حزم على هذا :" ليست هذه صفات الأنبياء ولا صفات من فيه شيء من الخير ، لكن صفات الكلاب الذين وضعوا لهم الخرافات الباردة التي لا فائدة فيها ولا موعظة ولا عبرة حتى ضلوا بها ، ونعوذ بالله من هذا الخذلان ![2] " .

وما يلاحظ في كتابات العهد القديم حول الأنبياء - الذين هم باعتراف الكتبة أنفسهم من سلالة بني إسرائيل المفضلة والمختارة على العالمين - هو مضمون لا يسلب عنهم صور التكريم والقداسة وحسب ، بل ينزلهم منزلة دونية تصل إلى مستوى استحقاقهم الغضب من الله ، فهل يحمل منطق العقل إمكانية الصورة التي نجدها معهم وهم يترنمون في الصلاة بتراتيل تقص نزول الغضب على خيرتهم ؟!

---

[1] ينظر على سبيل المثال قصة لوط مع ابنتيه : (سفر التكوين / إصحاح 20) والتعليق عليها في كتاب : العقيدة اليهودية للدكتور سعد الدين صالح /ص324

[2] ابن حزم الأندلسي الظاهري / الفصل في الملل والنحل / الجزء الأول / ص107

وبالتأكيد فإن تكرار هذه الصورة وطغيانها فكرتها على طول صفحات العهد القديم وعرضه ، يجعلنا نجزم أن مزوري التوراة لم يؤلّفوا هذه القصص اعتباطاً ، بل إنهم خاضوا في أعراض أنبيائهم لأن المهم عندهم أن ينالوا منهم كما ينال المرء من ألدّ أعدائه ، فحطوا من كرامة الذين هم وسيلة الوصول إلى الله ، ودعاة الارتقاء الروحي!!

ولدى محاولتي أن أجد عند علماء النفس وصفاً لهذا التصرف المرضي الشاذ ، وجدتهم يطلقون عليه مصطلح (الإسقاط) ومعناه عندهم : حيلة لا شعورية تتلخص في أن ينسب الشخص (المريض) عيوبه ونقائصه وصفاته غير المستحبة إلى غيره من أناس أو أشياء أو أقدار ، وذلك تحقيقاً لغرضين :

- تخفيف إحساسه بدوافعه البغيضة ، فيبعده عن رؤية نفسه كما هي في الواقع

- روح المبادرة العدوانية في الإقدام على لوم الناس واتهامهم قبل أن يلوموه ويتهموه .[1]

وأرى أن هناك شيئاً آخر علّه غاب عن علماء النفس ، وهو وصفهم للحالة التي يتم فيها الإسقاط على عنصر مقدس ، فيكون بالإضافة إلى الغرضين السابقين غرض آخر جامع لأمرين في وقت واحد :

الأمر الأول : اعتماد أوصاف الإسقاط في خانة الشرعية ، والثاني : تحقيق ما يعرف بشفاء الغليل من هذا المقدس، بإلباسه ثوباً يعكس نقيض ما يدعو إليه !

وإذا تمعّنا في طبيعة الموضوع المطروح الذي يتم خلال عملية الإسقاط اليهودية ، وجدنا أنها مواضيع مرتبطة برغبات جسدية حيوانية قذرة ، أو اتباعية تقليدية لأمم وثنية ، ومن الطبيعي أن نجد الإنسان إذا اختلق قصة أو فرية فلا بد أن تكون مصطبغة بصبغة أفكاره وتصوره للأمور ، فلا عجب إذن أن نرى في موضوع الإسقاط مطاوعة للنفس فيما تميل أو تصبو إليه .

وقد يقود هذا الموضوع لطرح عنوانٍ يضم تحته الأفكار التي شكلت تصور اليهودي المادي لوظيفة النبي ، فإذا كان النبي لا يتورع عن اقتراف أعظم الكبائر ، فما علاقته وارتباطه بالنبوة أصلاً ؟أو كيف ينظر للنبي في العهد القديم ؟

وظيفة النبي كما يعكسها الفكر اليهودي :

من خلال انتقائي لنصوصٍ من أسفار متنوعة يختلف بينها تاريخ التدوين من واحد لآخر ، ظهر واضحاً منها أن رجال الكتاب المقدس - على اختلاف أزمنتهم وأسلوبهم في التحريف - كلهم متفقون على جامع رئيسي يجمعهم في نظرتهم إلى النبي ، هو[نزع صفة القداسة].

[1] ينظر : محمد الهابط / دعائم صحة الفرد النفسية /تحت عنوان : سوء التكيف / ص (39-41)

فالنبي عندهم ليس له أي ميزة روحية ، ولا حتى خلقية من الممكن أن تصونه عن الوقوع في الكبائر ، فوظيفته مجرد ناقل وهو بالأحوال العادية – وعلى حد وصفهم – لم يكن مؤهلاً أو ناجحاً فيما يدعو إليه ، أما علاقة ذلك بالوجه المادي فعلاقة مباشرة ، لأننا وفق هذه النصوص التي كشفت تصوراتهم ، يسهل علينا فهم العلاقة على أنها انقطاع ملازم في إدراك المعاني الروحية المغذية للقيم ، ولدى العودة إلى موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية ، نجد تعريف (نبي) على النحو الآتي : " نبي : تعني كلمة (نافي) في اللغة العبرية (من يتحدث باسم الإله) أو (من يتحدث الإله من خلاله) ، ويعلق صاحب الموسوعة بقوله : "نلاحظ أن النبي رغم كل هذه المقدرات ليس تجسيداً للكلمة الإلهية ، وإنما مجرد مبلغ لها فحسب ، ويشار إليه بأربعة مصطلحات : حوزية ، رأى ، روئه ، إيش الوهيم ، نافي ... وفي تقسيم العهد القديم تستخدم كلمة (الأنبياء) للإشارة إلى قسمين مختلفين :

أ _ الأنبياء الأولون (بالعبرية نفيئيم إيوشنيم) ب- الأنبياء المتأخرون (نفيئيم أخرونيم)

ويسمون أيضاً بالأنبياء الأدبيين أي الذين دونت أسفارهم [1] " .

ويظهر من تعريفهم اعتبار أنهم فهموا قصور مهمة النبي على النقل ، ولتوضيح ما أقول بصورة أقرب أقول : نحن نجد مثلاً كُتّاب الملاحم والأساطير في الزمان الغابر، الذين يحاكون في آدابهم معتقدات وتصورات رومانية ويونانية قديمة - كأعمال هوميروس وهوراس - لابد وأن يضفوا صفة القداسة والكمال المطلق أو المكتسب من الرب لرجال وأبطال ملاحمهم ، وهم بذلك يعبرون بطريقة غير مباشرة عن أحد الأساليب الإنسانية المتبعة في الميل الغريزي نحو إشباع الروح بالاتجاه للمقدس ، وهذه الطريقة على حماقتها إلا أنها مفتقدة عند الشخصية اليهودية ، بدليل أنه كان بإمكانهم أن يُعْمِلوا خيالهم الخصب في اختلاق صور جديدة ملفقة للأنبياء ، وأن يأتوا على لسانهم بتشريعات ما أنزل الله بها من سلطان ، دون الحاجة إلى نزع كل صورة كريمة ، تقترب ولو قليلاً للمعنى القدسي الذي لا يريدونه ، بل وحتى لا يفهمونه !

وعليه ، لا يمكن بحالٍ أن يتكرر هذا الأمر إلا عند من لا يحسن فهم أنّ حيّز الواقع للوجود الكائن في شكله النظري ؛ من الممكن أن يحمل لهم إنساناً على خلق رفيع مبدأه الارتقاء بالقيم العليا على سواها من المصالح ، وكأن كذبة التوراة وهم يسطرون تصورهم عن النبي ؛ قد غاب عنهم أفق الاتصال تماماً بالمعنويات ، ولو لم يكن الأصل عندهم أنه غير موجود ، لما استحال عليهم أن يدركوا عالم النبوة على هيئته المثالية المجردة .. !!

مسألة (2) : قتل الأنبياء :

[1] - د. رشاد الشامي / موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية / المكتب المصري / ط2002م

هذا المطلب لا يعالج في "الشخصية اليهودية موضوع الإجرام الموجه إلى عموم البشر العاديين ، وإنما يخص ظاهرة الإجرام المتكرر ضد الأنبياء ، وحيث إننا نقيس أفعالهم ببواعثها الباطنة ، فلا بد أن نفهم أموراً معينة أحاطت بهؤلاء وشكلت إطاراً إجرامياً متأصلاً من الصعب فهمه بالوقوف على ملابساته منفصلة ومجتزأة ، دون نظرة شمولية أكثر بعداً في وصف هذه الظاهرة ونتائجها الوخيمة على نفوسهم ، كما صرح بها القرآن الكريم .

وإذا استعنا بعلماء النفس قليلاً فإننا نجدهم يحللون سلوك الإجرام المتأصل بأن صاحبه يبدو كثير التورط فيما يعاكس الجماعة بعيداً عن أن يأبه بالعقاب الذي يأتيه من الجماعة أو من التهديد أو أشكال الصد الأخرى ، ويبدو سطحي العاطفة لا يتأثر بما يوقعه من أذى وأسى بالآخرين ، ولا يبدي أي شكل من أشكال الندم .... ثم انه يبدأ في أعماله متأثرا بدوافع ليس عنده حدس عميق بها ، وعنده بالإضافة إلى ذلك نزوع إلى الكذب حتى إن الحدود بين الصدق والكذب كثيراً ما تضيع [1] .

أقول : وهذا المذكور هنا قد شخصه القرآن الكريم بصورةٍ أدق فيما يخص تحليله لهذه الشخصية ، حيث اعتبر فيها وجود موجِّهٍ ما مسئول عن هذا النزوع الإجرامي وسماه **(الهوى)** في قوله تعالى : **{بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ }**، ثم ذكر النازع الذي يتحرك تبعاً لهذا الموجه وهو "نازع الاستكبار" كما جاء في سورتي البقرة والمائدة ، **قال تعالى :{ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ...}** فكانت النتيجة **{ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) }**البقرة ، وقال تعالى: **{ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (70) }**

فالقتل هنا فعلٌ أرادوا به إزالة العقبة الواقفة أمام معبودهم (الهوى) وعلى اعتبار أن الهوى المرغوب هو ميلهم نحو الإشباع المادي ، فمن الاستحالة أن ينسجم مع نداء العقل والروح الذي جاء به كل الأنبياء الكرام !

جاء في المحرر الوجيز : " وأكثر استعمال الهوى فيما ليس بحق ، ومنه هذه الآية[2] " ، وقال أبو حيان :" وأسند الهوى إلى النفس ، ولم يسند إلى ضمير المخاطب ، فكان يكون بما لا تهوون إشعاراً بأن النفس يسند إليها غالباً الأفعال السيئة ..

وقوله **{استكبرتم }** : استفعل هنا : بمعنى تفعل ، وهو أحد معاني استفعل . وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بأنه سفه الحق وغمط الناس [3]. والمعنى قيل : استكبرتم عن إجابته احتقاراً للرسول . أو استبعاداً للرسالة ، وفي ذلك ما كانوا عليه من طبيعة الاستكبار الذي هو محل النقصائص ونتيجة الإعجاب . وهو نتيجة الجهل

[1] (لمعرفة المزيد حول هذا النوع من السلوك عند علماء النفس ينظر : د نعيم الرفاعي / الصحة النفسية / دراسة في سيكولوجية التكيف / /ص326 - 327) , داون شلتر / حول السلوك ترجمة د. أحمد الكربولي , د. عبد الرحمن , أ.د .محمد زيدان حمدان / تشخيص وعلاج الانحراف السلوكي / ص 3

[2] ابن عطية / المحرر الوجيز / ج 1/ ص398

[3] الحديث في مسند الإمام أحمد / ج 7 / ص 497 , رقم : (3462)

بالنفس المقارن للجهل بالخالق ، وإن ذلك كان يتكرر منهم بتكرر مجيء الرسل إليهم ، وهو كما ذكرنا استبكار بمعنى التكبر ، وهو مشعر بالتكلف والتفعل ، لذلك لا أنهم يصيرون بذلك كبراء عظماء ، بل يتفعلون ذلك ولا يبلغون حقيقته ، لأن الكبرياء إنما هي لله تعالى ، فمحال أن يتصف بها غيره حقيقة [1]" .

ثم لا شك أن جريمة القتل فوق جريمة التكذيب .. حيث فصل القرآن بين جريمتين : الأولى استدعت "التكذيب" والثانية استدعت "القتل"

وقد جاءت آيات أخرى عالجت موضوع قتلهم للأنبياء ثلاث منها في سورة (البقرة) وثلاث في (آل عمران) وواحدة في (النساء) وواحدة في (المائدة) ، أما اللاتي في البقرة فبالإضافة إلى الآيتين السابقتين ، جاء قوله تعالى : { **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)** } البقرة

وقوله تعالى : {**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ** } معناه ألزموها وقضي عليهم بها ، كما يقال ضرب الأمير البعث ، وكما قالت العرب ضربة لازب ، أي إلزام ملزوم أو لازم ، فيضاف المصدر إلى المفعول بالمعنى ، وكما يقال ضرب الحاكم على اليد ، أي حجر وألزم ... و { **الذلة** } فعلة من الذل كأنها الهيئة والحال ، {**والمسكنة** } من المسكين ، و هي مأخوذة من السكون بمعنى : زي الفقر وخضوعه ، وإن وجد يهودي غني فلا يخلو من زي الفقر ومهانته » [2] " .

وفي قوله تعالى { **قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)** } البقرة ، أمرٌ للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك تبكيتاً لهم حيث قتلوا الأنبياء مع ادعاء الإيمان بالتوراة وهي لا تسوّغه ، ويحتمل أن يكون أمراً لمن يريد جدالهم كائناً من كان . والفاء جواب شرط مقدر أي : إن كنتم مؤمنين { فَلم } الخ ،..... وإيراد صيغة المضارع مع الظرف الدال على المضي للدلالة على استمرارهم على القتل في الأزمنة الماضية ... وفي إضافة (أنبياء) إلى الاسم الكريم تشريف عظيم وإيذان بأنه كان ينبغي لمن جاء من عند الله تعالى أن يعظم وينصر لا أن يقتل!3 .

"ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الأنواع من الوعيد قال : { **ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بآيات الله وَيَقْتُلُونَ الأنبياء بِغَيْرِ حَقّ** } والمعنى على قول الرازي : " أنه تعالى ألصق باليهود ثلاثة أنواع من المكروهات أولها : جعل الذلة لازمة لهم ، وثانيها : جعل غضب الله لازماً لهم ، وثالثها : جعل المسكنة لازمة لهم ، ثم بيّن في هذه الآية أن العلة لإلصاق هذه الأشياء المكروهة بهم هي : أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق [4] ".

---

[1] أبو حيان / البحر المحيط / ج 1 / ص 114
[2] ينظر : ابن عطية / المحرر الوجيز / ج 1 / ص 88
[3] ينظر : الألوسي / روح المعاني /ج 1 / ص 421
[4] الرازي / التفسير الكبير / ج4 / ص 347

والملاحظ هنا ارتباط هذا الفعل الإجرامي الشنيع وهو قتل الأنبياء بالكفر، والعلاقة بينهما واضحة إذ أن القتل هنا ليس لبشر عاديين وإنما لمن حملوا رسالة الوحي من الله ، و وذكر قتلهم للأنبياء في أكثر من موضع ، وقرن ذلك مع كبائر أخرى ارتكبوها كالكفر والافتراء على الله بما لا يليق به جل وعلا ، ففي سورة آل عمران ارتبط فعل قتلهم للأنبياء بكبيرة أخرى : **{ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (181) }**

وليس في هذه الآية تعيين هذا القائل ، إلا أن العلماء نسبوا هذا القول إلى اليهود واحتجوا عليه بوجوه[1].

وقوله : {سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍ } أي سنكتبه في صحائف الكتبة ، أو سنحفظه في علمنا لا نهمله لأنه كلمة عظيمة إذ هو كفر بالله عز وجل واستهزاء بالقرآن والرسول ، ولذلك نظمه مع قتل الأنبياء ، وفيه تنبيه على أن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول !

وفي هذا تسجيل عليهم كما سجلنا عليهم قتلهم أنبياء الله بغير حق ، فالإسناد مجازي والكتابة حقيقية ، أو المعنى : سنحفظه في علمنا ولا نهمله ، وسنعاقبهم بما يستحقونه من عقوبات ، فيكون الإسناد حقيقة والكتابة مجازاً .

والسين للتأكيد ، أي لن يفوتنا أبداً تدوينه وإثباته ، بل سنسجله عليهم ونعاقبهم عليه عقابا أليماً بسبب أقوالهم القبيحة ، وأعمالهم المنكرة .

وفي ذلك إثبات أصالتهم في الشر ، واستهانتهم بالحقوق الدينية ، وللتنبيه على أن قولهم هذا ليس أول جريمة ارتكبوها ، ومعصية استباحوها ، فقد سبق لأسلافهم أن قتلوا الأنبياء بغير حق ، وللإشعار بأن هاتين الجريمتين من نوع واحد ، وهو التجرؤ على الله - تعالى - ، فقتل الأنبياء هو تعدٍّ على أمناء الله في الأرض الذين اختارهم لتبليغ رسالاته [2].

ولو انتقلنا إلى موقفهم من عيسى عليه السلام ، فليس إلا الاستمرار على عهدهم الإجرامي القديم ، فقد سجل عليهم القرآن الكريم محاولة قتلهم للمسيح عليه السلام كما ذكر قتلهم للأنبياء في أكثر من موضع ، وقرن ذلك مع كبائر أخرى ارتكبوها كالكفر والافتراء على الله بما لا يليق به جل وعلا، قال تعالى : **{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) }**

---

[1] تنظر الوجوه : المصدر السابق /ج4 / ص 493 , (للإمام الرازي لفتة يقول فيها : " والذين قتلوا الأنبياء بغير حق هم الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم بأدوار وأعصار ، فعلى هذا الموضع الذي حصلت فيه العلة وهو قتل الأنبياء لم يحصل فيه المعلول الذي هو الذلة والمسكنة ، والموضع الذي حصل فيه هذا المعلول لم تحصل فيه العلة ، فكان الإشكال لازماً .

والجواب عنه : أن هؤلاء المتأخرين وإن كان لم يصدر عنهم قتل الأنبياء عليهم السلام لكنهم كانوا راضين بذلك ، فإن أسلافهم هم الذين قتلوا الأنبياء وهؤلاء المتأخرون كانوا راضين بفعل أسلافهم ، فنسب ذلك الفعل إليهم من حيث كان ذلك الفعل القبيح فعلاً لآبائهم وأسلافهم مع أنهم كانوا مصوبين لأسلافهم في تلك الأفعال " .

[2] - ينظر : البيضاوي / أنوار التنزيل / ج 1/ ص 420 , الألوسي / روح المعاني / ج 3 / ص 341 , طنطاوي / الوسيط / ج 1 / ص814

ولو تتبعنا المرات التي ذكرت فيها حوادث قتلهم للأنبياء في القرآن ، فسنجد محاولة قتلهم لهارون عليه السلام في قوله { **وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي .. (150)**} وقبلها مؤامرتهم على يوسف { **اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا**} وموضع آخر وهو الذي يخص المسيح عليه السلام ونفي أنه قتل .

وبمقارنة سريعة بين هذه المواقف ، سنلحظ الفرق واضحاً فيما يخص هذه الشخصية وتعاملها مع موضوع القتل ، ففي زمن مؤامرة قتل النبي يوسف عليه السلام- على اعتبار أن فعل إخوة يوسف هو توطئة لما سيتطور عليه أحفادهم من اليهود فيما بعد - لم يخرج عن دائرة المؤامرة المدبرة سراً ، والتي أعقبها الندم والتوبة ، أما زمن سيدنا موسى بالتحديد ، ففي الحادثة التي تخص هارون عليه السلام ، فهم وإن كانوا تحت تأثير هوسهم بعبادة العجل لم ينجزوا ذلك الفعل الإجرامي فعلياً ، بل توقف الأمر على "{ **كادوا** }"، وفي قصة البقرة زمن موسى كذلك، رافق فعل قتلهم " نفساً "حصول مُداراة ، في قوله تعالى : {**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** } .

لكن فترة عيسى عليه السلام كشفت تطوراً خطيراً في نفسية هؤلاء القتلة ، والتي نقلت صورة الإجرام من مرحلة الكتمان إلى مرحلةٍ صار القتل سنتهم وديدنهم ، فاعتادوا عليه في تعاملهم مع أنبيائهم ، وصار جزءاً أساساً من تركيبتهم :{**.. إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ ..** }، والآية الكريمة حين نفت حصول فعل "القتل" ، أثبتت هذا الادعاء منسوباً إلى اليهود صراحةً بصورة تكشف مستوى وقاحتهم في قولهم : { **..رسول الله** } وواضح فيها ما بلغوه بتجاوزهم الحد في الجرأة و الوقاحة إلى مستوى أن يجاهروا ويفاخروا **!!**

وبعودة سريعة إلى علماء النفس ، نجدهم يحللون أهم العوامل المتحكمة في الدوافع إلى العدوان وهو: [شدة العرقلة] : وهذه تزداد باستمرار التأخر في حصول المطلوب تحقيقه ، فيتجه دافع داخلي نحو مصدر العرقلة (هنا النبي) ليحصل تنفيذ العدوان خفضاً للتوتر.

وإذا كان العدوان يظهر في عدد من الأشكال ... فهو يبدو على شكل اندفاع هجومي يصبح معه ضبط الفرد لنوازعه الداخلية ضعيفاً وينضوي على الإكراه ..ولكنه يبقى سلوكاً تفسره عدة عوامل متعددة من بينها الأغراض التي يرمي إليها [1] .

والأغراض التي يرمي إليها اليهود واضحة ومعروفة ، وهي كذلك متشابهة في كل مرة ، تشابه الدعوة الخالصة التي جاء بها أنبياؤهم للإسلام لله ووحدانيته ، وتشابه محاولة إزالة ما يرونه مصدر العرقلة المستمر نحو تحقيق رغباتهم وأهوائهم ، فوجدوا في القتل أقصر وسيلة مادية يمكن أن تحقق المطلوب .

---

[1] - ينظر : د . نعيم الرفاعي / الصحة النفسية / ص233-234

فإثبات القتل المتكرر للأنبياء لدى من يتصفون بهذه الشخصية انحراف واضح ينم عن طبيعة عدوانية تظهر دوافع داخلية تتجه نحو مصدر العرقلة الذي يحول دون تلبية غرض الدافع ، فإذا كان نوع هذه العرقلة هو الشخص الذي يعتبر صاحب رسالة وداعياً للارتقاء الروحي (النبي) ، فإننا نفهم أنه لا يوجد لدى هذه الشخصية مكان لقبول هذا الأمر وحسب ، وإنما وضعه ضمن دائرة العداء والخصومة الشديدة ، على اعتبار أن هذه الوسيلة (القتل) هي الأنسب للهروب من مواجهة عدوهم تحقيقاً لمصلحة (الهوى) حيث مقر العشق المشرب للمادية !!

خلاصة :

المواجهة بين الأنبياء وأصحاب العشق المادي :

الموضوع ببساطة طرح نفسه من النقطة التي يمكن أن يلتقي فيها أشخاص يحملون أو يمثلون فكر الرقيِّ الروحي والمعنوي للإنسان ، وغيرهم من الطرف الآخر الذين يمثلون معنى الهبوط إلى فكر المادة وتعلقاتها الدونية ، وطبعاً لا يمكن أن يقع الالتقاء حتى في عالم الافتراض الجدلي ، لأننا لا نستطيع التوفيق بين أمرين متضادين في المسار لا يحصل الاشتراك بينهما في أية نقطة .

وعليه يمكن أن نفهم شيئاً جوهرياً ضمن هذه المعطيات ، وهو سر العداوة المباشرة بين هذين الشكلين ، والأهم من ذلك كله أننا نملك مفتاح التحليل لتلك المواقف السلبية العدوانية التي أفرزها الفكر اليهودي بمنطقه المادي اتجاه أصحاب الدعوات من الفكر المضاد .

لذلك ، وأمام هذا الزخم المتواصل من هذه الشواهد التي كشفت بوضوح حقيقة هذه العداوة القائمة ، فإن الضالعين بهذه العملية (عداوة الأنبياء) ، وبكل ما ينطوي عليه خبثهم ، لم يستطيعوا إخفاء الدوافع التي قادتهم إلى كل هذه الحملات المتتابعة على أنبيائهم ، أنها دوافع منبعها قلب مشرب بقسوة المادة وحسها الغليظ .

ثم إن ما لحظناه من ظاهرة استقبال الأنبياء بالعنف المتكرر جعل الشخصية اليهودية تتصدر ألفاظ البوء بالغضب ضمن وعيد الله في القرآن الكريم ، وجعل هذه الشخصية – بكل ما تميزت به من خصائص - مؤهلة أن تكون

قائدة الركب لحاملي لواء المنهج الشيطاني في الإغواء المادي المعادي للفكر الإنساني المفطور على احترام القيم وأصحابها ، والمعاني الروحية .

المبحث الثالث : النظرة المادية اليهودية للمعجزات

المطلب الأول : كيف استقبلت الشخصية اليهودية المعجزات ؟

يقول جل ذكره : **{ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آَتَيْنَاهُمْ مِنْ آَيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }** [البقرة :211]

تقدمة :

إن المعجزات التي شهدها بنو إسرائيل عبر عصورهم لم يعرف لها مثيل عند جميع الأمم ، ولربما يكون هذا إحدى العلامات الظاهرة على طبع متفرد امتازوا به عن غيرهم من البشر، من ناحية سلبية الاستجابة وقصور الأدراك والحس الغليظ بطريق المعرفة والقبول ... ، هذا كحكم مبدئي ، لكن إذا أخذنا مقطعاً من تاريخهم مع المعجزات ، فستكون فترتهم مع موسى عليه السلام أبرزها ، لأن معجزاتهم أيام موسى عليه السلام فاقت أيّ عصرٍ آخر ، فمنها ما كان قبل الخروج من مصر ، ومنها ما كان أثناء رحلتهم للأرض المقدسة التي وعدهم الله بها ، وكما تميزت معجزاته عليه السلام بأنْ كان لها الأثر المصيري في تاريخهم الطويل ، فمعجزة انقلاب عصا موسى إلى حية تسعى مثلاً، كانت فاتحة لسلسلة إضعاف سلطة فرعون السياسية والمعنوية ثم انهيارها ، بل وحتى انتصارهم وتمكينهم لم يكن لهم يد فيه سوى ما ذكره القرآن من الصّبر و تحملهم للأذى **{ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ}** [الأعراف:137]

وكذلك ما تضمنه من الرعاية الإلهية في الرحلة نحو الأرض المقدسة من معجزة انبجاس الاثنتي عشرةَ عيناً ، مع إنزال المن والسلوى كطعام لهم ، وتظليلهم بالغمام ، وكلها تميزت بأنها جمعت بين المعجزة والإنعام الظاهر الذي لمسوا فيه شكلاً للإنعام المادي والمعنوي .

ولو ضيقنا مساحة العرض إلى الفترة التي قضوها في برية سيناء مع موسى عليه السلام ، والتي بدورها قد تكون أهم مرحلة بخصوص المعجزات في تاريخ بني إسرائيل ، إذ هي امتازت بكثرة المعجزات وتتابعها ، ونزول أهم حدث عليهم وهو ألواح التوراة وما رافقها من أخذ العهد عليهم بأن يحفظوها ، ويمكن في هذه المرحلة أن نفهم هذه الشخصية على حقيقتها مجردة من أي ملابسات قد تفرضها فترة استعبادهم وذلهم أيام فرعون ، فبزوال سلطان القهر والخوف أتيح لهم أن يعيشوا على سليقتهم في جو حر ، حيث لا إملاء عليهم سوى جوهر طبعهم ، وحيث تبدو معالم سجيتهم على حقيقتها دون أي تدخل [1].

يقول الشيخ البهي الخولي : " وقد أتاحت لهم صحبة موسى في تلك البرية ، وما نزل عليه من عجائب الآيات جواً روحياً عالياً ، من شأنه أن يتفتح فيه الفكر بجمال المعاني ،والمبادىء ، والقيم ، وتحس فيه النفس بهجة الصلة بالله ، وكان هذا الجو جديراً أن ينبه ما في طباعهم من استعداد – إن كان – لتمثل كلام الله والتأثر بآياته ، وأن يبعث ما عساه أن يكون في تلك الطباع من حوافز الهمم لتحقيق ما أوحى به الله وشرع في العقيدة وشؤون الحياة ... [2] " .

إن الأجواء التي رافقت المعجزات كانت أجواء متفاعلة الأحداث متحركة المواقف شهدوا من خلالها هزيمة أقوام ونصر أخرى وتغير أمكنة وتعاقب أزمنة ، وكل هذا لم يكن ليحرك الساكن في نفوسهم أو يهز شيئاً من مكنونات قلوبهم فهم هم كما استقبلوا أول معجزة ببلادةِ إحساس وجمود تفكير كانوا في كل مرة يثبتون أنهم على ذات النهج في التفاعل السلبي والمقيت مع المعجزات .

والمهم – كما أظهرته الآية - أنهم لم يعرفوا عهداً ولا حفظاً لتوراةٍ ولا إنجيل ، يقول تعالى : **{فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ }** [القصص : 48]

و (قَالُواْ) استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الإنكار السابق وبيان كيفيته ، وقد ردّ الإمام الطبري اختلاف أهل التأويل فيها على قدر اختلاف القرّاء في قراءة (ساحران) ، وأُوجز الأقوال التي ذكرها المفسرون على قراءة (ساحران) على النحو التالي :

---

[1]- لمعرفة المزيد حول بني إسرائيل في برية سيناء , ينظر : البهي الخولي / بنو إسرائيل في ميزان القرآن / ص 155
[2]- البهي الخولي / بنو إسرائيل في ميزان القرآن / ص 157

عُنِيَ بالساحرين اللذين تظاهرا على ثلاثة أقوال : فقيل أنهما لمحمد وموسى أو أنهما لموسى وهارون أو عيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين، وقد رجح ابن كثير والألوسي وأحد القولين للكشاف[1]أن يكون المقصود بساحران هما سيدنا محمد وموسى عليهما السلام ، والسِّحْران كتاباهما، وأميل إلى المعنى الذي ذهب إليه الطبري في قراءة (سحران) التي نحن عليها من قراءة حفص عن عاصم ، حيث جاء :

قال أبو جعفر: " وأولى القراءتين في ذلك عندنا بالصواب[2]، قراءة من قرأه (قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا) بمعنى : كتاب موسى وهو التوراة ، وكتاب عيسى وهو الإنجيل ، وإنما قلنا : ذلك أولى القراءتين بالصواب ، لأن الكلام من قبله جرى بذكر الكتاب، وهو قوله :(**قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى**) والذي يليه من بعده ذكر الكتاب ، وهو قوله :{ **فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ** } فالذي بينهما بأن يكون من ذكره أولى وأشبه بأن يكون من ذكر غيره ...

وقوله تعالى :{ **وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ** } يقول تعالى ذكره: وقالت اليهود: إنا بكلّ كتاب في الأرض من توراة وإنجيل، وزبور وفرقان كافرون[3] ".

وإذا وقفنا مع الشاهد على موضوعنا في هذه الآية نجد أنها خلصت بذكر آخر ما خرج به اليهود مما أوتيه موسى وهو اعتبار أن ذلك من قبيل السحر ، أما علاقتهم بالسحر فتلك بليَّة أخرى قد أفردت لها مكانها من المبحث ، ولكن لا أظن أحداً أدرى بطبيعة السحر وتشعباته - بعد سحرة فرعون – مثلهم ، وهم أهل صنعته من عهد سليمان ، وهم قبل ذلك قد عاينوا الأحداث الجسام من أيام موسى وما لحقهم في عهد القضاة والملوك من بلاءات وانتكاسات لا يكون خلاصهم منها إلا على يد نبي وباسم الدين الذي جاءهم به ، ثم بعد ذلك كله لم يسعفهم تفكيرهم إلا بالحكم عليه أنه سحر ، والموضوع لا يؤخذ ببساطة بل هو غاية في الخطورة والتعقيد ، متلبس بطول عهد وتعايش مع معجزات كبار مالوا عنها ، فاستحقوا نتيجة وخيمة على قلوبهم التي أمالوها ، أنها صارت هي مصدر الميل والتشويه ، وفي سورة الصف ، يقول تعالى : { **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)**} [الصف : 5-6]

وقوله " { **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي** } بجحود الآيات والقذف بما ليس فيّ .

---

[1]- ينظر : الزمخشري / الكشاف / ج6 / ص281 , ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج 6 / ص 281, الألوسي / روح المعاني / ج 15/ ص151

[2]- قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف ووافقهم المطوعي : (سحران) والباقون من العشرة المتواترة (ساحران) لذا لا داعي للترجيح بين القراءتين وقد بين علماء القراءات تواترهما . (ينظر: محمد فهد الخاروف , محمد كريم راجح / الميسر في القراءات الأربع عشر ط 3 / ص 391

[3]- ينظر: الطبري / جامع البيان/ ج 19 / ص589

{**وَقَد تَّعْلَمُونَ** } في موضع الحال ، أي : لم تؤذونني عالمين علماً يقيناً { **أَنِّى رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ** } وقضية علمكم بذلك توقيري وتعظيمي لا أن تؤذوني (فَلَمَّا زَاغُواْ) مالوا عن الحق { **أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ** } من الهداية ، أو لما تركوا أوامره نزع نور الإيمان من قلوبهم ، أو فلما اختاروا الزيغ أزاغ الله قلوبهم أي : خذلهم وحرمهم توفيق اتباع الحق[1] ".

يقول صاحب الظلال : "يذكر الله تعالى رسالة موسى ليقرر أن قومه الذين أرسل إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا ، و لم يعودوا أمناء على دين الله في الأرض : (... فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدي القوم الفاسقين) . . وإذن فقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله؛ فلم يعودوا أمناء عليه ، مذ زاغوا فأزاغ الله قلوبهم ، ومذ ضلوا فأضلهم الله والله لا يهدي القوم الفاسقين[2] " .

فلما جاء عيسى - عليه السلام - أو محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى بنى إسرائيل[3] بالآيات البينات الدالة على صدقه ، قالوا على سبيل العناد والجحود : هذا سحر مبين ، أي واضح في بابه ، لا يخفى على أحد .

وهذه الآيات تؤكد استمرارهم على ذات النهج في موقفهم من معجزات موسى عليه السلام ، وهم مع عيسى لم يكونوا أحسن حالاً ، بل أضافوا إلى سجلهم الناكر للمعجزات وصفاً مؤكداً لهذا الإنكار بأنه سحر مبين ظاهر! والمهم هنا أننا يمكننا أن نفهم العلاقة المباشرة لنوع الاتهام- الذي رموا به المعجزات - مع طبيعتهم المادية ، وهو ظاهر بلا شك ، فالسحر تعليل مادي أرادوا أن يفسروا به كل ظاهرة خرجت بهم عن المألوف ، والعجيب أنهم قوم ذاقوا طعم المعجزات كنعم ظاهرة متخللةً أوقات آلام ومصائب ، أي أنها جاءت على كثرتها ، في أكثر الأجواء حركة وفاعلية وحاجة ، وهم بعد ذلك فاقدين لأي علاقة تربط بينها وبين معنى مقدس ، أو علاقة روحية ، وهم يعلمون تمام العلم أنها ما جاءت من قوّتهم ولا من علمهم ولا من أي قبيل يقترن بالحسابات المعروفة ، وهم الذين عاينوا بكل حواسهم كيف عجز كبار السحرة عن دفع أذى فرعون وتنكيله ، ثم هو يسقط أمامهم بإرادة الله التي طالما حدثهم عنها موسى !

وسورة البقرة - التي هي خير ما يمثل الحديث عن استبعادهم كفئة أثبتت عجزها عن أهلية الاستخلاف ومقومات قيامها بالحضارة الإنسانية ، بفضل منهجهم المادي المناقض لسير الفطرة الإنسانية - أظهرت أنهم والجاهل سواء في

---

[1]- ينظر : النسفي / مدارك التنزيل / ج 3 / ص426

[2]- سيد قطب / الظلال / ج7 / ص 187

[3]- من المفسرين من يرى أن الضمير في قوله { جَاءَهُم } يعود لعيسى ، ويرى آخرون أنه يعود لمحمد عليهما الصلاة والسلام , ووالذي أميل إليه أن الأقوى من السياق أنه عيسى عليه السلام وهذا الرأي قدمه الألوسي وقطع به البيضاوي .

موقفهم من معجزة القرآن ، يقول تعالى : **{ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) }** [البقرة : 101]

فإذا كان هذا ما انتهوا إليه من معجزات الأنبياء وكتبهم ، فقد أظهر الله أموراً كشفت عن حسية تفكيرهم ، وقصور معاييرهم على موازين المادة وغلاظة المحسوس ، إلى الدرجة التي أفقدتهم العلاقة .. لا أقول بين النعمة ودلالتها على المنعم - فقد يكون بها بعض عناء في تدبر - ولكن بين المعجزة ودلالتها على الخالق ، ومن هنا أرى الأمر يستلزم عودة سريعة لنماذج تكشف هذه المعايير الحسية التي استقبلوا بها كل المعجزات ، حتى وصلوا إلى هذا المبلغ من التكذيب ، فبعودة سريعة إلى فترتهم وجودهم في سيناء مع موسى عليه السلام ، تلك الفترة التي كشفت سجيتهم على حقيقتها بعيداً عن أي مؤثر – كما ذكرت سابقاً – ووجب منها ما حصلوا لتقرير النتيجة بكفرهم .

النموذج الأول :

قال تعالى : {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [البقرة : 57]

إن طعام (المن والسلوى) كان جزءاً من المدرسة الروحية التي أراد الله لهم أن يحسنوا اجتيازها لمعانيها الكثيرة في هذه المرحلة ، فهذا النوع ليس مجرد طعام عادي ، ولكنه عبارة عن غذاء روحي لنفوسهم الفقيرة ، فهو أولاً مربوط بصيغة علوية بحتة (وأنزلنا) وهو يتضمن -مع المعجزة- معنى الصلة بالله ، فلم يكن في حقيقته (طعاماً واحداً) كما قالوا ، ولكنه رزق متعدد يجمع بين لذة الطعم الحسي ، ولذة الروح ، فهذا الطعام الطيب - وهو المن والسلوى – على حسيته الظاهرة لم تكن طريقة الحصول عليه بالشكل الطبيعي المعهود ، ولكنه جاء بطريق معجزة وفرت عليهم عناء البحث والكد في تحصيله [1]، وساهمت مباشرة في توجيه عقولهم نحو صفاء الذهن والتفكر في الجو المحيط بهم (برية سيناء) الذي يفتح آفاقاً رحبة، ويسوق كل مقومات التجلية والتفكر بروح إيمانية خالية تماما من كل أجواء التعكير ، فهم عندما قالوا { لن نصبر على طعام واحد } أيقذوا حسيتهم العميقة من دخائل نفوسهم وعطلوا بواقي حواسهم عن استشعار كل الأجواء الفريدة التي وُفِّرت لهم للتخلص من وهن المادة واستعبادها ، فلم ينظروا إلى شيءٍ من كل ذلك إلا اعتراضهم على موسى أنه طعام واحد ، وقد أحسن الشيخ الخَوْلي وصف حالتهم إذ يقول تعليقاً على هذه الآية : " هذا نص دقيق جدير بالتحليل ، إذ هو أعمق وأبعد مدى مما يبدو للذهن من أول

[1]- ينظر : البهي الخَولي / بنو اسرائيل في ميزان القرآن / ص169

وهلة .. فهم أرادوا الضجر والسأم من الاقتصار على المن والسلوى ، ولكن الحق نظر في الكلمة إلى حقيقة العلّةِ الكامنةِ وراءها في النفس .. على أنهم إذ ضجروا بالطعام الواحد لم يعرفوا علة ضيقهم ، ففروا من الحس إلى الحس ، طلبوا القثاء ، والفوم ، والعدس والبصل ...فروا من حسي يلابسه معنى المعجزة إلى حسي لا يلابسه شيء من ذلك فكان هذا الفرار لوناً آخر من تصرف حسيتهم ، جعل موسى عليه السلام ينكر عليهم بقوله : { أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير }، والمفاضلة في الآية هنا ليست بين حسي وحسي ، فالأنبياء لم يبعثوا لبيان أن لحم طير السلوى أحسن من الثوم والبصل ، إنما بعثوا بتقويم الحقائق بميزان معرفة الله ومدى جدواها على قلوب الناس وصلاح بواطنهم ، فكان موسى عليه السلام ذا بصيرة تنظر في أحد طرفي الاستبدال – أو المعاوضة – من المزايا الإلهية ما لا يدركون [1] ".

ولو اقتبسنا ما يؤرخه اليهود أنفسهم في سفر الخروج حول هذا الموضوع لوجدنا من العجب ما يضحك حتى الطفل الصغير ، فهم بنصهم فضحوا بلادة أنفسهم وقلة صبرهم وأظهروا استسلاماً مستبقاً للحدث بتشاؤم فظيع !

يقول النص : " ثم ارتحلوا من إيلين إلى برية سين - في أوائل الرحلة – فتذمر كل جماعة إسرائيل على موسى وهارون ، وقال لهما بنو إسرائيل : يا ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر ، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع ، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر ..." (الخروج : 16) !

ومن يستعرض هذا النص ونصوصاً أخرى مشابهة لا يظن لحظة إلا أن القوم كانوا في مصر (ملوكاً أو سادةً منعمينَ مرفهين) مع أن لهيب السياط التي أكلوها - عند ما يلقى إليهم من بواقي قدور الأرز واللحم الذي يدعونه – مازال أثره على ظهورهم وجلودهم ، وهؤلاء طبعاً ليسوا مهاجرين بالمعنى الاصطلاحي ، فما من شيء يجمع بينهم وبين الهجرة إلا شرف مرافقة نبين كريمين ، بل وأي معنى يجمع بينهم وبين المهاجر الذي يترك أرضه وماله إما قهراً أو في سبيل نصرة دين ومعتقد ، وقد رأينا أنهم خرجوا بعار سلب المصريين حليهم ، مع العلم أنهم في وضع لا يسمح لهم بالتفكير بأمور كهذه !

ويضاف إليه أن القوم أقاموا في مصر أجيالاً كانت فترة نعيمهم فيها لا تذكر نسبياً مع الفترة التي ذاقوا فيها الذل والهوان ، الذي لم يخلصهم منه إلا موسى عليه السلام ، وهم عندما خرجوا بقيادة رسولهم لم يستطيعوا احتمال الشظف المؤقت – على فرض – فطلبوا من موسى عليه السلام هذا الطلب !

و هم يستحضرون طعم القثاء والفوم .. الخ ، متناسين في الوقت نفسه مخالطته لطعم الذل والقهر الذي لاقوه في مصر عقود وسنين !

بل وكيف لهم أن ينسوا بتلك السرعة فاجعتهم المتواصلة بتقتيل أبنائهم ؟!

---

[1] المصدر السابق / ص 170

لقد تعجب موسى من ضجرهم ، وهو يراهم يستعجلون باستبدال طعام علوي خالطه قداسة ، بطعام دوني أرضي خالطه استعباد وشقاء ، فقال عليه السلام بنص الآية : { أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير } ثم ناسب قوله لهم { اهْبِطوا مِصْراً ..}حالهم الواقعة سلوك الانحطاط عن مستوى هذه النعمة برضاهم بل وبطلبهم !

النموذج الثاني :

قوله تعالى: { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } [البقرة : **55**]

الآيات الكريمة في سورة البقرة جاءت في سياق تعداد النعم بتفصيلها الذي ابتدأ بقوله تعالى : **{ وإذ نجيناكم من آل فرعون .. }** [البقرة : **49**]

و هذا هو الإنعام الثالث في تسلسل الآيات ، وهو يلي الآية التي تذكر منّ الله عليهم بالعفو بعد ظلمهم باتخاذهم العجل معبوداً ، وقصدوا بقولهم **{ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً }** أي عياناً فيكشف عما بيننا وبينه وهي في الأصل مصدر قولك جهرت بالقراءة واستعيرت المعانية لما بينهما من الاتحاد والوضوح والانكشاف [1] ، وقال ابن عطيه : " أما انه عند أهل السنة ممتنع في الدنيا (الانكشاف) بطريق السمع فأخذتهم حينئذ الصاعقة فاحترقوا وماتوا موت قوم هود [2] " .

وقد جاء في سورة النساء قوله تعالى : **{ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ.. }** [النساء : **153**] أما الصاعقة فقد ذكر المفسرون فيها قولين :

الأول أنها هي الموت وهو قول الحسن وقتادة واحتجوا عليه بقوله تعالى : **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ... }** [الزمر : 68][3] .

والقول الثاني أن الصاعقة هي سبب الموت [4] ، وهو رأي الطبري[5] ، حيث اعتبر أصل الصاعقة كل أمر هائل رآه أو عاينه أو أصابه حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب والى ذهاب عقل وغمورِ فَهْم ، أو فقد بعض آلات الجسم - صوتاً كان ذلك أو ناراً ، أو زلزلةً ، أو رجفاً[1] .

---

[1]- زين الدين الرازي / مختار الصحاح / ج 1 / ص 48

[2]- ينظر : ابن عطية / المحرر الوجيز / ج 1/ ص 147

[3]- للإمام الرازي رد جميل على القاضي الجرجاني المعتزلي في استدلاله بهذه الآية على عدم إمكان رؤية الله مطلقاً / ينظر: التفسير الكبير / ج 3 / ص 80

[4]- وقال الرازي في معرض ذكر القولين : هذا ضعيف لوجوه احدها : قوله تعالى : (فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون) ولو كانت الصاعقة هي الموت لامتنع كونهم ناظرين لها , والثانية انه تعالى قال في حق موسى (وخر موسى صعقا) فاثبت الصاعقة في حقه مع أنه لم يكن ميتا لأنه قال : (فلما أفاق....) وثالثها أن الصاعقة هي التي تصعق,الرابعة أن ورودها وهم مشاهدون لها أعظم في باب العقوبة (التفسير الكبير / ج 2/ ص 115) .

[5]- ينظر : الطبري / جامع البيان / ج 2/ ص 83 .

وأصل البعث في قوله تعالى {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ .. } : إثارة الشيء من محله والمعنى أي بعثتم من بعد الصاعقة التي أهلكتكم ، وقد جاء مثل هذه الآية الكريمة في سورة الأعراف ، وذكرت أن موسى عليه السلام قال بعدها { رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا } [الأعراف :155] [2]

وأما قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا } فهو عرض للعفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق يعني أنك قدرت على إهلاكهم قبل ذلك ، ويرى القرطبي[3] أن مقصود الاستفهام في قوله : {أَتُهْلِكُنَا } الجحد ، أي لست تفعل ذلك وهو كثير في كلام العرب وإن كان نفياً كان لمعنى الإيجاب ، وقيل معناه "الطلب" أي لا تهلكنا وأضاف إلى نفسه ، والمراد القوم الذين ماتوا [4] .

وهذه الآيات تفضح شيئاً جديداً من أعاجيبهم ، فهم قد طلبوا من موسى أن يروا الله جهرة وجعلوا هذا الطلب معلقاً على إيمانهم ، فإما أن يروا الله فيؤمنوا أو لا يؤمنوا ، وهم بهذا تنكروا لجميع المعجزات والنعم التي أفاضها الله عليهم ، ومن المعلوم أن طلب رؤية الله ليس بالغريب عند من أنكروا رسالة الأنبياء ، يقول تعالى في سورة الفرقان : {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا } [الفرقان : **21**]

ولكن الغريب هو التوقيت الزماني والمكاني ، الذي يطلب فيه طلب وقح كهذا ، فهم يترقبون معجزة كبرى (نزول ألواح التوراة من السماء) والطبيعي أن ينصب الذهن على ماهيّةِ ومحتوى هذه المعجزة ، ولكنهم فضلوا تجاوزها بالرفض ابتداءً ، والأشد غرابة أن هذا الطلب لا يخرج من العامة أو العتاة ... وإنما من الخيرة السبعين المختارين ليكونوا مندوبين عنهم !

يقول قطب تعليقا على هذه الآية : " هي هي كثافة حس ومادية فكر ، واحتجاباً عن مسارب الغيب ...... فإذا هم يطلبون أن يروا الله جهرة ، والقرآن يواجههم هنا بهذا التجديف الذي صدر من آبائهم ، لينكشف تعنتهم القديم الذي يشابه تعنتهم الجديد ، والآيات الكثيرة والنعم الإلهية والعفو والمغفرة .... كلها لا تغير من تلك الطبيعة القاسية التي لا تؤمن إلا بالمحسوس ، إن الحس المادي الغليظ هو وحده الطريق إلى المعرفة ... [5] " .

ثم إنهم صعقوا فماتوا ثم أفاقوا ، وهذه المعجزة الإلهية جاءت أمام أعينهم ، وفق الحكمة التي ناسبت عقولهم التي لا تعقل ، ولا تدرك ما تراه إلا أن تحس به ، ثم أي حس متيقن باعث على الإيمان أكثر من أن يذوقوا طعم الصاعقة بأنفسهم ، ويلحظوا إفاقتهم منها بأم أعينهم ؟! .

[1] - أقول : على أي محمل أخذ معنى الصاعقة (الموت أو على سببه) , فمؤداهما واحد , وهو إثبات الموت الفعلي في حقهم .
[2]- الطبري / جامع البيان / ص 291
[3] - حيث قال ما نصه : " الذي أسروه كفرهم ، والذي أعلنوه الجحد به " (القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج2 / ص4) .
[4]- ينظر : الألوسى / روح المعاني / ج 9 / ص 74
[5]- قطب / الظلال / ج1 / ص 72

ولقد أخبرت الآيات في سورة النساء أنهم عبدوا العجل كذلك بعد حادثة الصاعقة ونزول التوراة ، مثل ما عبدوه قبلها فترة ميقات موسى مع ربه ، قال تعالى : { **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا** } [النساء : **153**]

النموذج الثالث :

قال تعالى :{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ... مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) } [البقرة : 63-64]

وهذا هو الإنعام العاشر كما ذكر الرازي ، وذلك لأنه تعالى إنما أخذ ميثاقهم لمصلحتهم فصار ذلك من إنعامه عليهم[1]، ولما جاء موسى عليه السلام بالتوراة أبوا أن يقبلوها فرفع الجبل فوقهم وقيل :إن لم تأخذوها وقع عليكم. قال الطبري : " إنما اخذ الله بذلك عنهم -الذين خوطبوا بهذه الآيات- توبيخاً لهم في كفرهم بمحمد وقد قامت حجة على من احتج به عليه ولاحاجة لمن انتهت اليه الى معرفة السبب الداعي لهم إلى قبول ذلك [2] " .

والميثاق العهد[3]، ويكون في الأمور التي تستوجب الطاعة ، وهذه آية تبهر العقول وترد الشك إلى التصديق ، أي واذكروا وقت أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على ما في التوراة وعدم التغافل عنها ، وفي قوله تعالى : {وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ}عطف على قوله : { أَخَذْنَا }، أو حال ، والطور الجبل كما جاء في الأعراف : { **وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** } [الأعراف : **171**] ، وهذا يفسر ارتفاع الجبل فهم عندما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا ، ولكن لم يحدث في أنفسهم إلا الرهبة الحاضرة في حينها ، فقد اخبر عنهم الله (ثم توليتم) أي أعرضتم عن الوفاء به ، وفي الآية الأخرى من سورة البقرة نفسها {**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ... قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } [البقرة : **93**] ، يقول الزمخشري : " فإن قلت كيف طابق قوله جوابهم ؟ قلت طابقه من حيث قال لهم اسمعوا وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة فقالوا سمعنا ولكن لا سماع لهم ولا طاعة [4] ".

وشاهدي من هذه الآية على عظم بلادتهم ، أن الطريقة التي أرادها الله ليوقع تعظيم الميثاق في قلوبهم ويدخل عليهم مهابته فيذعنوا ويأخذوا الأمر بقوة دون تهاونٍ وتراخٍ هو رفع الجبل أمام أعينهم فكأن الرابط بين تعظيم

---

[1] - الرازي / التفسير الكبير / ج2 / ص 137
[2]- الطبري / جامع البيان / ج 2 / ص 90 , نقل عنه : ابن كثير في تفسيره / ج1 / ص106
[3]- مختار الصحاح / ج1 / ص295
[4]- ينظر : الزمخشري / الكشاف / ج1 / ص 111

التعاليم التي في التوراة - وتلك أمور معنوية - وبين الجبل العظيم مادة هو الذي يصح لهم كأسلوب في إيصال المطلوب !.

يقول الإمام السّيوطي في الإتقان : " وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسّية لبلادتهم وقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال فهمهم .... [1] " .

ثم هم أعرضوا بعد زوال المؤثر عنهم فكان أن أوقع منظر الجبل في نفوسهم من الرهبة ما لم يوقعه عظم الميثاق ومصدره (الله) ، وهذا يعكس لنا جانباً من شخصيتهم التي تسقط من معاييرها كل شيء خلف عالم الشهادة ، لأنها لا تعظم إلا المحسوس ، وشيء آخر وهو أنه في اللحظة التي وقعت هذه المعجزة (رفع الجبل) لم يكن إذعانهم في قبول الميثاق واقع تحت تأثير رؤيتهم لهذه المعجزة من حيث كونها معجزة ، ولكن الموضوع خاص بطبيعتها المخيفة {..**وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ** } ولعل هذه الآية شهادة كبرى على تنامي اعتبارات المادة ومكانتها في نفوسهم إلى الدرجة التي صار فيها عظم الجبل أقوى من عظم ميثاقهم مع التوراة ، فأثبتوا بحق أن ميزان القياس في تصورهم هو للثقل المادي فقط ، ، ولا وزن يحسب لأي قيمةٍ معنوية !

النموذج الرابع :

قال تعالى : { مثل الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [الجمعة : **5**]

المثل بتحريك الثاء : ما يضرب ويوضع لبيان النظائر في الأحوال[2]، وسياق الآية يقول : بعد أن تبين أنه تعالى آتى فضله قوماً أميين أعقبه بأنه قد آتى فضله أهل الكتاب فلم ينتفع به هؤلاء الذين قد اقتنعوا من العلم بأن يحملوا التوراة دون فهم وهم يحسبون أن ادخار أسفار التوراة وانتقالها من بيت إلى بيت كاف في التبجح بها وتحقير من لم تكن التوراة بأيديهم ، فالمراد اليهود الذين قاوموا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وظاهروا المشركين .

{ **كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً** }وقد ضرب الله لهؤلاء مثلاً بحال حمار يحمل أسفاراً لا حظّ له منها إلا الحَمل دون علم ولا فهم.

وتخصيص الحمار بالتشبيه به لأنه كالعلم في الجهل ، و(أَسْفَاراً) أي كتباً كباراً على ما يشعر به التنكير ، وإيثار لفظ السفر وما فيه من معنى الكشف من العلم يتعب بحملها ولا ينتفع بها ، و(يَحْمِلُ) إما حال من الحمار لكونه

---

[1]- جلال الدين اليسوطي / إتقان البرهان في علوم القرآن / ج3 / ص101
6- الكشاف / ج1 / ص 192

[2] - ابن الجوزي ، أبو الفرج (508هـ - 597) / زاد المسير / ج 1 / ص 25

معرفة لفظاً والعامل فيه معنى المثل ، أو صفة له لأن تعريفه ذهني فهو معنى نكرة فيوصف بما توصف به على الأصح [1].

أي لم يؤدوا حقها و لم يحملوها حق حملها ، فشبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بحمار يحمل كتباً ، وليس له من ذلك إلا ثقل الحمل من غير انتفاع مما يحمله ، كذلك اليهود ليس لهم من كتابهم إلا وبال الحجة عليهم .

وهناك أمر آخر متعلق بما سبق ، وهو أننا حين نتأمل في هذا المثل نجده يضيف رصيداً آخر يصب في إثبات حقيقتهم المادية بعيداً عن أي تكلف ، فمن الواضح أن الآيات التي بين أيدينا حين خصتهم بهذا التشبيه ، قصَرت أثر التوراة عندهم على ثقل الوزن بالمعنى المادي وليس بمعنى ثقل الشعور بالأمانة حيث ساوت بينهم وبين الحمار بجامع عدم الإحساس بمقتضيات التكليف واستشعار معانيه !

النموذج الخامس :

قال تعالى : {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175)وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف : 175- 176]

ومناسبتُها للتي قبلها إثارة العبرة من حال أحد الذين أخذ الله عليهم العهد بالتوحيد والامتثال لأمر الله ، وأمده الله بعلم يعينه على الوفاء بما عاهد الله عليه في الفطرة ، ثم لم ينفعه ذلك كله حين لم يقدر الله له الهدى المستمر.[2]

والإيتاء هنا مستعار للإطْلاَع وتيسير العلم مثل قوله **{ وآتاه الله الملك والحكمة }** [البقرة : 251] .

ومعنى **{ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا }** : علمناه حجج التوحيد ، وفهمناه أدلته ، حتى صار عالماً بها **{ فَانْسَلَخَ مِنْهَا }** أي خرج من محبة الله إلى معصيته ، ومن رحمة الله إلى سخطه ومعنى انسلخ : خرج منها . يقال لكل من فارق شيئاً بالكلية انسلخ منه ، والانسلاخ حقيقته خروج جسد الحيوان من جلده حينما يُسلخ عنه جلده ، والسلخ إزالة جلد الحيوان الميت عن جسده ، واستعير في الآية للانفصال المعنوي ، وهو ترك التلبس بالشيء أو عدم العمل به ، ومعنى الانسلاخ عن الآيات الإقلاع عن العمل بما تقتضيه ، وذلك أن الآيات أعلمته بفساد دين الجاهلية[3].

---

[1]- ينظر : الألوسي / روح المعاني / ج20 / ص 443 , ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج15/ ص 80

[2]- ذهب كثير من المفسرين إلى أنها نزلت في رجل من الكنعانيين ، وكان في زمن موسى عليه السلام يقال له : بلعام بن باعُور ، وذكروا قصته , ومنهم من ذكر أنها لأمية بن أبي الصلت ، أو للراهب أبي عامر بن صيفي, والمهم أن العبرة تقتضي القياس على كل من هذا حاله بالعموم .

[3] ابن عاشور /التحرير والتنوير / ج 6 / ص12

وأتْبعهُ بمعنى لحقه غير مُفلت كقوله : **{ فأتبعه شهابٌ ثاقب }** [الصافات : 10] **{ فأتبعهم فرعون بجنوده }** [طه : 78] وهذا أخص من اتّبعه بتشديد المثناة ووصل الهمزة ، وفى هذا التعبير مبالغة فى ذم هذا الإنسان وتحقيره ، حيث جعل كأنه إمام للشيطان والشيطان يتبعه[1] ، بدليل قوله تعالى : **{ فكان من الغاوين }**، والمراد بالغاوين : "المتصفين بالغي وهو الضلال **{ فكان من الغاوين }** أشد مبالغة في الاتصاف بالغواية من أن يقال : وغوى أو كان غاوياً ، كما في سورة الأنعام : **{ قد ضَلَلْت إذاً وما أنا من المهتدين }** [الأنعام : 56] وقال ألوسي : " وهو من الذم بمكان ، ونظيره في ذلك قوله : وكان فتى من جند إبليس فارتقى ... به الحال حتى صار إبليس من جنده [2] "

وقوله **{ وَلَوْ شِئْنَا لرفعناه بِهَا }** لعظمناه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات **{ ولكنه أَخْلَدَ إِلَى الأرض }** مال إلى الدنيا ورغب فيها . وقيل : مال إلى السفالة .

{ ذلك مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بآياتنا فاقصص القصص } قال البيضاوي : " القصة المذكورة على اليهود فإنها نحو قصصهم [3] " .

وحاصل معنى المثل : أن المكذبين بآيات الله مع إيضاحها بالحجج والدلائل كالعالم الذي حرم ثمرة الانتفاع من علمه ، فهو لم ينظر في الآيات نظر تفكر وتدبر " فلم يكن حاصل نظره شيئاً علوياً ، وإنما قصر نظره إلى دونية الأرض ومتعلقاتها من الشهوات الفانية .

ولعل خير ما ينطبق عليه المثل بلا منازع هم اليهود الذين تنكروا لكل الآيات التي أنعمها الله عليهم، وقد شبههم الله تعالى في آيات غيرها صراحةً – كما مر – بأنهم كالحمار ، وهنا يصدق عليهم انسلاخهم الكامل من كل معنى تحمله الآيات ووقعها ، فكما كان الحمار لا يعاين من الأسفار إلا المشقة والثقل ، فهم كذلك هنا كالكلب دائم اللهث مع الانفصال عن دواعي السبب ، وكما أستلهم من هذا المثل إخبارنا بحقيقةٍ مهمة ، وهي الفارق الكبير بين الذي أوتي الآيات فأنكرها والذي لم يؤتها أصلاً من حيث النتيجة ، لأن هذا المنكر قد شُبِّهَ بالمنسلخ ، أي وكأنه حين تنكر للآيات وفضل عليها الإخلاد إلى الأرض ، قام بعملية كشط كامل ... ففي لحظة نزعه ثوب الإيمان تخلص معه من كل بقايا الفطرة التي تحمل الإيمان ، فصار لا يحمل فطرة مشوهة وحسب ، و إنما هو التجرد الخالص منها ، ومقتضى العدل أن يكون كذلك ، أي صار كمن يظهر على جوارحه أثر مما يعاينه الناس أنه بقية من دين أي دين ، ولكن هذا الأثر لا يكون في حقيقته إلا كلهاث الكلب فاقد الدواعي ، ثم هو بذلك صار مؤهلاً لمرتبة الغاوين الذين لا يتبعون الشياطين ، بل الشياطين هي التي تتبعهم !

---

[1] - - الألوسي / روح المعاني / ج 6 / ص 436
[2] - المصدر السابق / ج 6 / ص 436
[3] - البيضاوي / أنوار التنزيل / ج 2 / ص 336

نموذج أخير :

قوله تعالى في سورة البقرة : { **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ...** } **إلى قوله** { **...ويريكم آياته لعلكم تعقلون** } [البقرة : 67-73]

هذه القصة قد تفردت في هذا الموضع و لم تأت الإشارة إليها في أي سورة سوى البقرة ، وقد بدأت الآيات الكريمة الكلام عنها بأمر موسى لبني إسرائيل أن يذبحوا بقرة وجوابهم الذي فيه نقض للميثاق الذي أخذه الله عليهم بالطاعة لأنبيائه .

وتأتي هذه الآيات ضمن سياق طويل في الحديث عن اليهود يبدأ من الآية الأربعين بقوله تعالى {**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ..** } [البقرة : 40] و فيها يستهل الخطاب بذكر تفاصيل المنن التي امتن الله بها عليهم مرة بعد مرة ، وكيف قابلوها بالجحود والنكران ليأتي في نهاية هذه القصة التوصل إلى الحقيقة التي آلوا إليها من تفاعلهم السلبي مع المعجزات على كثرتها وهي صلابة قلوبهم وقسوتها .

تناقلت كتب المفسرين أكثر من رواية في حادثة ذبح البقرة[1]، وبعيداً عن الخوض في تفاصيلها التي أهملها القرآن ، أبقى مع حدث القصة في إطار الآيات الكريمة بما يخدم طرح الشخصية اليهودية من خلال المعجزات .

أول هذه القصة قوله تعالى : { **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فادارأتم فِيهَا** } قال الألوسي : "وإنما فكت عنها وقدمت عليه لاستقلالها بنوع آخر من مساويهم ، وهو الاستهزاء بالأمر والاستقصاء في السؤال وترك المسارعة إلى الامتثال ، ولو قدم لكان قصة واحدة وتوبيخاً واحداً [2] ".

وقد استُفتحت بقوله تعالى : { **... إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً** } أما بخصوص الأمر بذبحها فقد ورد خلاف [3] في كون الخطاب على العموم أم على التعيين ، فالقائلون بالعموم اتفقوا على أن قوله تعالى : {**إن الله يأمركم إن تذبحوا بقرة** } معناه أي بقرة شئتم [4] ، والذي أميل إليه – والله اعلم- أن الخطاب هنا على العموم ، لأنه الأقوى في ظاهر اللفظ ، وقد جاء في أكثر من رواية عن عبدالله بن عباس انه قال : لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأت منهم ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم [5].

---

[1]- وأوردها اختصاراً: أنه كان من بني إسرائيل شيخ موسر فقتله بنو أخيه ليرثوه وخرجوا على باب المدينة ثم جاؤوا يطالبون بديته فأمرهم الله إن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله (ينظر : الطبري / جامع البيان /ج1 ص337 , ابن عطية /المحرر الوجيز / ج1 ص161 , ابن كثير / تفسير القرآن العظيم ج1 ص109).

[2]- ينظر : الألوسي / روح المعاني / ج2 / ص 341

[3]- ينظر الخلاف مبسطاً مع أدلة كل فريق في التفسير الكبير للرازي / ج3 / ص (106 -108)

[4]- للنسفي لفته لطيفة يفول فيها : أمر بذبح البقرة دون غيرها لأنها أفضل قرابينهم ولعبادتهم العجل فأراد الله أن يهون معبودهم عليهم . (مدارك التنزيل / ج1 / ص 56) .

[5]- أورده الإمام الطبري بأسانيده / ج1 / ص338 , وكذا قاله أبوعبيدة والسدي ومجاهد وعكرمة وأبو العالية وكثيرون ... وقد نقل ابن كثير هذا القول عن ابن عباس كما أورده الطبري بأسانيده , وقال : إسناده صحيح , وقد رواه غير واحد عن ابن عباس (ينظر ابن كثير / ج1 / ص111)

وأول فعلٍ لهم أظهرته القصة ، هو قولهم لموسى عليه السلام : **{قالوا أتتخذنا هزواً }**، و **(قالوا)** استئناف وقع جواباً عما ينساق إليه الكلام فكأنه قيل فماذا صنعوا ؟ هل سارعوا إلى الامتثال أم لا ؟ فقيل : قالوا **...)** ، و أما (**الهزء**)[1] الذي يعطي معنى اللعب والسخرية فقد استعاذ منه نبي الله موسى عليه السلام عندما اتهموه به وفي ذلك بيان استحالة أن يأتي شيء منه أثناء تبليغ أوامر الله سبحانه وفعلهم هذا كبيرة تنم عن جهل وسفه ، فنفى عنه عليه السلام ذلك في صورة الاستعاذة استفظاعاً لاتهام اليهود ، لكن مع علمهم أن الأمر أخذ محمل الجد (**قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي .....)** جاءوا يطلبون أوصافا لها كعادتهم في التنطع والجدال والملاحظ من النظم القرآني أن استفسارهم جاء (بما) التي في الغالب يسأل بها عن الجنس وكان حقهم أن يقولوا : أيّ بقرةٍ هي أو كيف هي؟ لكنهم اختاروا هذه الطريقة في السؤال لإظهار أن ما أمروا به جاء على حال لهم يوجد بها شيء من جنسه فأجروه مجرى ما لم يعرف حقيقته [2] .

وفي قوله تعالى : { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا } تسجل الآيات تفصيل موقفهم من خلال مراجعتهم المتكررة لنبي الله موسى ، وكانوا في كل مره يسألون عن أوصاف جديدة ، ثم إن موسى عليه السلام كان يرد عليهم في كل مرة حتى حصرهم بدقة وصفها فلم يكن للأمر من مهرب ولا مناص ، فقالوا حينها : **{ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ }** وكأن ما جاء به موسى من عند ربه قبل ذلك لم يكن حقاً **!!**

ويمكن أن نفهم شيئاً آخر في قولهم **{ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ }**وهو أن اعتراضهم السابق على الأمر بذبح بقرة ، لم يكن سببه – والله أعلم – موضوع الذبح لبقرة أو غيرها ، ولكن منطق فهمهم الحسي والمغالي أراد أن لا يكون للأمر بساطته دون تعقيدات وتحديدات ، فعلى هذا الاعتبار فالأوصاف للبقرة عندما جاءت صار الأمر عندهم حقاً ، وقبله لم يكن كذلك ، وهذا صرفٌ للحقائق بيِّنُ التكلفِ مغالٍ في التنطع ، وكأن الله أراد لنا نفهم هذه الصورة قبل أن ينقل لنا بداية القصة كمقدمةٍ لمدار الحدث بعدها .

وقد علل بعض المفسرين والمحللين سبب مراجعة اليهود لأوصاف البقرة أنه – أي أسلوب المراجعة - اتباع لتقاليد وثنية سمعوها في طقوس وأساطير الشعوب ، ولعل هذا التعليل احتمال وارد ، وخاصةً تكلفهم الغريب في أوصاف مادية ليس لها أيُّ معنى ، فما فائدة لون البقرة إن كان أحمر أو أصفر؟**!** ولكن تعنتهم الغريب هذا ساهم في دفع شخصيتهم قدماً نحو إيغال أكثر في ارتباطات المادة .

و الأهم الذي أبرزه القرآن هنا بخصوص هذا الموقف هو صعوبة تقبل الأمر بالتسليم والطاعة ثم لما جاء **{ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ** [3] **}** ليدل على حال أخرى تخصهم ، فيكون المقصود أي ذبحوها في حال تقرب من حال من لا

---

[1]- الراغب /المفردات / ص 520

[2]- ينظر : البيضاوي / أنوار التنزيل / ج 1/ ص 339

[3]- جملة (وماكادوا يفعلون) تحتمل الحال والاستثناء , والأول أظهر عند أكثر المفسرين , لأنه أشد ربطاً للجملة .

يفعل ، والمعنى أنهم ذبحوها مكرهين أو كالمكرهين لما أظهروا من المجادلة والمماطلة ، وتعليل ذلك على عدة أقوال أوردها ابن جزي موجزة حيث يقول :" وما كادوا لعصيانهم وكثرة سؤالهم .. أو لعلة وجود تلك الصفة حيث روى أنهم شددوا فشدد الله عليهم [1] "

وأيضاً فمن الممكن أن يكشف الله القاتل ويظهر الحقيقة بدون اللجوء إلى هذه الطريقة ولكن استخدام شيء محسوس ومجسّم بصورة كهذه ، فيه دلالتان :

الدلالة الأولى : جاءت درساً قوياً في التذكير بالبعث بطريقة غير مألوفة ، والإقرار بقدرة الله على بعث الروح من علاقة تظهر بين جزء بقرةٍ ميتة وإنسان ميت ، وحكمة الله معهم هنا أنه سبحانه اختار أن يردهم لصورة تفحمهم وتقودهم إلى الاستسلام بعيداً عن التشكيك والتردد .

الدلالة الثانية : وهي - فرع من الدلالة الأولى- أن هذه الصورة تشدهم ليقين إدراك العالم من غير الحسابات المعروفة وفق سنن الله الظاهرة فقط ، فليس دائماً يمكن فهم العلاقات وتفسيرها بمؤثرات محسوبة ، وليس لكل ظاهرة تفسير مادي مقنع ، فلا يمكن بحال إيجاد علاقة بين جسمين ماديين في إنتاج شيء روحي خارج حيز المادة وبعد ، فهذه المعجزة الظاهرة هي ضربٌ في صميم وأعماق الشخصية اليهودية ، وهي كذلك حجة عليهم في مواجهة منطق فهمهم السقيم ...

وأيضاً ، فما يلفت النظر هنا أمرٌ مباشرٌ في تحديد علاقة الشخصية اليهودية بالمعجزات ، أخبر الله تعالى عنه فوراً بعد الانتهاء من هذه القصة ، وهو اعتبارها نقطة تحول جديدة في القسوة القلبية، وكأن التفاعل السلبي الذي أبداه اليهود مع هذه المعجزة الظاهرة ، قدمهم خطوات سريعة في تدهور حالة قلوبهم إلى درجة أشد قسوة من الحجارة يقول تعالى : { **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } [البقرة : **74**] .

وأرى أن هذه الآية تعد مفصلاً حقيقياً بين مراحل تطور الشخصية اليهودية مع المادية ، بدليل أن القسوة القلبية لها علاقة مباشرة وملموسة في موضوع الاستجابة لدواعي المادة ، وقد رتب الله قوله (**ثم**) في قوله (**ثُمَّ قَسَتْ** ..) على قضية جوهرية في صميم التصور والعقيدة وهي رد فعلهم السلبي اتجاه المعجزات كما هو ظاهر ، وهذا الأمر على خطورته يعد من أوسع المنافذ التي تدخل القسوة إلى القلب ، وكأن وصول سلبية التفاعل مع كل هذه المعجزات المتتابعة التي قدمها لهم موسى عليه السلام بصورة لم يعهد لها مثيل لقوم غيرهم ، أهّلهم لمرحلة جديدة في شخصيتهم هي مرحلة (القسوة القلبية) بالصورة التي وصفها القرآن ، وأقدم لفتة رائعة للعلامة دراز -

[1]- ابن جزىّ , محمد بن أحمد بن جزي ّ الكلبي (741 – 292) هج \ التسهيل لعلوم التنزيل \ دار الفكر / ج ا \ ص 51

تساعد في التدليل على ما أقول- حيث يعتبر الشيخ آية { **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ..** } هي حلقة الوصل بين المرحلتين (ماضيهم وحاضرهم) اللتين عرضتْهُما سورة البقرة بخصوص بني إسرائيل ، كما نبه إلى استخدام لفظ (فهي) بدلاً من (فكانت) لغرض بياني من خلال الجملة الاسمية التي أفادت الاستمرارية [1].
وأختم مطلبي بهذه الآية الكريمة التي بين أيدينا ، كدليل واضح على سوء ما جنته الشخصية اليهودية على نفسها حين تعامى قلبها عن كل المعجزات والنعم فاستحقت الجزاء العادل بتصلبٍ قلبيٍّ حاد فاق في قسوته قسوة الحجارة .

المطلب الثاني : المادية اليهودية والسِّحر

"السحر" من ظاهرة لتعليل المعجزات إلى بديل لكلام الله !

أصل السِّحْر كما جاء في تهذيب اللغةُ : " الخديعةُ[2] "، ويقول الراغب : " السحر يقال على معانٍ : الأولُ الخداع وتخييلات لا حقيقة لها ، نحو ما يفعله المشعوذ ، بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يد ... والثاني استجلاب معاينة الشيطان بضرب من التقرب إليه ، كقوله تعالى : {**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222)** } [النمل : 221-222] ، وعلى ذلك قوله تعالى : {**.. وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (102)** } [البقرة : 102] [3] " .

قال ابن كثير : "وفسره الجمهور بأنه خارق للعادة يظهر من نفس شريرة بمباشرة أعمال مخصوصة والجمهور على أن له حقيقة وأنه قد يبلغ الساحر إلى حيث يطير في الهواء ويمشي على الماء ... والفاعل الحقيقي في كل ذلك هو الله تعالى و لم تجر سنته بتمكين الساحر من فلق البحر وإحياء الموتى وإنطاق العجماء وغير ذلك من آيات الرسل عليهم السلام .. [4] " .

وللمفكر العقاد لفتة يقول فيها : " وقد شوهد منذ القدم أن طبيعة السحر[5] غير طبيعة العبادة في أساسها لأن السحر منوط أبداً بالأمور الخبيثة والوسائل الدّنسة والنفايات التي تعاف وتنبذ في الخفاء ، و لم تخلُ العبادة قط من

---

[1]- يقول رحمه الله : "وأراد القرآن أن يصل حاضرهم بماضيهم فانظر كيف وضع بينهما حلقة الاتصال في هذه الآية التي ختم بها القسم الأول{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ..} فقوله من بعد ذلك كلمة حددت مبدأ تاريخ القسوة , ولم تحدد نهايته , كأنها بذلك وضعت عليه طابع الاستمرار وتركته يتخطى العصور والأجيال في خيال السامع حتى يظن أن الحديث قد أشرف به على العصر الحاضر, = ثم لم يلبث هذا الظن أن ازداد قوة , بصيغة الجملة الاسمية في قوله (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ) دون أن يقول : فكانت كالحجارة ... " (لمزيد من الإطلاع حول هذا الموضوع : ينظر في كلام الشيخ دراز حول نظريته المعروفة : (نظام عقد المعاني في القرآن) التي طبق عليها سورة البقرة في كتابه (النبأ العظيم) ص 180) .

[2]- الأزهري / تهذيب اللغة / ج2 / ص30

[3]- الراغب / المفردات / ص 232

[4]- ابن كثير : تفسير القرآن العظيم

[5]- ويعرف الشوكاني السحر أنه : " ما يفعله الساحر من الحيل والتخيلات التي تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء ...إلخ , وهو مشتق من سحرت الصبيّ : إذا خدعته . وقيل : أصله الخفاء ، فإن الساحر يفعله خفية . وقيل أصله الصرف؛ لأن السحر مصروف عن جهته . وقيل أصله الاستمالة؛ لأن من سحرك ، فقد استمالك.....و السحر الأخذة ، وكل ما لطف مأخذه ودقَّ ، فهو

توسل إلى الخير رجاء في كرم المعبود ، وقلما تخلو من (تطهير) بنوع من أنواع الطهارة ، يناقض وسائل السحر الخبيث ، فكأنما فرق الناس بين العبادة والسحر عندما فرقوا بين الأرباب المرجوة والأرباب المرهوبة فاتخذوا العبادة لأرباب الخير والمحبة واتخذوا السحر لأرباب الشر والبغضاء [1] " .

ولا ينكر أحد ممن درس التاريخ اليهودي تعامل اليهود الواسع مع قضايا السحر ، وحتى لا يبقى حكمنا عاماً ، أذكر على سبيل من الفرق اليهودية المشهورة (القبالا) أو (القابلة) وهي فرقة أو منظمة أو هيئة تعود إلى القرن الأول الميلادي ومعناها : القبول أو التلقي للرواية الشفوية المعزوة إلى موسى ، ... والقبالا تعلم جميع المعاني الرمزية لتجسيم الله ،وهي قائمة في أساسها على التنجيم السحري، وقد تعاطاه الكثير من اليهود وسموا (بالحكماء) يقول أندريه شوراكي : " اعتاد اليهود تنفيذ كل كلمة وكل حرف صوتي وكل حرف علة في كتابهم المقدس بالجملة وضخامته ، وجعلوا من هذا النوع من الدراسة الألسنية طريقة صوفية باطنية مغلقة ، تُوّجت بالطريقة القبلية (Gabbla) شبه السحرية [2] "

وهناك الفِرق التي يطلق عليها (البعلثامية) تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي ، وتَستمد من القبالا الغيب والتدجيل ، ومعنى البعلثامية : القدرة على إثبات المعجزات [3] .

وإذا انتقلنا من الفرق إلى الفكر اليهودي نفسه ، كما هو موجود في التلمود مثلاً ، فالمطالعون للتلمود يجدونه يمتليء بطقوس السحر والشعوذة والعرافة ، و الأرواح الشريرة والشياطين والعفاريت والجنيات من ذرية آدم .... وهؤلاء يدعون معرفة أحوال المستقبل باستراق السمع في السماء ويضرب لهم مثلاً ب (الرجال الذين يلعبون الحيل المنحرفة) [4]

وقال ساحر فرنسي كبير : إن التلمود هو الكتاب الأساسي لكل أنواع السحر [5]

والعرافة من الأعمال المفضلة لدى الحاخامات ، ويذكرها التلمود كثيراً ، ويزعم الحاخامات أن إبراهيم عليه السلام كان يعرف العرافة لأنه أعطى بعض الهدايا لأبنائه كانت فيها قوة السحر وكان هو نفسه يعلق حول عنقه عقدا ويتوسطه حجر يشفي كل من رآه !! [6]

سحر . وقد سحره يسحره ، سحراً هل له حقيقة أم لا؟ فذهبت المعتزلة ، وأبو حنيفة إلى أنه خدع لا أصل له ، ولا حقيقة . وذهب من عداهم إلى أن له حقيقة مؤثرة " (الشوكاني / فتح القدير / ج 1 / ص194) .

[1] - عباس محمود العقاد / الله / تحت عنوان : أصل العقيدة / ص7

[2] - Andre' Chouraqui : Lavie Quotidienuedes Hebrax au Temps p.164 / Paris 1980 , نقل عنه : سهيل ديب / التوراة بين الوثنية والتوحيد / دار النفائس / بيروت / لبنان / ط2 / 1985م / ص 22

[3] - ينظر : شفيق مقار / السحر في التوراة / ص 77 نقلاً عن : الفرق البعلثامية في المانيا ص(214-215)

[4] - خليل حسن جابر / بنو إسرائيل والإفساد الأول والثاني / دار المحجة البيضاء / ص 76/ ط2/عام 2003 , نقلاً عن : التلمود : تاريخة وتعاليمه / ص76

[5] - ينظر : المصدر السابق

[6] - ينظر : د. روهانج / ترجمة حنا نصر / الكنز المرصود في قواعد التلمود / ص19 / مطبعة المعارف / 1899م , من التلمود (نشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية بالقاهرة) / 1967م / ص7 , سعد المرصفي / الرسول واليهود وجهاً لوجه / ج1 / ص351

والعجيب أنهم لم يجدوا لهذه الألعوبة السخيفة إلا إبراهيم عليه السلام المعروف بصدق تسليمه وتوكله على الله ، ولا أحال مقطع الآيات القرآنية في سورة الشعراء[1] الذي يحكي محاجّة إبراهيم لقومه ، إلا وكان في التوراة شيء عنه ، أو يشبهه ، فالتوراة بالتأكيد لم تذكر إبراهيم عليه السلام لتخبرنا أنه كان يعلق التمائم والتعويذات السحرية ، وإنما شيء يتعلق مباشرة بمعنى التوحيد والتسليم الخالص !

ولئن أخبرنا الله تعالى عن اليهود أنهم في عهد موسى زاغوا فأزاغ الله قلوبهم في قوله : **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }** [الصف : 5] فهم في عهد سليمان - وبتحديد أدق ، بعد وفاته- قد انتهى آخر عهد لهم بالتوراة كدستور ، بدليل أن الله أخبر أنهم استبدلوا بها تعاويذ وتمائم سحرية [2] .

وليس من شك أن سليمان عليه السلام قد أقام فيهم حكم التوراة ، وحتى بعض الادعاءات التاريخية التي تقول أن التوراة قبل عهد سليمان قد فُقد منها الكثير ، فهذا لا يغير شيئاً من مضمون حكم سليمان بدين الله وأحكامه ، وهو النبي الموحى إليه ، وكذلك قريب عهد بزبور أبيه داوود عليهما السلام ، فهم بقوا محتفظين بفكرهم التي اهموا بها موسى عليه السلام بالسحر ، وأظهروها سلوكاً حقيقياً بعد وفاة سليمان عليه السلام ، حيث صار دستورهم الذي ابتدعوه من تمائم شيطانية هو إمامهم ونهجهم في طريقة ممارستهم لشؤون حياتهم ، ففي معنى (اتبعوا) ذكر المفسرون[3] : أي اقتدوا به إماماً ، أو فضلوا ، لأن من اتبع شيئاً فضّله ...

قال تعالى : **{ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) }** البقرة ، والضمير لبني إسرائيل لا لعلمائهم فقط، **وقوله { مِنْ عِنْدِ**

---

[1]- و مقطع الآيات هو : { قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) } الشعراء

[2] يقول د . فاروق إسماعيل في كتابه: [الوثنية مفاهيم وممارسات] : "... والسحر أنماط سلوكية غامضة , وتقوم الممارسات السحرية على أداء بعض العمليات وفق تكتيك معين , ويستعان في هذه لعمليات ببعض العناصر كالأفعال والحركات والكلمات المنظومة أو المكتوبة أو كليهما , ويستخدم السحرة التمائم والتعاويذ ,ومكمن اللغز في أنهم يستخدمون كلمات سحرية يرافقها اعتقاد في هذه الكلمات تشير إلى دلالات متعلقة برموز.. " (د . فاروق إسماعيل / الوثنية مفاهيم وممارسات / ط85 / ص 123- 124) .

[3] ومنهم : البيضاوي / أنوار التنزيل / ج 1 /ص 140 , القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج 2 / ص 49 , أبوحيان / البحر المحيط / ج 1 / ص 425) .

اللَّهِ) متعلق ب (جاء) أو بمحذوف وقع صفة للرسول لإفادة مزيد تعظيمه إذ قدر الرسول على قدر المرسل { **مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ** }، وحمل بعضهم (ما) على العموم لتشمل جميع الكتب الإلهية التي نزلت قبل[1] .

والنّبذ في قوله {**نَبَذَ فَرِيقٌ** } الرمي بالذمام ورفضه ، وعند الراغب : "إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به [2] " والمراد به القرآن ، أو التوراة وهو الأقوى ، لأن مخالفتها والكفر بما أخذ عليهم فيها نبذ ، وهذا ما ذهب إليه الرازي [3]والألوسي والبيضاوي ، وقدمه الزمخشري ، وأيده في ذلك التقديم ابن عاشور ، وهو ما أميل إليه [4].

وقوله تعالى : {**وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ** } مثلٌ ، لأن ما يجعل ظهرياً فقد زال النظر إليه جملةً

وفي معنى قوله :{ **كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** }وهم بذلك شبهوا بمن لا يعلم ، لأنهم فعلوا فعل الجاهل ، فيجيء من اللفظ أنهم كفروا على علم أنه كتاب الله لا يدخلهم فيه شك ، يعني أن علمهم بذلك رصين ، ولكنهم كابروا وعاندوا ونبذوه وراء ظهورهم ، مثل لتركهم وإعراضهم عنه ، مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه [5] ، وعند الإمام الطبري : " كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علماء اليهود - فنقضوا عهد الله بتركهم العمل بما واثقوا الله على أنفسهم العمل بما فيه - لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه، وهذا من الله جل ثناؤه إخبار عنهم أنهم جحدوا الحق على علم منهم به ومعرفة، وأنهم عاندوا أمر الله فخالفوا على علم منهم بوجوبه عليهم[6] " .

وقال ابن عطية :" الضمير في (يعلمون) عائد على بني إسرائيل باتفاق ، ومن قال إن الضمير في (علموا) عائد عليهم خرّج هذا الثاني على المجاز ، أي لما عملوا عمل من لا يعلم كانوا كأنهم لا يعلمون ، ومن قال إن الضمير في (علموا) عائد على (الشياطين) أو على (الملكين) قال : إن أولئك علموا أن لا خلاق لمن اشتراه وهؤلاء لم يعلموا فهو على الحقيقة [7] "

وقوله {**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ** } عطف على(نبذَ) في الآية السابقة ، فهم نبذوا كتاب الله [8]، واتبعوا كتب السحر التي قرأوها ، أو تتبعها الشياطين من الجن ، أو الإنس ، أو منهما [9]، ومن المفسرين من اعتبر أنه يعود على

---

[1] ينظر: الألوسي / روح المعاني / ج1/ ص433

[2] الراغب / المفردات / ص 482

[3] حيث قال الرازي : " وهذا هو الأقرب ، لوجهين ، الأول : أن النبذ لا يعقل إلا فيما تمسكوا به أولاً وأما إذا لم يلتفتوا إليه لا يقال إنهم نبذوه ، الثاني : أنه قال : { نَبَذَ فَرِيقٌ مّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب } ولو كان المراد به القرآن لم يكن لتخصيص الفريق معنى لأن جميعهم لا يصدقون بالقرآن ، فإن قيل : كيف يصح نبذهم التوراة وهم يتمسكون به؟ قلنا : إذا كان يدل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لما فيه من النعت والصفة وفيه وجوب الإيمان ثم عدلوا عنه كانوا نابذين للتوراة " .

[4] ينظر آراؤهم : الزمخشري / الكشاف / ج1 / ص115 , ابن عطية / المحرر الوجيز / ج 1/ ص 124 , الألوسي / روح المعاني / ج1/ ص433

[5]- ينظر : ابن عطية / المحرر الوجيز / ج 1 / ص 124

[6]- الطبري / جامع البيان / ج 2/ ص 426

[7]- ابن عطية / المحرر الوجيز / ج 1/ ص 127

[8]- قال أبو حيان : " أضاف الكتاب إلى الله تعظيماً له ، كما أضاف الرسول إليه بالوصف السابق ، فصار ذلك غاية في ذمهم ، إذ جاءهم من عند الله بكتابه الصدّق لكتابهم .. " (البحر المحيط / ج 1 / ص 425) .

[9]- للمزيد , يراجع : صور لتمائم سحرية استخدمها اليهود منذ عصور قديمة , في كتاب : السحر في التوراة / شفيق مقار / ص254+ ص 298

اليهود في عهد سليمان ومنهم من رده إلى اليهود في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : يعود على جميع اليهود . والجملة من قوله : واتبعوا ، معطوفة على جميع الجملة السابقة من قوله : ولما جاءهم إلى آخرها ، وهو إخبار عن حالهم في اتباعهم ما لا ينبغي أن يتبع ، قال أبوحيان : وهذا هو الظاهر[1]

وقد أظهر البقاعي علاقة اتباعهم للسحر مع نبذهم لكتاب الله ، حيث قال : "ولما كانت سنة الله جارية بأنه ما أمات أحد سنة إلا زاد في خذلانه بأن أحيى على يده بدعة أعقبهم نبذهم لكلام الله أولى الأولياء إقبالهم على كلام الشياطين الذين هم أعدى الأعداء فقال تعالى : { **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو** } أي تقرأ أو تتبع ، وعبر بالمضارع إشارة إلى كثرته وفشوه واستمراره [2] "

وقوله تعالى :{ **على مُلْكِ سليمان** } أي عهده ، وقد ذكر المفسرون ما مفاده : ان الشياطين كانوا يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب ، ويلقونها إلى الكهنة وهم يدونونها ويعلمون الناس ، وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام حتى قيل : إن الجن يعلمون الغيب ، وأن مُلْكَ سليمان تَمَّ بهذا العلم ، وأنه تُسَخَّرُ به الجن والإِنس والريح له ، (وَمَا كَفَرَ سليمان) تكذيب لمن زعم ذلك ، قال القرطبي : "و لم يتقدم في الآية أن أحداً نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولكن لما كان السحر كفراً صار بمترلة من نسبه إلى الكفر [3]

{**وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا** }باستعماله ، قال ابن حجر : وقد استدل بهذه الآية على أن السحر كفر ومتعلمه كافر ، وهو واضح في بعض انواعه ... وهو التعبد للشياطين او الكواكب ....! [4] " .

وقال ابن عاشور : "إذا كان المراد من الشياطين أحبار اليهود لأن هذا الحكم حينئذ من جملة أحوال اليهود لأن مآله واتبعوا وكفروا وما كفر سليمان ولكنه قدم نفي كفر سليمان لأنه الأهم تعجيلاً بإثبات نزاهته وعصمته ولأن اعتقاد كفره كان سبب ضلال للذين اتبعوا ما كتبته الشياطين فلا شك أن حكم الأتباع وحكم المتبوعين واحد فكان خبراً عن اليهود كذلك " [5] .

وبعد جولة سريعة مع المفسرين عبر الآيات الكريمة ، رأينا أن اليهود حين بدأوا طريقهم بإنكار المعجزات ، واتهام الأنبياء بالسحر ، أكملوا طريقهم إلى نبذ كتاب الله ، ويمكننا أن نفهم أمراً واضحاً يخص الشيء الذي اختاره اليهودي كبديل عن كتاب الله الذي نبذه ، والآية تخبرنا أن اليهودي يعرف ماذا يتبع ، مثلما عرف قبلاً ماذا ينبذ، فظاهر أمره وكأنه لا يعلم ، لكنه يعلم ، وهو حين كان يعلم قام بعمليتين تحقق فيهما نبذ شيء واتباع آخر ،

---

[1] - ينظر : أبو حيان / البحر المحيط / ج 1 / ص 425)
[2] - البقاعي / نظم الدرر / ج 1 / ص150
[3] القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج2 / ص 43
[4] - ابن حجر العسقلاني / فتح الباري في شرح صحيح البخاري / ج10/ ص 224
[5] - ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 1 / ص 304

فاختار طريق كفره باتباع سحر الشياطين ، وهو يعلم كذلك أنه باع واشترى ... إذ لم يتوقف الأمر على صحائف سحرٍ شيطانية استبدلوا بها كتاب الله ، ولكن مبدأ شراء دنيا بآخرة **{ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }** [البقرة : 102] .

المبحث الرابع : المادية اليهودية في نظرتها للحياة الآخرة :

المطلب الأول : تصور اليهود لعقيدة البعث والحساب وفق ما أظهره فكرهم

من المسلم فيه أن التوراة الحقيقية التي نزلت على موسى عليه السلام اشتملت على عقيدة البعث والحساب واليوم الآخر تماماً وفق الحقيقة التي أقرها القرآن الكريم ، واهتم بها كثيراً على اعتبار أنها ركن أصيل يكمل مفهوم وحدانية الله وعدالته [1].

والسؤال المطروح هنا كيف تعامل كتبة التوراة مع فكرة البعث بعد الموت ؟

لدى تتبعي لهذا الموضوع رأيت كثيراً من الكُتّاب يذكر أن التوراة قد خلت تماماً من أي تصور لعقيدة اليوم الآخر والحساب والعقاب ، إلا أن الأدق والأقرب إلى الصواب القول بوجود بعض الشذراتٍ في أسفار محدودة تشير إشارات بعيدة لهذه العقيدة ، ولعل ما عليه التوراة الحالية من آخر ما استقر عليه الفكر اليهودي اليوم هو ما دعا إلى هذا التعميم .

ومع ذلك ، فيكاد الباحثون - بالرغم من عشرات النصوص التي تذكر الجنة والفردوس – يتفقون على وصفها جميعاً كبساتين وحدائق طبيعية وعادية جداً كتلك التي عند الملوك ، وليس من السهولة أن نعثر في كل صفحات التوراة التي بين أيدينا اليوم على إشارة صريحة تعتبر من عقيدة أو تصور لوجود جنة سماوية ينتهي إليها مصير

[1]- يقول الأستاذ العقاد : " إن مسألة الحياة بعد الموت مسألة بحث وتفكير وليس قصارها أنها مسألة اعتقاد وإيمان , فالعقل لا يخرجها من متناول بحثه وأصحاب العلم التجريبي أنفسهم لا يملكون من أسانيدهم العلمية ما يسوغ لهم إغلاق هذا الباب , لأنهم لم يحصروا قط طبيعة الحياة ولم يثبتوا قط أنها وليدة المادة الصماء , فليس لهم أن ينقضوا ويبرموا في طبيعة شيء ليس بالمحصور في علمهم وليس مقطوعة لديهم أصل تكونه وغاية مصيره " (عباس محمود العقاد / الفلسفة القرآنية / ص173 / طبعة القاهرة / 1947م).

الصالحين كثواب لحسن أعمالهم ، حتى كتلك الجنة التي تخيلها دلمون لنهاية أوتوبابشيم جد جلجامش حسب أسطورة الطوفان السومرية ![1]

وقد جاء في الإصحاح الثالث من سفر الجامعة عبارة تقطع بأن اليهود لا يعرفون جنةً ولا ناراً ولا خلوداً بعد الموت ، تقول : " لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة ، لأن كليهما باطل وحادثة واحدة لهم ، موت هذا كموت ذاك ، ونسمة واحدة للكل ، فليس للإنسان ميزة على البهيمة لأن كليهما باطل يذهب كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما ، فرأيت أن لا شيء خير من أن يخرج الإنسان بأعماله لأن ذلك تصيبه ، لأنه من يأتي به ليرى ما سيكون بعده[2] " ؟!

ويؤكد الباحث Arther Hertzberg أن الكتاب المقدس نفسه يعد الحياة الدنيا وحدها هي عالم الإنسان ، وليس هناك اعتقاد بعد ذلك في بعث ، وجنة ونار [3].

وقد نجد إشارة هنا أو هناك مثل القول بأن (الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد) ، أو الحديث عن وجود جب في الأرض السفلية ونار يهوي إليها العصاة ولا يرجعون منها ، ولكن هذه الإشارات عابرة ، قد تكون نهايات ما بقي من الحديث عن الموضوع مما لم تطله أيدي المحرفين عبر مراحلهم المتعاقبة ، أو قد يكون السبب في إبقائها حُسْنُ استغلالها اتجاه (الغوييم) .

أما هذه الشذرات فتقتضي الأمانة العلمية نقلها- وإن كانت هي الأُخرى ستصب في خانة الحجة عليهم إثباتاً للتزوير الحاصل في حقائق البعث – علنا نفهم منها صورة أقرب لما عناه الفكر اليهودي في أسلوب طرحه وتعامله مع هذه التصورات :

أولاً : مخلّفات الفكر اليهودي عن البعث في العهد القديم :

جاء في سفر إرميا وسفر دانيال ما يشير إلى قيام الأموات من التراب ودخولهم إما الجنة وإما النار ، ومن ذلك قوله :" كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى النار والى الازدراء الأبدي [4] " .

وينهي دانيال عرضه للتاريخ عن طريق الرؤى بالحديث عن نهاية العالم ويقول : " انه سيستيقظ الراقدون في تراب الأرض ، وسيعيشون حياتهم الأبدية ، بعضهم ستكون حياتهم حياة عار وازدراء أبدي " (إصحاخ12:2) و "... ستكون حياة البعض وهم الفاهمون مضيئة كالكوكب إلى الأبد " (إصحاح12:3) [1].

---

[1] - تراجع هذه النتيجة : د.سعد الدين صالح / العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية / ص314

[2] - ينظر : د.أحمد لطفي عبد السلام / جذور العنف والعنصرية في الفكر الديني اليهودي وامتداده الى الدولة الاسرائيلية / ص55- 59 / المكتبة الاكاديمية / القاهرة / ط2002

[3] - Judasim / p. 205 , نقل عنه : د. أحمد شلبي / اليهودية / ص 205

[4] - سفر دانيال / إصحاح (12:2)

كذلك نرى عند أشعيا في الإصحاح الرابع والعشرين لفتة إلى يوم القيامة وبعض علاماتها مثل غيـــاب الـــشمس والقمر [2] ، وفي الإصحاح 26 من نفس السفر : " تحيا أمواتك ، تقوم الجثث ، استيقظوا يا سكان التراب .. [3] " و نحو ذلك في سفر أيوب حيث يرد إشارة للبعث والحياة بعد الموت (إصحاح 33:3)، ومن الجدير بالذكر أن هذا السفر يصور الإله بصورة سامية ، غير تلك التي عهدناها في نصوص العهد القديم ، فهو الإله القادر المسيطر على مقدرات الكون يصير الأمور بحكمته التي تتعالى عن حكمة البشر (11:7-9) ، ولعل هذا يفسر بقاء شيء من نصوص البعث فيه ، وهو عدم اكتراث محرفوا التوراة نوعاً ما بإقحام تفاهاتهم في هذا السفر ، لكونه يحكي قصة ليس لها اعتبارات مهمة في مجال عملهم .

وإذا أخذنا من طقوسهم [الشيماع] وهو أهم قسم من أقسام الصلاة ، الموجود في سفر التثنية ، وكلمة (شماع) أي (اسمع) هي أول كلمة من آية التوحيد عند الإسرائيليين : " اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا الرب واحد " تثنية (4:6)

وما يهمنا هنا هو القسم الثاني من الصلاة المأخوذ من التثنية (11:13-21) الذي يذكر وعد الله تعالى بمكافأتهم وبإطالة حياتهم عند إتمام وصاياه ، وبالعكس إذا ارتكبتا المعاصي و لم نطع أوامره ويكرر شيئاً من القسم الأول [4].

ثانياً : عقيدة البعث بين التوراة والإنجيل :

إن كل باحث أو متمعن في الكتاب المقدس على صورته الحالية يجد هناك عدة مظاهر يبدو من خلالها التناقض بين التوراة والإنجيل (العهد القديم والجديد) حيث يذكر الإنجيل أحيانا أن الجنة تقع في السماء وما تسمى بملكوت السموات الذي يُختَطَف إليها الأبرار والقديسون كما ورد في رسالة بولس الثاني إلى أهل كورينتوس : " أعرف إنسانا في المسيح قبل أربعة عشر سنة في الجسد أم في خارج الجسد لست اعلم الله يعلم اختطف هذا إلى السماء الثالثة ، انه اختطف إلى الفردوس ... " الخ (رسالة بولس الثانية 12:2)

أما الحال في التوراة فمختلف .

وقد يكون السبب هو ما ذكره باحثون كثيرون[5]، من أن الواقف وراء هذا الاختلاف هو أن اليهودية تهتم بالأعمال ولا تعنى بالإيمان ، وهي في جوهرها أسلوب حياة لا عقيدة تعتقد ، وهي في هذا تختلف عن المسيحية التي تعنى بالإيمان وتجعله يفوق العمل الصالح ، فالاتجاه الخلقي عند اليهود في التصرفات اليومية أهم من الاعتقاد

---

[1] - نقل عن هذه الأسفار : د.سعد الدين صالح / العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية / ص314

[2] - ينظر : د. رفقي زهران / قصة الأديان / ص59

[3] - نقل عن هذه الأسفار : د . محمد خليفة / ظاهرة النبوة الإسرائيلية / ص 08 – 81 , وكذلك : د. عبد المجيد همو / كيف نشأت اليهودية / ص 39

[4] - للمزيد حول هذه الطقوس ينظر : د. حسن ظاظا / الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه / ص175 / قسم البحوث والدراسات الإسلامية / ط1971

[5] - يذكر د. أحمد شلبي هذا الرأي نقلاً عن كتاب : أديان العالم الكبرى / لخصها عن الإنجليزية : حبيب سعيد / ص88-89

السليم ، وتختلف اليهودية عن المسيحية كذلك في مجال تفكيرها فمجال اليهودية ليس فيما وراء هذا العالم ، ذلك أنهم يرون أن الإنسان الذي يموت على هذه الأرض لن يستطيع أن يقوم ، وإنما مجاله الأوحد هو هذا العالم الحاضر[1] " .

وأرى أن موضوع [الحياة العملية] البعيدة عن الغيبيات - كما افترضها العقل اليهودي - هي صورة تقف في صالح الادعاء بغياب أفق اليهودي عن إدراك المعنويات ، ولأن الفكر اليهودي قد وجد المجال أكبر لعملية تغيير ملامح البعث في التوراة عنها في الإنجيل - مع أنه لا يُنكر أن لليهود في تزوير الإنجيل النصيب الأوفر - فإن شخصية اليهودي تظهر من خلال كتابات العهد القديم ، لذلك نجد فنّ إخفاء الحياة الآخرة قد أبدع فيه اليهودي بالصورة التي رأيناها مغايرة لما هي في الإنجيل..

ومن ثم لا نجد من بين فِرَقِ اليهود الشهيرة من يؤمن باليوم الآخر على الوجه الذي يقرره الإسلام ففرقة الصدوقيين مثلاً تنكر قيام الأموات ، وتعتقد أن عقاب العصاة وثواب المتقين إنما يحصل في حياتهم [2].

ولكن هناك بعض الفرق اليهودية[3] أثبتت البعث بطريقة أخرى وهي فرقة الفريسيين التي صورت البعث تصويراً دنيوياً فقالت إن الصالحين من الأموات سينتشرون في هذه الأرض ليشتركوا في ملك المسيح الذي سيأتي في آخر الزمان لينقذ الناس من ضلالهم ويدخلهم جميعاً في ديانة موسى [4] .

ويذكر الدكتور عوض الله حجازي في توضيح ذلك أن اليهود يعتقدون في ظهور المسيح الذي سيأتي ويخلصهم من الأسر والتشرد والاستضعاف ويقيم لهم دولتهم ويعيد لهم ملك داوود وسليمان ويعيد بناء الهيكل ، وعليه فالحياة الأخرى هي الحياة التي ستعقب ظهور المسيح المنتظر من استقرار وهدوء وانتصار لهم على الأمم الأخرى بعد حياة الشقاء والتعاسة [5] .

كما يعلق د. عمرو وفيق في هامش تحقيقه لكتاب الحسام الممدود[6] أن ما عنته فرقة الفريسيين بالتحديد هو بعثٌ سيحصل في الحياة الدنيا ، فمهما يكن من خلاف بين هاتين الفرقتين فإنهما يتفقان على إنكار اليوم الآخر ...[1] .

---

[1]- Berry : Relegions of the World p.35 نقل عنه : د. أحمد شلبي / مقارنة الأديان / اليهودية (1) / ص205

[2]- فرقة الصدوقيين يسمون بالعبرية (صدوييم) يمتازون بما يلي :
- أنها لا تؤمن بقيامة الأموات من القبور و لا تؤمن بالحياة الأبدية للبشر بأفرادهم وأشخاصهم كما كانوا في الدنيا , وترفض بالتالي الثواب والعقاب في الآخرة , و تنكر وجود الملائكة والشياطين , و تنكر القضاء والقدر , و تؤمن بقدسية العهد القديم ولا تؤمن بالتلمود ونحوه ...
هذه الفرقة تعتبر من عقيدة الخاصة والمثقفين والطبقة الأرستقراطية (حسن ظاظا / الفكر الديني الإسرائيلي /ص26, صابر طعيمة / التاريخ اليهودي / ص277).

[3]- وقد قارن الدكتور احمد السوسة بين عقائد السومريين والبابليين وغيرهما في إنكار اليوم الآخر وبين عقائد اليهود , فوجد ترابطا بينهما . (ينظر: د. احمد سوسة / العرب واليهود في التاريخ / ص191-195) .

[4]- د. عبد الواحد وافي / الأسفار المقدسة / ص34

[5]- د. عوض الله حجازي / مقارنة الأديان / ص119

[6]- كتاب : الحسام الممدود في الرد على اليهود , هو للمؤلف عبد الحق الإسلامي المغربي (من أحبار اليهود بسبتة الذين منَّ الله عليهم بالإسلام) في القرن السابع الهجري على أقوى الأقوال , وقد حققه وعلق عليه : د. عمرو وفيق الداعوق / دار البشائر الإسلامية / بيروت / لبنان .

والذي أراه أن المسألة في منظور الفريسيين ليست داخلة في باب الاعتقاد ، وإنما هي مجرد لعبة سياسية مكانها جزء من اللعبة الأكبر التي تمت في تزوير حقائق الإنجيل وجعل أهله تبعاً لليهود ، وخاصة إذا عرفنا أن هؤلاء الفريسيين هم من الطبقة الأرستقراطية الغنيّة ، ومعلوم أن الأغنياء هم عادة ما يتصدون للحياة السياسية ، وقد لا نحتاج إلى كبير تأمل لنثبت أن هذه الصورة التي شكلها الفريسيون في بعث اليهود تتحدث عن [بعث دنيوي] ، إذن فهي لا تخرج عن كونها وسيلة طلب للمصالح اليهودية ليس إلا .

ثالثاً : بماذا يعلل الباحثون الشكل الذي رسمه اليهودي عن البعث ؟

في دائرة المعارف العبرية يقرر (كوهلر) أن اليهودية ليست عقيدة أو نظاماً من العقائد يتوقف على قبولها الفداء أو الخلاص في المستقبل ، ولكنها نظامُ للسلوك البشري وناموس البر الذي يتحتم على الإنسان إتباعه[2] .

ويذهب الفكر اليهودي بناء على ذلك إلى أن الجزاء يكون حسب الأعمال لا الاعتقاد : " أشهد السموات والأرض على أنه سواء كان المرء يهوديا أو وثنيا ، رجلاً أو امرأة ، حراً أو مقيداً ، فإنه سينعم بالجزاء حسب أعماله دون سواها [3] "

أما الباحث الغربي المعروف ول ديورانت صاحب كتاب [قصة الحضارة] فيقول : " .. ولما كانت اليهودية دين أعمال لا دين إيمان ، فمن الواضح تبعاً لذلك ألا تتكلم عن الآخرة والبعث والحساب ، فتلك أمور تتوقف على العقيدة ، ولهذا فقلما يشير اليهود إلى حياة أخرى بعد الموت ، و لم يرد في دينهم شيء عن الخلود ، وكان الثواب والعقاب يتم في الحياة الدنيا ، و لم تدُر فكرة البعث في خلد اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في هذه الأرض ، ولعلهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس ، أو لعلهم أخذوا شيئا منها عن المصريين .. [4] "

وقريباً منه يعلل الباحث عبد الكريم الخطيب فيرد السبب إلى أمرين هما : التذبذب الواضح في تصورهم للإله ، والظروف التي تحمل يأسهم من مكان كريم في هذه الدنيا، فيقول :

---

[1]- ينظر : المصدر السابق / ص170-171

[2]- د. أحمد شلبي / اليهودية (1) / ص 205, نقلاً عن : The Jewish Encyclobaedia

[3]- المصدر السابق , نقلاً عن كتاب : في الفكر اليهودي (مجموعة اقتباسات لنصوص يهودية) / ص31

[4]- ول ديورانت / قصة الحضارة / ج2 / ص345

" والجواب يتضح إذا عدنا إلى قصة الألوهية وشاهدنا التذبذب في علاقتهم بالإله ، تارة يؤمنون به بصفته الإله المقدس الواحد العام ، وتارة يؤمنون به بصفته الإله الشعبي الخاص باليهود .

وكذلك يقال عند عقيدة البعث ، فقد تعرضت للتذبذب تبعاً لظروفهم الخاصة ففي عصور الأمان والرخاء ينكرون الحياة الآخرة ويقولون : إن الجنة هي هذا النعيم المادي وهذا الرخاء الذي نعيشه ، وفي عصور التشرد والضنك وتبدد دولتهم يثبتون البعث والحساب ، بعد أن تمتلىء قلوبهم حقد على الحياة الدنيا والضيق بها والسخط مما يحدث لهم فيها ، وهنا يُلقون بأطماعهم إلى ما وراء هذه الحياة ويدفعون بآمالهم إلى حياة أخرى يَلقون فيها ما لم يلقوه في الحياة الدنيا [1] " .

ويبدو كذلك أنّ الكاتب سليمان مظهر في كتابه [قصة العقائد] يرد أمر إشارات بعض النصوص التوراتية للبعث إلى أسباب تاريخية مشابهة لتلك التي عللها كتاب غربيون ، حيث يقول : ".. ومر الزمن واحتل الفرس بلاد بابل ودولتي اليهود ... وكانت هذه العلاقة الطيبة بين الفرس وبين اليهود داعية لأن يدرس اليهود الديانة الزردشتية (ديانة الفرس) ومن تعاليم هذه الديانة اقتبس اليهود الاعتقاد باليوم الآخر والحساب والجزاء ..[2] " .

وقد أيده د. أحمد شلبي حيث أورد رأيه دون إضافة أو تعليق [3] !

أقول : قد لا تخلو بعض التعليلات السابقة من مضمون مقبول ، ولكن الغريب أن يُنظر أثناء التعليل لهذه النصوص بالصورة العكسية ، حيث ردَّ الكثيرُ من المحللين سبب ورود "فكرة البعث" إلى نقولات من ديانات أخرى متذرعين بأوضاع سياسية وتاريخية ، والذي أراه أنه قد يُقبل الأمر مع التحفظ الشديد عند الكتّاب الغربيين الذين لا يتعاملون مع أصل التوراة ككتاب سماوي منزل من عند الإله ، لذلك فهم يفقدون خاصية مهمة في التمييز بين الحسن والرديء ، و الأصيل والمزور ، ولكن الوضع من المفروض أن يختلف عند الكُتّاب العرب والمسلمين الذين يتناولون الموضوع بشقيه الديني والتاريخي ، وعليه فلا يقبل بحالٍ أن نضّيق الرؤية فنجعلها تابعةً لتقنين تاريخي بحت ، فهذا ولا ريب يبعدنا عن الموضوعية أميالاً إذْ جعلنا اليهودي كغيره من أصحاب الديانات الوضعية حين يدخلون شكلاً من التصورات العقدية التي تعجبهم من تراث وأساطير غيرهم ، وأنا لا أنكر طبعاً أن يكون اليهود قد أعجبوا ونقلوا الكثير من الطقوس الوثنية فترة طويلة من عهدهم ، ولكن المرفوض أن يصير اليهودي هو صاحب الفضل والنقل في إدخال فكرة البعث من هذه النقولات ، مع أن الجميع يعرف أن العكس هو الصحيح ، فكذبة التوراة هم الذين قاموا بأكبر عملية طمس للبعث ومعالمه ، التي كانت موجودة أصلاً ، ولا أرى أي مسوغ للطرح الببغائي الذي يقودنا لأن نردد حتى تحليلات قاصرة لكتاب غربيين لا يفقهون أبجديات التمييز بين الحقائق ، ولا أصالة مراجعه !

[1]- عبد الكريم الخطيب / الله والانسان / ص254

[2]- سليمان مظهر / قصة العقائد / ص 318

[3]- ينظر موقف د. أحمد شلبي / اليهودية (1) / ص 205

وسبب اهتمامي بهذه الزاوية أننا ونحن بصدد الوصول إلى نتيجة نقرر فيها تشخيص اليهودي من منطلقه الفكري في هذا الجانب (البعث والدار الآخرة) يلزم أن نظهر الفرق بين التصرفين السابقين،
لأن الواحد فيهما يعتبر منطلقاً أساسياً لقياس الشخصية اليهودية (والجانب المادي منها بالتحديد) وعليه فالفرق واضح في النتيجة ، فلا أخال أحداً يحترم عقله ، يتناول موضوعاً دينياً مثل (عقيدة البعث) مثلاً ، بمعزل عن مادتها الأصلية (ما ثبت في القرآن والبواقي الأصيلة المؤيدة له في الكتب السماوية) إلا إذا كان قد عزل هو نفسه عن الموضوعية !

رابعاً : كيف نتصور "الشخصية اليهودية" من منطلق فكرها عن البعث ؟

مما لاشك بدايةً أن الخوف من الموت هو الشعور العام عند كل إنسان إلا أن هذا الشعور يتناقص كلما ازداد الإيمان بأن هناك إلهاً و بعثاً وحياة أخرى بعد الموت ، وان هناك حساباً ونعيماً أو عذاباً ، يقتص الله فيه من الظالمين ويجازي الخير للمحسنين .
والطبيعي أنه إذا آمن الإنسان بكل ذلك يتلاشى عنده الإحساس بالخوف من الموت وتحل محله سكينة دائمة ، ونستطيع أن نتصور كيف يكون شعور الإنسان الآيس من البعث والحساب بعد الموت فهو بالتأكيد سيتشكل عنده مجموعة من المعطيات السلبية المتداخلة التي تؤثر على كيانه وتصرفاته بشكل عام وتوجهها نحو تخبط حيواني لاستغلال الجوارح باتجاه الحصول على اللذة الآنيّة في أقصى الظروف مهما بلغ مقدار ما تحدثه من خرق للموازين وتعاسة على الآخرين .
على أن هذا التشبيه بعيد عن الدقة بعض الشيء ، لأن الحيوان يظلم نوعاً ما إذا ما قارناه باللاهث وراء اللذة على إطلاقها ، فالحيوان عادة ما يكتفي بسد حاجاته الفطرية ، دون أن يتعداها إلى الإخلال بموازين الحياة ونظام طبيعتها ، والإنسان المادي الذي نزل بمستواه عن الحد الأدنى من اعتبارات الفطرة الإنسانية ، وصار كما وصفه القرآن (أسفل سافلين) غير مؤهل لاستيعاب فكر انساني راقي يحمل تصور المصير والهدف إلى ثواب وعقاب بعد الموت !!

وهناك أمر يعرفه الجميع ، وقد لا يقل أهمية عما ذكرت ، وهو الجبن الشديد الذي يولده دافع الخوف من الموت والمجهول ، وسيكون هذا الجبن في أقصى درجاته هنا ، لأنه مبني على حسابات تنتهي قبل أن تبدأ ، فيكون عندها الموت هو لحظة توقف الساعة وانتهاء العالم ، وخسران كل شيء.

ولا شك أن ارتباط الإنسان بفكرة حياة وموت دون بعث ، سيخلق عنده حالة قلقة غير متزنة في كيانه كله ، مبعثها فكرة ناقصة غير واضحة ، لأنه لا يستطيع أن يجيب على كثير من الأسئلة الملحة ، التي تحركها كوامن داخلية في تركيبته الإنسانية الفطرية ، والغريب المضحك في الوقت نفسه أن الفكر المادي الذي ينكر الغيب بما فيه البعث ، حين يطرح فكرته داخل إطارٍ فلسفي ، فإنه يُظهر لنا – اعتباطاً - أنه بطرحهِ هذا قد تخلص من الأسئلة النهائية والكلية الكبرى ، واستراح من القلق أو التفكير في مصيره أو المجهول ، فأسئلته كلها عملية مادية محصورة بالبيئة والاحتياجات الغريزية المباشرة ، لذلك فهو يحاول أن يوهم غيره أنه يتعامل مع الموجودات المشاهدة التي تؤمِّنُ له مصالحه المطلوبة دون تكلفة مجهودٍ فيما لا يطيل البحث وراءه !

يبقى أن الشخصية اليهودية فوق كل ذلك عاجزة عن تعليل الظواهر التي تواجهها في حياتها اليومية ، وخاصة تلك التجلّيات التي لا يستطيع الحساب المادي أن يفسرها ، ولنا أن نتصور الفكر اليهودي يخرج لنا إنساناً بلا هدف ولا فكرة ولا معنى ، سوى تلك التي تربطه بالحياة العملية بعيداً عن مصيره ، لأنه وفق منظوره غائب عن تجاوز حدود ما يرصده من المحسوسات .

وإذا كان الباحثون قد اجتهدوا في إثبات وجود قضية اليوم الآخر في التوراة سابقاً ، من خلال عدة نصوص ضعيفة مشتتة ، فلا أخال إلا أن موضوع البعث واليوم الآخر قد امتلأت به صفحات التوراة قبل تزويرها ، ليخرج التساؤل المطروح الآتي : ما هو السبب الداعي للجوء إلى العبث بكل هذه النصوص وإخفائها أو تشويهها بالصورة التي جعلت العثور على نص واحد في البعث أمراً عسيراً بل وقريباً من المستحيل ؟
قبل الجواب على ذلك ، لنتذكر أن حذف كل هذه النصوص في طول التوراة وعرضها يفترض أن لا يكون قد تم من قبل مزور واحد أو في فترة واحدة أو حتى عصر واحد ، ولكن البديهي أن يقال إنها حملة موجهة من قبل كاذبي التوراة أدت إلى تكامل الصورة بالشكل النهائي -هذا بدايةً - أما عن الجواب ، ففي ظني أن أمراً مكرراً كهذا وعلى خطورته -كونه جزءاً أساساً في صميم العقيدة – لا بد وأن يكون المتسبب به شيئاً نابعاً من بواعث الشخصية نفسها مترجماً للشعور والرغبة في زواله ، فإذا كان علماء النفس يحللون سلوكاً ما بأنه ناتج عن عملية إشباع لدوافع داخلية تقضي حاجاتها أو اختلال توازنها نتيجة عدم الإشباع ، إلى إثارة حالة دينامية من الحركة الهادفة إلى سد حاجة الدافع وصولاً إلى الإشباع المطلوب [1]، فإننا يمكن أن نفهم في ضوء هذا التحليل أن الدافع

[1] حول هذا الوضوع , يراجع : التمهيد , تحت عنوان : مفهوم الشخصية

في هذا النوع من السلوك (التزوير) هو تحقيق رغبة في التخلص من الموضوع غير المرغوب فيه ، وهو هنا (البعث والحساب) لأنه يوصل إلى الشعور بالحالة المزعجة الناتجة أحد الأمور التالية :
(الخوف من المجهول ، الهروب من المصير التعيس ، عدم إرادة وجوده ، عدم التهيؤ والقدرة على إدراك وجوده وبالتالي رفضه) .

فإذا كان الأمر لا يخرج عن هذه الاحتمالات ، فيبقى أن نفترض لها احتمالاً خامساً يجمعها كلها، ولنترك براعة الأسلوب القرآني يجيبنا - وهو يصف لنا بدقة متناهية حقيقة الشعور اليهودي نحو اليوم الآخر والحساب .....

المطلب الثاني : التصور المادي لعقيدة البعث عند اليهود في القرآن الكريم :

العرض القرآني لموضوع الدار الآخرة عند اليهود :

إن التعامل القرآني مع المزاعم اليهودية في مجال قضية (البعث) قد كشف دقائق خفية عن جوانب عميقة في الشخصية اليهودية ، ما كنا لنراها لولا البلاغة القرآنية التي أتحفتنا بهذه الصورة القوية والمعبرة من خلال النظم الكريم .
وفي رأيي أن هذه الدقائق - المتعلقة بالشخصية اليهودية في نظرتها للبعث - تختص مباشرة بجانبها المادي ، ولعلها هنا أقرب للقياس ، لأن الموضوع المطروح فيها يعاكس الرؤية المادية التي ترفض آلية استخدام المصطلحات الغيبية ، كما يعاكس سيرها بكل اتجاه .
وسأبدأ بالزعم اليهودي القائل بأنهم لا يعذبون إلا أياماً معدودة ، والسبب أنهم يشتركون به مع النصارى ، ثم أذكر الفكرة التي تفرد بها اليهود عن غيرهم من سائر الفصائل كما وضحها القرآن :

أولاً : الزعم اليهودي أنهم لا يعذبون إلا أياماً معدودة

وقد سجل القرآن عليهم هذا الزعم في موضعين :
الأول في سورة البقرة ، في سياق تحريف اليهود لدين الله وكتابه وشرعه ، والموطن الثاني في سورة آل عمران ، في سياق رفضهم التحاكم إلى كتاب الله ، وإعراضهم عن كل ما يدعوهم إلى ذلك

أما ما جاء في سورة البقرة ، فقوله تعالى : { **وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81)** } .

والآيات الكريمة التي معنا قد افتتحت بتيئيس المؤمنين من دخول اليهود في الإسلام ولكن هذا التيئيس قد سبق بما يدعمه ويؤيده ، ففي السياق نفسه ، بينت الآيات السابقة عليها " موقف اليهود الجحودي من نعم الله - عز وجل - كما بينت تنطعهم في الدين ، وسوء إدراكهم لمقاصد الشريعة ، وقساوة قلوبهم من بعد أن رأوا من الآيات البينات ما رأوا ، وبعد هذا البيان الموحي بالقنوط من استجابتهم للحق ، خاطب الله المؤمنين بقوله :
{ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } .

ومعنى الآية الكريمة : أفتطمعون - أيها المؤمنون - بعد أن وصفتُ لكم من حال اليهود ما وصفت من جحود ونكران ، أن يدخلوا في الإسلام . والحال أنه كان فريق من علمائهم وأحبارهم يسمعون كلام الله ثم يميلونه عن وجهه الصحيح من بعد ما فهموه ، وهم يعلمون أنهم كاذبون بهذا التحريف على الله تعالى ، أو يعلمون ما يستحقه محرفه من الخزي والعذاب الأليم .

فالخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين ، والاستفهام يقصد به الإنكار عليهم ، إذ طمعوا في استجابة اليهود لدعوة الحق ، بعد أن علموا سوء أحوالهم ، وفساد نفوسهم [1].

ويقول تعالى في آل عمران : { **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25)** }

وسياق الآيات هنا افتتح باستئناف ابتدائي : للتعجب من حالة اليهود في شدّة ضلالهم ، قال تعالى : { **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)** } فالاستفهام في قوله : { **ألم تر** } للتقرير والتعجب

أما قوله : { **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ** } أي المذكور من التولي والإعراض و{**ذَلِكَ**} مبتدأ خبره قوله تعالى : { **بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ** } أي حاصل لهم بسبب هذا القول الذي رسخ اعتقادهم له وهونوا به الخطوب و لم يبالوا معه بارتكاب المعاصي والذنوب ، أو أن يكون ذلك التولي بسبب هذه الأقوال الباطلة ، وتسهيلهم على أنفسهم العذاب ، وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل [2].

[1]- ينظر : طنطاوي / التفسير الوسيط / ج1/ ص 128
[2] - الألوسي / ج 2/ ص 464

قال الألوسي : " والمراد بالأيام المعدودات أيام عبادتهم العجل ، وجاء هنا { مَعْدُودَاتٍ } بصيغة الجمع دون ما في البقرة (80) فإنه { مَّعْدُودَةً } بصيغة المفرد تفنناً في التعبير ، وذلك لأن جمع التكسير لغير العاقل يجوز أن يعامل معاملة الواحدة المؤنثة تارة ، ومعاملة جمع الإناث أخرى ، فيقال : هذه جبال راسية ، وإن شئت قلت راسيات .. وخص الجمع هنا لما فيه من الدلالة على القلة كموصوفه وذلك أليق بمقام التعجيب والتشنيع [1] " .

ومن هنا يظهر أن الذي حمَّلهم وجَرّأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام ، عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً ، ثم قال : {وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } أي : ثَبَّتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات ، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، و لم يترل الله به سلطانا قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعداً : { فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ }

أي : كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به[2]

ثانياً : الزعم اليهودي باستئثارهم اليوم الآخر :

قال تعالى : { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) } البقرة

ومناسبة الآية كما يقول الإمام الطبري : "وهذه الآية مما احتج الله بها لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره ، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم ، وذلك أن الله جل ثناؤه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم .. وقال لفريق اليهود : إن كنتم محقين فتمنوا الموت ، فإن ذلك غير ضاركم ، إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المترلة .. [3] ".

[1]- ينظر : المصدر السابق / ج 2/ ص 464

[2]- ينظر : ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج 2 / ص 28

[3]- الطبري / جامع البيان / ج2 / ص261

وهو ردٌّ عليهم لما ادّعوا أنهم يدخلون الجنة ، ولا يشاركهم في دخولها غيرهم ، وإلزام لهم بما يتبين به أنهم كاذبون في تلك الدعوى ، وأنها صادرة منهم لا عن برهان ، ومعنى الخلوص أنه لا يشاركهم فيها غيرهم ، إذا كانت اللام في قوله : **{ مِنْ دُونِ النَّاسِ }** للجنس ، أو لا يشاركهم فيها المسلمون إن كانت اللام للعهد [1].

ويذكر المفسرون أنه لما ادعت اليهود هذه الدعاوى الباطلة التي حكاها الله عز وجل عنهم في كتابه، كقوله تعالى: **{ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً }**(80) البقرة ، وقوله:**{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى }**وقالوا: **{نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ..}**(18) المائدة ، أكذبهم الله عز وجل وألزمهم الحجة فقال قل لهم يا محمد: " إن كانت لكم الدار الآخرة " يعني الجنة**{ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }** في أقوالكم [2] .

قال الإمام القرطبي : " لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة في الدنيا، لما يصير إليه من نعيم الجنة، ويزول عنه من أذى الدنيا، فأحجموا عن تمنى ذلك فرقا من الله لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكفرهم في قولهم: **{نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ }**وحرصهم على الدنيا، ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم بقوله الحق: **{وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) }** [3] .

ونظيرها في سورة الجمعة ، يقول تعالى : **{ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) }**.

ومعنى (أولياء الله) مقربين منه ، كرماء عليه ، لهم منزلة خاصة عنده تعالى .

وقوله : **{ فَتَمَنَّوُاْ الموت . . }** جواب الشرط ، والتمني معناه : ارتياح النفس ، ورغبتها القوية في الحصول على الشيء .

وجواب الشرط في قوله : **{ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }** محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي : إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت .

افتتحت الآية الكريمة بلفظ **{ قُلْ }** للاهتمام بشأن التحدي من الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم ، ولبيان أنه أمر من الله - تعالى - وليس للرسول - صلى الله عليه وسلم - سوى التنفيذ .

وجيء بإن الشرطية المفيدة للشك ، مع أنهم قد زعموا أنهم أولياء لله فعلاً ، للإشعار بأن زعمهم هذا وإن كانوا قد كرروا النطق والتباهي به . . إلا أنه بمنزلة الشيء الذي تلوكه الألسنة ، دون أن يكون له أساس من الواقع ، فهو لوضوح بطلانه صار بمنزلة الشيء الذي يفترض وقوعه افتراضا على سبيل التوبيخ له

---

[1]- ينظر : المصدر السابق / ج2 / ص261

[2]- يراجع مثلا: القرطبي /الجامع لأحكام القرآن / ج 2 / ص23

[3] - المصدر السابق / ج 2 / ص23

ويستعمل التمني في المعنى القائم بالقلب ، بأن تتطلع نفس الشخص إلى الحصول على الشيء ، كما يستعمل عن طريق النطق باللسان ، بأن يقول الإنسان بلسانه ، ليتني أحصل على كذا .

وهذا المعنى الثاني هو المراد هنا كما ذكر المفسرون ، لأن المعنى الكائن في القلب لا يعلمه أحد سوى الله تعالى ، وقال الزمخشري : " فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم لتمنوا ، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد ، فما تمالك أحد منهم أن يتمنى؛ وهي إحدى المعجزات [1] ".

ومعنى الآية الكريمة : قل يا محمد لهؤلاء اليهود الزاعمين أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم أولياء الله - تعالى - المقربون إليه من دون سائر خلقه . . . قل لهم على سبيل التحدي والتعجيز والتبكيت - إن كان الأمر كما زعمتم ، فاذكروا أمام الناس بألسنتكم لفظاً ، يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه ، كي تظفروا بعد الموت بالمحبة الكاملة من الله ، ولكي تنتقلوا من شقاء الدنيا ومتاعبها إلى النعيم الخالص بعد موتكم [2].

• **مسألة :**

قد يظهر بعض التباسٍ صنعتهُ فجوةٌ سطحيةٌ بين ما ذكره النظم الكريم في الآيتين السابقتين من سورتي البقرة والجمعة ، واللتان تعالجان صورة مشوهة في شكل من أشكال عقيدة البعث عند اليهود، وبين ما استقر عليه الفكر اليهودي في نصوص العهد القديم من إنكار عقيدة البعث صراحة، وأجتهد اجتهاداً متواضعاً في الإجابة على ذلك فأقول :

إنَّ الفجوةَ بدايةً يَسُدُّها الفارقُ الزَّمَني الذي تدرَّجَ فيه التحريف حتى وصل إلى الحالة التي هم عليها من الإنكار الكامل ، مع أننا إلى الآن لم نفقد ما يدل على طرف الخيط في هذه المسألة ، فبالإضافة إلى ما قدمتُ سابقاً من وجود بعض الشذرات هنا وهناك ، يذكر بعض الباحثين ومنهم الباحث محمد قاسم أن التوراة العبرانية لا تنص بوضوح على يوم القيامة ، أما التوراة السامرية فتنص عليها بوضوح :" أليس ذلك مجموعاً عندي مختوما في خزانتي إلى يوم الانتقام والمكافأة وقت تزل أقدامهم "

والنص العبراني يقول : " ثم قال الرب : أليس ذلك مكنوزاً عندي ، مختوماً عليه في خزائني لي النقمة والجزاء وقت تزل أقدامهم ، إن يوم هلاكهم قريب والمهيئات لهم مسرعة ، لأن الرب يدين شعبه ، وعلى عبيده يشفق[3] " .

والملاحظ على النَّصين وجود التحريف الواضح الذي يسهل علينا أن نتلمس بواقيه وآثاره إلى الآن ، وكل هذا يصبُّ في خانة إثبات أن موضوع البعث في العهد القديم ، ومع كل ما لقي هذان النصان وأمثالهما ، من الطعنات المميتة ، إلا أنهما بقيا كشاهد على أثر التحريف البالغ في هذا المقام .

---

[1]- الزمخشري / الكشاف / ج 7 / ص 58
[2] - ينظر : سيد طنطاوي / التفسير الوسيط / ج1/ ص 4201
[3]- ينظر تعليق د. أحمد حجازي السقا / (على التوراة) / ص 130 , وكذلك محمد قاسم / التناقض في تواريخ وأحداث التوراة / ص209

ويضاف إلى ذلك أن غالبية ما رأينا من النصوص الباقية في الحديث عن البعث قد وُظِّفت لأمرٍ واحد وهو استخدامها كسلاح فكري ضد (الجوييم) الذين بدورهم يعتبرون معاني الغيب (الله واليوم الآخر) مقدسة وسامية ، فكأن اليهودي في ادعائه الواهي هذا أراد أن يزاحم الناس بهذه الفكرة التي لا يؤمن بها أصلاً إشباعاً لرغبته في الاستئثار بكل ما هو مرغوب ومحبب عند الغير ، فأثبت القرآن كذبهم بأقوى الأدلة لأنها مستخرجة من فرضية الادعاء .

وبناءاً عليه ، فمع أننا للوهلة الأولى نظن أن الآيتين السابقتين تعالجان فقط موضوعاً محدداً ، وهو الادعاء اليهودي باستئثارهم الدار الآخرة كفصيل ، إلا أن البلاغة القرآنية كشفت أن هاتين الآيتين تمثلان شكلاً مرحلياً ، من أشكال التصور التصور اليهودي عن البعث ، ولما كان الرد القرآني كافياً وافياً شافياً فقد أفادنا أموراً أخرى تصلح للرد على اليهود الآن الذين ينكرون البعث كمبدأ ، كما صلحت كذلك في الرد على الحالة التي ادعوا فيها استئثارهم الدار الآخرة في الوقت ذاته ، فما قد نلمسه من الآيات الكريمة في أسلوب إقامتها الحجة عليهم ، أنها أقامته من حيث هو مكمن الداء ، فكشفت عن بواطن نفوسهم بأسلوب يظهر ضعفهم أمام أصعب تحدي لهم (تمني الموت) ، وطبعاً فاختيار هذا النمط من المُحَاجَّة سهَّل على كل متأمل بعين التدبر اختصار مسافات طويلة من التنبؤات حول مصير هذه الشخصية من البعث .

ودليل آخر في غير هذه الآية - لا يقل أهمية عما ذكرت - وهو أن الآية الكريمة في سورة الممتحنة ذكرت إنكار عقيدة البعث صراحةً ، وقد ذكر المفسرون أنها في اليهود [1] "

وبمعنى آخر فإن النظم الكريم هنا - وعلى اعتبار أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً - قد أبدع وأجاد عرض الصور الجامعة ، التي ابتدأ منها مكمن الخلل ، والتي جرَّت ما انتهوا إليه الآن من طمس أخير لمعالم اليوم الآخر ، وأثبت في حقيقة أخرى في موضع آخر ، هي حقيقة إنكارهم الفعلي لبعث الأموات !

لقد وقفت الآيات السابقة على أقوى الدوافع التي أدت وستؤدي بهؤلاء إلى هذه المحاولة الضخمة لطمس معالم اليوم الآخر ، وهو "الهروب من الموت " حيث جاء في تتمة الآيات التي في سورة الجمعة قوله تعالى :

---

[1] ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 14 / ص 481

{... فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)} الجمعة

إن الهروب من الموت الذي أبدته الآيات بخصوصهم ، لا يقف عند مجرد الإحساس بالخوف الطبيعي من الموت عند الناس العاديين ، بل يتجاوز ذلك إلى النفسية التي فقدت استعداداتها في التهيؤ نحو (عالَم غيبي) عالم ما بعد الموت ، لأن نفسية كهذه مبرمجةٌ أصلاً على التعامل ضمن الإطار الذي تشاهده ، ولذلك يروعها استحضار أمرٍ لا تملك أدوات التعامل معه ، وهي على هذا تستخدم ما بجعبتها من أدوات في سبيل الغوص أكثر نحو العالَمَ المادي المشاهد ، فراراً من ذلك العالم الغيبي المعاكس في الاتجاه ، فجاء النظم الكريم لكشف ذلك بوضوح بدلالة بليغة الوصف حيث قال : **{قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ...}**

ثالثاً : إنكار اليهود ويأسهم من البعث

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ }الممتحنة

اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية ، وذكروا في "الكفار" أقوالاً ، أحدها أنهم اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد[1]، وقال القرطبي : قوله تعالى: **{لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ }** يعني اليهود [2] " .

فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يئسوا من الآخرة **{ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ }** وفي معناها قولان، أحدهما : كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك؛ لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً ، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه.

والقول الثاني : معناه : كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير ، وهو اختيار ابن جريرالطبري[3] في تفسيره ، ونقله عنه ابن كثير[4] ، واختار الألوسي [5] : "أي الذين هم أصحاب القبور أي الكفار الموتى على أن

---

[1] هذا رأي ابن كثير (ينظر: ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج 8 / ص 102) .
[2] القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج 18 / ص76
[3] الطبري / جامع البيان / ج 23 / ص 347
[4] ينظر : ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج 8 / ص 102
[5] الألوسي / روح المعاني / ج 13 / ص 551

{مِنْ} بيانية ، والمعنى أن يأس هؤلاء من الآخرة كيأس الكفار الذين ماتوا وسكنوا القبور وتبينوا حرمانهم من نعيمها المقيم ، وقيل : كيأسهم من أن ينالهم خير من هؤلاء الأحياء ، والمراد وصفهم بكمال اليأس من الآخرة ، واختار أبو حيان كونها لابتداء الغاية ، والمعنى أن هؤلاء القوم المغضوب عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئسوا من موتاهم أن يبعثوا ويلقوهم في دار الدنيا [1]

ومجمل معنى الآية الكريمة أنها نصٌّ في قوم غضب الله عليهم ، حملها البعض على العموم ، لأن كل كافر مغضوب عليه ، وحملها البعض على خصوص اليهود ، وينصُّ الشنقيطي في موضع هذه الآية أنه ذكر في مقدمة الأضواء : إذا اختلف في تفسير آية ، وكان أكثر استعمال القرآن لأحد المعنيين كان مرجحاً على الآخر ، قال الشنقيطي : " وهو محقق هنا ، كما قال الحسن ، أصبح عرفاً عليهم ، وقد خصهم تعالى في قوله : **{قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ الله مَن لَّعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القردة والخنازير }** [المائدة : 60] وقولهم فيهم : **{ فَبَآءُو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ }** [البقرة : 90]

وقد فرق الله بينهم وبين النصارى في قوله تعالى **{ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم وَلاَ الضآلين }**[الفاتحة : 7][2] "

وما ذكره الشنقيطي هو ما أميل إليه ، على اعتبار أن "الكفار" المقصودين هنا من الأحياء ، كما رجح أبوحيان وغيره أن (من) لابتداء الغاية (والله أعلم) .

وإجمالاً ، فإن كلا الرأيين- على هذا القول- يجمعون على إدخال اليهود في هذه الآية وتقديمهم ، وهو ما يثبت كشف القرآن عن مستوى وطبيعة إنكارهم الذي بلغ فقدانهم ويأسهم لأي حظ في الآخرة !!

¤ نتيجة :

في ضوء ما سبق ، يتبين أن طبيعة الهروب - الذي كشف القرآن بواطنه - واضح وجلي في نظرة اليهود إلى فكرة "وجود الدار الآخرة " وفي أسلوب تعامل كذبة التوراة مع قضية البعث ، حيث نرى هذا الهروب قد انعكس جلياً على جميع صفحات العهد القديم ، فلم يكن أسلوب التحريف كما عهدناه بخصوص الحديث عن الله والأنبياء الذين شُوِّهت صورهم إلى أقصى مدىً لها ، فالموضوع هنا يختلف ، لأن المصوغ مختلف مع أن الدافع واحد .

---

[1] ينظر : أبو حيان / البحر المحيط / ج 13 / ص 551

[2] الشنقيطي / أضواء البيان / ج 8 / ص 238

فإذا كان الدافع هو ذاته لم يتغير (الرؤية المادية القاصرة) ، بدليل أن كل ما رأيناه من ادعاءات مكتوبة ومسموعة هي تفسير مبرمج لحقيقة هذه الرؤية ، فإن الأسلوب اختلف هنا بالتأكيد ، حيث رأينا في المطلبين السابقين المختصين فيما طرحوه عن فكرة الإله وتصورهم للنبوة ، هو إثبات لفكرة وجودهما مع طمس وتشويه لحقيقة ما يحملانه من خصائص مميزة لطبيعة معنى القداسة ، والسبب كما رأيناه هو محاولة الاستفادة من وجود الإله كصورة يقع عليها موضوع التبرير لجميع تصرفاتهم المسيئة ، بل وإفادة مسوغات شرعية قانونية لها ، وما حاولوا أخذه من فكرة النبوة هو موضوع الافتخار بالانتساب العرقي لهم ، لا كأنبياء (لأنهم سلبوا منهم معنى النبوة ابتداءاً) ولكن كأشخاص عرفهم ومجدهم التاريخ ، أما فكرة "اليوم الآخر" فليس من حاصل استبقائها ، ما يرون من مصلحة قد يجنون ثمارها في واقعهم الذي يعيشونه ، مع أن بدايات التشويه لهذه الحقيقة كانت بادعائهم وجود اليوم الآخر للقول بالاستئثار بالجنة ، إلا أن الأمر سرعان ما تطور ، لأن ما أصيبوا به من داء الحرص على حياة - كما أثبته القرآن في الآية التي تلي الرد عليهم بزعمهم الاستئثار بالدار الآخرة - لم يقو أمام صنعة التحريف إلا بطمس كل معالمه .

من هنا فإن هيمنة الفكرة المادية على التصور اليهودي جعلت مستوى الهروب من قضية "البعث والحساب" تفوق حتى مجرد طرحه والتعامل معه، ولو بالشكل المجرد في تقليدهم لصورٍ من الوثنية كتلك التي بمستوى الطرح الفرعوني — الذي عايشوه زمناً - لموضوع الحياة بعد الموت !

وهذا يظهر بوضوح مدى ما بلغه استحكام المادية في قلوبهم إلى درجة الافتقار الكامل (غير الجزئي) لجميع أدوات التعامل معه ، مما يثبت حقيقة عجز الفكر اليهودي عن فهم التصورات العقدية (ومنها البعث والحساب) بغير أدوات الحس المباشر !!

الفصل الثاني

الجانب المادي في الحياة كما يصوره القرآن الكريم

ويتضمن أربعة مباحث :

المبحث الأول : التصور المادي للسلوك والأخلاق ، والمبحث الثاني : التصور المادي للنظام الاجتماعي ، والمبحث الثالث : المادية اليهودية في ميزان الاقتصاد ، والمبحث الرابع : : وباء المادية اليهودية وواقع المجتمعات المعاصرة :

• المبحث الأول : التصور المادي للأخلاق والسلوك

• المطلب الأول : التفسير المادي للقيم والمثل :

لعل من السهل جداً إثبات تميز الخلق اليهودي بعدة صفات مجتمعة يعرفها العالم كله قديماً وحديثاً ، كما أن القارىء غني عن إعادة تفاصيلها وقد امتلأت بها الكتب بشتى مصادرها[1]، غير أن ما ميز الأسلوب القرآني في عرضه لهذه الأخلاق إنصافه في الحكم أولاً ، وكشفه لخبايا ودوافع السلوك بصورة دقيقة لا تقف على مجرد

[1] ينظر على سبيل المثال : د سيد طنطاوي / بنو إسرائيل في القرآن الكريم / الجزء الثاني / الفصل السادس , بعنوان : رذائل اليهود كما يصورها القرآن الكريم / ص3 , د. محمد أبو فارس / شغب اليهود على الأنبياء / الفصل السادس , بعنوان / نظرة إجمالية في حديث القرآن عن رذائل بني إسرائيل / ص62 ,

المظهر بل تتجاوزه إلى أبعاد ذلك وحقيقته ، لذا سأحاول بإذن الله الوقوف على شيء من هذه الدوافع والتي مبعثها الشخصية نفسها في محاولة تفسير المظهر الخلقي والاجتماعي وعلاقته بالمادية اليهودية :

أولاً : القسوة القلبية وعلاقتها بنظرة الشخصية اليهودية للقيم والأخلاق :

تطور النمط الخُلُقي لدى الشخصية اليهودية :

إن قسوة القلب وعشق المادة شيئان من المفترض أن يكونا متلازمين صعوداً وهبوطاً وطالما أن أحدنا لا يملك جهازاً لقياس كثافة القسوة القلبية ، إلا أنه من الممكن أن نلحظ آثار انعكاسها في الشخصية من خلال عدة سلوكيات نفسية ، وقد اخترت أن أعرض منها تطور سلوك " **التبرير**" في الشخصية اليهودية من خلال العرض القرآني ، وهي بالتأكيد مراحل كثيرة ومتراكمة ، تراكم أزمان متعاقبة من محطاتهم السوداء مع أنبيائهم ، لكني سأركز حديثي على ثلاث مراحل تظهر التباين في عنصر التبرير واضحاً، مما قد يسهل قياس مدى التدرج الحاصل في القسوة القلبية وما يعكسه من نمط خلقي متدهور نحو المزيد من السطوة المادية على القلب ، وتأثيره على الشخصية :

المرحلة الأولى :

صحيح أن أبناء يعقوب عليه السلام ليسوا في حقيقتهم يهوداً [1]، ولكن اليهود هم امتداد للبذرة السيئة ، التي ابتدأ تشكلها في زمن يعقوب ويوسف عليهما السلام – كما مر - ولن أقف على البدايات الخُلُقية لتكون الشخصية اليهودية في قصة يوسف كثيراً ، والسبب أن دراسة الجانب المادي في هذه الشخصية متعلق أكثر فيما انتهت إليه هذه الشخصية ،كما أن موضوعهم في قصة يوسف عميق ومليء بالأحداث والعبر التي تحتاج دراسة وافية ومستقلة، قال تعالى : **{ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) }** يوسف.

وسأتناول في اختياري هنا الآية التي تعالج موضوع (التبرير) حيث نلحظ فيها أمراً مهما يعكس تطور الشخصية اليهودية من ناحية قسوة القلب الذي هو إحدى صور التعبير عن مراحل الانغماس القلبي للحالة المادية حتى وصلت إلى ما وصلت إليه .

أول تبرير سجله القرآن على لسانهم هو في بداية قصة يوسف عليه السلام ، **قال تعالى : { اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) }** يوسف

و يعنون بهذا التبرير أنهم يتوبون من قتلهم يوسف، وذنبهم الذي يرتكبونه فيه ، فيكونون بتوبتهم من قتله من بعد هلاك يوسف قومًا صالحين [2].

[1] هذه النتيجة هي ما توصلت إليه من خلال بحثي في المطلب التمهيدي
[2] الطبري / جامع البيان / ج15 / ص 654

وقال الآلوسي :" المراد بالصلاح ، الصلاح الديني بينهم وبين الله تعالى ، ويحتمل أن المراد ذلك لكن بينهم وبين أبيهم بالعذر وهو وإن كان مخالفاً للدين لكونه كذباً لكنه موافق له من جهة أنهم يرجون عفو أبيهم وصفحه به ليخلصوا من العقوق على ما قيل ، ويحتمل أن يراد الصلاح الدنيوي أي صالحين في أمر دنياكم فإنه ينتظم لكم بعده بخلو وجه أبيكم ..[1] " .

أما عن التبرير في حالته الطبيعية ، فيقول عنه علماء النفس : "إن التبرير وسيلة دفاع أولية تساعد على تخفيف شدة تأثير الإحباط ، ولكن من الممكن فيه الوصول إلى درجات لا تكون إلى جانب استواء الشخصية ، فقد يصبح الشخص قابلاً للتصديق بالكثير من الاعتبارات والأدلة غير الصحيحة ، وقد يقوده ذلك إلى اعتناق اعتقادات خاطئة ، وقبول الكثير من أشكال الهذيان على ما ينطوي عليه من تناقض [2] "

والملاحظ أن مستوى التبرير عندهم في قصة يوسف لم يتعدى الحالة الأولية التي حللها علماء النفس ، لكنه تميز عنها بأنه جزء من إعداد خطة أو مؤامرة مسبقة .

وقد علق ابن الجوزي على ذلك بالقول : " وفي قصتهم نكتة عجيبة ، وهو أنهم عزموا على التوبة قبل الذنب[3] "!

المرحلة الثانية :

قوله تعالى في سورة الأعراف : { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169) }

وواضح أن المقصود من الآية الذم ، وأما الذين (ورثوا الكتاب) قال المفسرون : هم اليهود، ورثوا كتاب الله فقرأوه وعلموه ، وخالفوا حكمه وأتوا محارمه مع دراستهم له ، فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً ، قال أبو جعفر الطبري : " والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : إن الله تعالى ، إنما وصف أنه خَلَف[4] القومَ الذين قصّ قصصهم في الآيات التي مضت ، خَلْف سوءٍ رديء ، ... وقصتهم بقصص اليهود أشبه منها بقصص النصارى ، وبعدُ، فإن ما قبل ذلك خبرٌ عن بني إسرائيل، وما بعده كذلك ، فما بينهما بأن يكون خبرًا عنهم أشبه، إذ لم يكن في الآية دليل على صرف الخبر عنهم إلى غيرهم ، ولا جاء بذلك دليل يوجب صحة القول به [5] " .

---

[1] الألوسي / إرشاد العقل السليم / ج 8 / ص446

[2] د. فايز محمد علي الحاج / الصحة النفسية / ص 16

[3] ابن الجوزي / زاد المسير / ج 3 / ص 403

[4] يقال منه: "هو خَلَف صِدْقٍ"، "وخَلْفُ سَوْءٍ"، وأكثر ما جاء في المدح بفتح "اللام"، وفي الذم بتسكينها، وقد تحرَّك في الذم، وتسكّن في المدح، ومن ذلك في تسكينها في المدح قول حسان بن ثابت : لَنَا القَدَمُ الأُولَى إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا لأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ اللهِ تَابِعُ
(ديوانه :رقم 254 ، وسيرة ابن هشام 3 : 283)وقال الطبري : وأحسب أنّه إذا وُجّه إلى الفساد، مأخوذ من قولهم: "خَلَف اللبن"، إذا حمض من طُول تَركه في السقاء حتى يفسد، فكأنَّ الرجل الفاسد مشبَّهٌ به.(جامع البيان / ج 13 / 209ص) .

[5] المصدر السابق / ج13 / ص 211

وإذ قد دلنا السياق على كونهم يهوداً فإن الحال التي أخبرت عنهم الآية أنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم ونهمهم ، و (العَرَض) بفتح العين وفتح الراء الأمر الذي يزول ولا يدوم ، ويراد به المال ، ويراد به أيضاً ما يعرض للمرء من الشهوات والمنافع ، ومهد لذلك بأنهم ورثوا الكتاب ليدل على أنهم يفعلون ذلك عن علم لا عن جهل ، وذلك أشد مذمة ، كما قال تعالى : { وأضله الله على علمٍ } [الجاثية : 23] .

ومعنى الأخذ هنا الملابسة والاستعمال فهو مجاز أي : يلابسونه ، وقد يجوز على الحقيقة ، قال الزمخشري : " { **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى** } أي حطام هذا الشيء الأدنى ، يريد الدنيا وما يتمتع به منها[1] " .

وفي قوله : { هذا الأدنى } تخسيس وتحقير ، والأدنى : إما من الدنوّ بمعنى القرب ، لأنه عاجل قريب وإما من دنوّ الحال وسقوطها وقلتها .

ثم ذمهم باغترارهم في قولهم {سيُغفر لنا } وأنهم بحال إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها ، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مصرون، وإنما يقول سيغفر لنا من أقلع وندم ، وهم لا يتوبون ، ودل على أنهم لا يتوبون قوله تعالى : { وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه } والعَرَض : متاع الدنيا ، ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير[2].

قال القرطبي : " والإشارة في هذه الآية إلى الرشا والمكاسب الخبيثة، فهم تمنوا على الله أماني، وغرَّة يغترون بها، { **وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ** } لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هف لهم شيء من أمر الدنيا أكلوه، ولا يبالون حلالا كان أو حرامًا [3] ".

والمقصود بالقول { ويقولون } إما الكلام اللساني ،أي: يقولون لمن ينكر عليهم ملابسة الذنوب وتناول الشهوات ، لأن (ما) بعد يقولون يناسبه الكلام اللفظي ، أو الكلام النفساني ، لأنه فرع عنه ، أي قولهم في أنفسهم يعللونها به حين يجيش فيها وازع النهي ، فهو بمنزلة قوله تعالى : { ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول } [المجادلة : 8] ، وذلك من غرورهم في الدين .

وعند ابن عاشور : ..للدلالة على أنهم يقولون ذلك على وجه العموم لا في خصوص الذنب الذي أنكر عليهم ، أو الذي تلبَّسُوا به حين القول ... أي يغفر لنا بدون سبب المغفرة ، وهو التوبة كما يعلم من السياق ، وهو جزمهم بذلك عقب ذكر الذنب دون ذكر كفارة أو نحوها [4].

---

[1] الزمخشري / الكشاف / ج 4 / ص 375
[2] ينظر : ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 6 / ص2
[3] القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج 7 / ص 310
[4] : ينظر : التحرير والتنوير / ج 6 / ص 2

إذن فالآية الكريمة التي معنا تصور خصوصيةً عجيبةً من أمرهم فهم يأخذونه عالمين حرمته بالنص ، ويتحدثون بالمغفرة في وقت واحد مع الرضا والتسليم لقبح العمل والعزم على الاستمرار فيه ، ومن الممكن أن يطرح السؤال الآتي ، أين مكان الاستغفار في منطق متناقض كهذا ؟

الجواب أنه لا يوجد مكان وارد للاستغفار عندهم ، فهم إنما قالوا (سيُغَفرُ لنا) من قبيل التصور الخبيث الذي ترسمه هذه الشخصية لنفسها من أوهام متشكلة في ذهنٍ هو أبعد ما يكون عن إدراك معنى التوبة والاستغفار ، فهم يفهمون من (سيُغَفرُ لنا) تبرير دفع العقوبة عنهم دون حتى الحاجة إلى فعل ذات الاستغفار ، ونفهم من هذه المرحلة في تشكل الشخصية اليهودية تهاوياً جديداً في مستوى الانحطاط الفكري يصير فيه التهافت على (حطام من الدنيا دنيء) سلوكاً يجتمع معه راحةٌ وهناءُ بال ، دون أن يكون هناك أدنى حسبان لعقوبة أو انتظار لحساب .

وفي هذا يقول الشيخ البهي : "...إن خاطر الاستغفار لم يخطر لهم ببال ، فالفطرة لديهم تفقد كل عصب يجيش لحسن الحسن وقبح القبيح ، وأن الأمور فيها لون واحد هو الجائز أو المباح ، وأن بدهية الثواب والعقاب لا موضع لها فيما يأتون أو يدعون ...وتلك –ولا جرم – فطرة مؤهلة للعبث بقيم الحضارة ، فضلاً عن فقدانها التأهيل لإبداعها ، والتجانس مع مقتضياتها ...[1] ".

ولو قابلنا تبريرهم الواهي : **{وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا }** مع قولهم السابق في سورة يوسف: **{ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ }** لوجدنا جامعاً بينهما ، وهو أن كلا التبريرين حاصل بنية مبيتة قبل ارتكاب الذنب ، إلا أن التبرير الأول توجه إلى نية إصلاح ذات العمل ، أي أرادوا أن يكونوا صالحين حتى يغفر لهم ، أما التبرير الثاني فورد بصيغة المجهول فهو معمم ، أي أنهم يتوقعون المغفرة بدون أن يبادروا حتى بنية التوبة ، وهنا يظهر انحدار جديد في المستوى الخُلقي لهذا الجيل ، فإن أصعب ما يقابل النفسية المجرمة أن تبيت الإجرام مع تبريره بصورة مسبقة مما يخلف قسوة في القلب تألف من خلالها الفعل القذر وهي تقدر حجم خطورته ، وتزيل عن نفسها أعباء تبعاته باستحضار خبيث مبيت !

وسأنتقل الآن إلى صورة ثالثة عرضها القرآن الكريم فيما انتهى إليه الكيان النفسي عند اليهودي في مرحلته الأخيرة ، والتي تبلورت من خلالها شخصيته وتمادت في تبريرها حتى وصلت إلى مستوى معقد من فن التبرير :

المرحلة الثالثة :

[1] البهي الخولي / بنو اسرائيل في ميزان القرآن الكريم / ص 243

يقول تعالى : { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) }آل عمران

يخبرنا القرآن الكريم عن أمر خطير وصلت إليه النفسية اليهودية في وضعها النهائي وهو اعتبار الخلق السيئ وكل ما يندرج تحته من معاملات للغير أمراً مطلوباً في عقيدتهم وله ما يبرره ، ومن الطبيعي أن لا يكون جرم هو الأفظع على الإنسانية من هذا الذي يصير فيه التعامل أللاإنساني جزءاً من العقيدة ويحض عليه الدين !

يقول تعالى : { .... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ... يَعْلَمُونَ }

والآية الكريمة[1] مثلٌ صريح من الأمثلة الكثيرة التي أنصف فيها القرآن أعداءه ، فلم يغفل عن الإقرار بأمانة القليل منهم مع أنه لو وصفهم بالصفة الغالبة عليهم ما كان هذا إجحافاً ولا ظلماً ، ثم إنه أظهر أدباً راقياً في أسلوب وصفهم حيث قدم الحديث عن الأفضل .

وأريد أن أصلَ إلى أمرٍ معين في فهم هذه الشخصية من خلال سؤالٍ بدهيٍّ مطروح ، وهو الآتي :

إذا كان الأصل في الشخصية الإنسانية أن تتصف من ناحية الأمانة بنسب متفاوتة - وهذا الحال عام حتى عند الكفار والمشركين- فلم خُصَّ أهل الكتاب في هذه الآية الكريمة بأن فيهم الأمين والخائن ؟

الجواب ليس بعيداً فقد عللته الآية نفسها : **{ ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ }** يقول ابن الجوزي : "فإن قيل : لم خصَّ أهل الكتاب بأن فيهم خائناً وأميناً والخلقُ على ذلك؟! فالجواب : أنهم يخونون المسلمين استحلالاً لذلك [2] " .

حيث إن هذه الآية – وفق ما أرى – فصَلَت صنفاً من أهل الكتاب عن باقي البشر في خلق الأمانة، فهي أولاً جعلت مجموعة من أهل الكتاب يشتركون مع باقي البشرية في سلوكهم المتفاوت للأمانة ، ثم عرَّضتْ باليهود[3] بخصوص هذا الخلق المهم ، بأنهم امتازوا عن غيرهم بتعليل فظيع ، أضاف إلى خيانة الأمانة أمراً جديداً وهو التمادي في المعتقد بحيث صيروا فيه الخيانة أمراً مستحباً في الدين بل ومشرّعاً له لكل من هو ليس على شاكلتهم

---

[1] حول علاقة هذه الآية في سياقها مع بقية الآيات المادحة لأهل الكتاب ,ينظر : بحث أ.د. محمد المجالي بعنوان : الآيات المادحة لأهل الكتاب (عرض وبيان) مجلة دراسات , علوم الشريعة والقانون ,الجامعة الأردنية / المجلد 31,العدد(1) / 2004م

[2] ابن الجوزي / زاد المعاد / ج1 / ص 484

[3] الدليل على أن المقصود في الخائنين هم اليهود أن هذا القول الذي عللته الآية صادر عنهم , فيكون اليهود الذين بهم بقية مما عليه أهل الكتاب مشتركون بما قدمته الآية في وصفهم (منهم الأمين ومنهم الخائن) ولا يبقى لليهود الذين هم على قول : (ليس علينا في الأميين سبيل ..)أيّ مكان سوى ذمهم في خانة واحدة (الخيانة) , وهم كل اليهود اليوم بنص توراتهم, يقول الإمام الرازي : الآية دالة على انقسامهم إلى قسمين : بعضهم أهل الأمانة ، وبعضهم أهل الخيانة وفيه أقوال الأول : أن أهل الأمانة منهم هم الذين أسلموا ، أما الذين بقوا على اليهودية فهم مصرون على الخيانة لأن مذهبهم أنه يحل لهم قتل كل من خالفهم في الدين وأخذ أموالهم ونظير هذه الآية قوله تعالى : { لَيْسُواْ سَوَاء مّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيات الله ءَانَاء الليل وَهُمْ يَسْجُدُونَ } آل عمران : 113, مع قوله { مّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون } [آل عمران : 110] الثاني : أن أهل الأمانة هم النصارى ، وأهل الخيانة هم اليهود ، والدليل عليه ما ذكرنا ، أن مذهب اليهود أنه يحل قتل المخالف ويحل أخذ ماله بأي طريق .." (التفسير الكبير / ج4 / ص 261) .

،وسمو أولئك (أمميين أو غوييم) على المصطلح التوراتي ، وأميين على المصطلح القرآني ، واللفظين مؤداهما واحد وهو إعلان مبدأ الخيانة على البشرية جمعاء وبتعليل ديني !

واختيار الأمانة للتدليل عليها ، لأنها مبدأٌ عام يشملُ الكثير من الأخلاق ومن الطبيعي أن من يخرج من منظوره أي بعد لاحترام الأمانة فإن من السهولة أن يحكم عليه عموماً بسوء خلقه ودناءة سلوكه .

يقول ابن عطية:"ومقصد الآية ذم الخونة منهم ، والتفنيد لرأيهم وكذبهم على الله ، في استحلالهم أموال العرب"[1]

إذن فالآية الكريمة كما تبدوا هدفها تصليت الضوء على أمور تخص اعتقاد اليهود في خلق الأمانة وليس وصفاً لسلوكهم وحسب ، بدليل أنها اعتبرت قولهم الكاذب : { **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** } كذباً على "الله" {**وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (75) } وهذه الفاصلة هي ذات الفاصلة التي تلت الآية في نفس سياق الحديث عن فعل آخر لليهود مساوياً له في الجرم قال تعالى : { **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (78) }آل عمران

فكلا الحالتين تزوير للأوامر الربانية مع التبرير لما يلحقها من مسخٍ للفطرة الإنسانية والتعامل الإنساني.

ومن هنا فالآية الكريمة كشفت حقيقة أنَّ أمر الخيانةِ عندهم ليس محصوراً (بالغوييم) أو الأميين وإنما هم خانوا أمانتهم مع الله بتغيير شرعه ونسبة أحكام وأوامر مكذوبة إلى ذاته العلية تتفق مع أهوائم المريضة.

ثانياً : جميع القيم الإنسانية العليا تسقط أمام مصلحة مادية :

نحن نستطيع أن نتصور مقدار ما يمليه العشق المادي على شخص أو مجموعة ما من افتراضات فكرية وسلوكية ، فإذا طال بنا سُلَّمُ الافتراضات حتى أوصلنا إلى أبعد نقطة ، وهو المستوى الذي يخترق فيه أعلى القيم وأهمها وأخطرها لتنال الذات العليّة بكم (قذر) من الافتراءات ، ثم نستفيق من وهم الافتراض على رؤية الحقيقة ، وعَيان الواقع ، وتيقنٍ كامل بما أثبته الذكر الحكيم : {**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (75) البقرة } لم يبق حينها إلا التسليم بالنتائج الوخيمة التي تلحق أصحاب هذه الشخصية في ظاهرة استنزافٍ كامل لبواقي ما كانت تحمله فطرتها من مثُلٍ وقيم قويمة ..

ويكون الحديث عن علاقة القيم مع شخصية كهذه من قبيل العبث والهراء ، ولنا أن نسرح في تأملاتٍ عميقة عن الذي يمكن أن تقدمه الشخصية اليهودية حين تستعمل شيئاً من مصطلحات القيم والمثل أثناء معاملاتها ، لأنه لا يمكن أن يُفهمَ هذا التّصرف إلا على أنه نوع من الحيلة والالتفاف لحصول المنفعة ، وأي منفعةٍ بالطبع تلك التي تكون على الطريقة اليهودية سوى المنفعة المادية العارضة التي تخدم الأنا اليهودي ؟!

[1] ابن عطية / المحرر الوجيز / ج ا / ص 444

وقد يكون إرضاء ما يمليه طبيعة النهج العلمي من استخدام أدلة واستنتاجات مقنعة مغنياً عن القول في هذا الموضع بأن القيم العليا عند الشخصية المادية اليهودية هي مجرد وسيلة لإشباع الرغبات اليهودية الملحة في عشقها للمادة ، لذا أرى أنه يلزم الوقوف – ولو يسيراً - على العلاقة التي تمس الأنا اليهودية بموضوع عشق المادة :

· عشق المادة وآلية الأنا اليهودية :

لا يمكن بحال أن يجتمع أفراد تحت لواء مجموعة ما إلا أن يكون بينهم شيء مشترك يجمعهم حوله ، وهذا الشيء قد يكون انتماء لمكان ما أو طغيان طبع ما (حسن أو سيء) أو رغبة في تحقيق هدف معين أو مصلحة غالبة ، وبإيجاز شديد يمكن القول انه طالما بقي الشيء (الرابط) بين الجماعة قائماً بقيت الجماعة والعكس صحيح ، فلو زال الرابط لم يعد أي بقاء منطقي يجمع أفرادها .

فإذا عدنا لليهود كجماعة فنحن متفقون- على الأقل في وقتنا الحاضر- أن أهم شيء ينظر إليه في إطلاق هذا المصطلح عليهم الآن هو(الطبع) و(الدين).

والدين في حقيقته يُعَد أقوى الروابط التي تحكم مجتمعاً بعينه وقد يغلب أواصر الدم في كثير من الأحيان ، و إلى الآن لم آتِ جديداً ، ولكن إذا أسقطنا ما خرجتُ إليه من نتيجة بحثي في الفصل السابق (مادية مستفحلة لدرجة فقدان خاصية إدراك المعنويات) وبناءً على هذه النتيجة أقمنا افتراضاً آخر هو عدم إدراك اليهودي لحقيقة الدين ، فإن هذا الاعتبار سيخرج بنا من دائرة الافتراض إلى دائرة الإثبات ، لأن الضدين لا يجتمعا ، والدين مكانه الوجدانيات ، أما هؤلاء فقد أشربت قلوبهم مادية (العجل) لدرجة العشق فكيف لهذين الضدين أن يجتمعا ؟!

وما أريد الوصول إليه هنا أنه طالما فقد هؤلاء خاصية استشعار الدين فإن الرابط الديني الأخلاقي الذي يجمع بينهم ساقط ولا وجود له أصلاً .

بقي إذن – في منظوري - يجمعهم شيء واحد وهو هذا (الطبع) المقيت من ناتج تفاعلهم مع المادية ، والمادية في أصلها لا يمكن أن تربط أحداً بشيء روحي إلا أن يكون المصلحة المادية فقط ، فإذا ثبت هذا حقيقةً فإن العامل (طبعهم) لا يصلح أن يقف لوحده كرابط يجمعهم إلا في وصفه الخارجي لما ظهر منه ، أي أن (الطبع المشترك) عندهم لا يتعدى كونه سلوكاً يفضي إلى تحقيق غاية ، ولما كانت الغاية إشباع نهمهم المادي ، فإن طبيعة هذه الغاية أنها متشتتة أصنافاً وأنواعاً كثيرةً يصعب تحديدها لكثرة تشعب المصالح المادية ، ولعل هذا التعليل يصلح لما قررته الآية القرآنية من حقيقة تشتت قلوبهم .

رابعاً : الفكر المادي اليهودي و منطق الصراع :

إذا نظرنا إلى منطق الصراع على أنه ثمرة مباشرة للانغماس في وحل المادية ، ومصالحها التي لا تنتهي ، فبالتأكيد ستكون طبيعة الصورة التي يرسمها المنهج المادي الذي تتزعمه الشخصية اليهودية قائمة على أن العلاقة بين الفرد والفرد داخل المجتمع هي علاقة تنافس وخصومة ، والعلاقة بين الأفراد والمجتمع هي علاقة انتهاز و تربص [1].

إن ثقافة الصراع نتيجة حتمية لعدم القدرة على التكيف ، فإذا كان التكيف مرده إلى عملية دينامية مستقرة يستهدف بها الشخص تعديل سلوكه ليحدث علاقة أكثر توافقا مع بيئته ، فإن ذلك يكمن في القدرة على إيجاد علاقات نافعة بين الفرد وبيئته ، سواءا كانت هذه البيئة طبيعية أو ثقافية أو اجتماعية [2] .

ومن هنا ، فالتكيف الإنساني لا يمكن أن يتم وفق الرؤية المحدودة للمصالح المتبادلة ، لأن افتراض هذا يعني تعريف الإنسان بأنه آلة صماء تتحرك بدينامية ثابتة ، ولو سلمنا بذلك جدلاً ، فليس في مقدور العقلية المادية أن تفسر الجوانب الإنسانية في تفاعلات الوجود الإنساني وعلاقات الناس مع الآخرين ، والتي يظهر فيها أشكال كثيرة ليس لها مكان في قاموس المصالح النفعية المادية .

ولا يمكنُ بحالٍ أن نتعامل مع رؤية التكيف التي يفترضها الماديون إلا بتجريد الإنسان من إنسانيته .

وبمفهوم علماء النفس فإن آلية التكيف تتطلب نفسية سوية ، وقد يكون هناك العديد من الآراء التي حددت الشخصية السوية ، أذكرُ منها :

القدرة على التحكم في الذات / تحمل المسؤولية وتقديرها / التعاون البناء / القدرة على الثقة المتبادلة بين الآخرين / الإنسانية [3] .

ولو أخذتُ شيئاً من هذه المحددات وطرحتها على طاولة المنظور المادي ، مِثْلَ : القدرة على التحكم في الذات ، أو القدرة على الثقة المتبادلة بين الآخرين ، فلن نجد لها مكاناً مهما بلغ بنا التكلف حدّهُ ، فكيف لمن يتحرك بدوافع المصلحة المادية أن يتحكم بذاته ، والتحكم يلزمه رصيد قوي من التعبئة المعنوية ، وكيف لصاحب العقلية المادية أن يثق بمثيله المقابل إذا كان محتوى التفاعل بينهما بيئة انتهازية تحركها مصلحة الأنا الشخصية ؟!

باختصار شديد ، يمكن القول : إنّ خاصَّيةَ التجانس المجتمعي لا تتم إلا بالتفاعل الكامل بين أفراده : [مصلحة ، وقيمة إنسانية تضبط المصلحة]، وإذا كان الماديون يريدون للتفاعل أن يتحدد بجزء المادة فقط ، فهذا التفاعل هو ما نسميه : (الصراع) .

---

[1] - على عكس ذلك فيما يقرره الإسلام من أن طبيعة العلاقة الأفراد جميعا في المجتمع المسلم علاقة الود والرحمة وعلاقة التضامن والتعاون , وعلاقة الأمن والسلام , ويقرر أن القاعدة التي تقوم عليها حياة الأفراد هي قاعدة التناسق بين الحقوق والواجبات , والتعادل بين المغانم والمغرم , والتوازن بين الجهد والجزاء في إطار من الأخوة والتآلف (ينظر: سيد قطب / السلام العالمي والإسلام / ط6 / ص 103) .

[2] - ينظر : د. عبد السلام عبود / ديناميات المجتمع المسلم / سلسلة الإسلام وأبجديات العصر (الكتاب العاشر)/ دار الفكر العربي / ط1 / 1980

[3] - حول موضوع التكيف , ينظر : محمد عماد الدين إسماعيل / الشخصية والعلاج النفسي / ص132-149 / ط1959م / القاهرة / مكتبة النهضة .

إن مادة اليهودي النظرية في تفاعله مع كل شيء في الكون و الحياة هي ما يعرف ب[كيمياء الصراع] وكلنا يعرف قصة اليهود المختلقة حول مصارعة يعقوب مع الرب للحصول على شرف لقب إسرائيل ، فهم حتى في تصورهم لأسلوب الحصول على هذا الشرف - ولن أقول إنهم عجزوا عن تصور يعقوب يدعو بهذا الأمر مثلاً ثم يستجاب دعاؤه - لم تعنهم أذهانهم لاختلاق قصة يظهر فيها يعقوب بعملٍ خيِّرٍ أو نافعٍ أو بطولي يستحق به أن يُكافأ بشرف اللقب ، إلا أن ينتزعه من الرب انتزاعاً ، فمنطق الصراع طال رؤيتهم حتى لعطايا الإله ، وذلك في الحالة التي تفرض عليهم حسابات المصلحة وجود الإله !

ومنطق الصراع والعداوة مستمر ، لأنه- كما يعلله باحثون ومفكرون - نابع من طبيعة الأشياء ، وعندما أتى القرآن على صفات اليهود بين أنها تتسم بالعداوة للبشرية **{ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا }** (64) المائدة ، وأنها تتسم بالعداوة الأشد للمؤمنين **(لَتجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ .. } (82)**
وبمنطق الصراع اليهودي فإننا نستطيع أن نفسر عداوتهم الشديدة للبشرية من منطلق مزاحمتهم في التنافس على المصالح الأرضية المتضاربة التي لا تنتهي ، ويمكن أن نفسر عداوتهم الأشد للمؤمنين من منطلق التصادم بين منهجين متعاكسين في كل شيء [1].

المطلب الثاني : التصور المادي للسلوك الأخلاقي

أولاً : منطلق السلوك الأخلاقي في الشخصية اليهودية :

أبدأ حديثي من حيث انتهت إليه الآية السابقة والتي دللتُ بها على تطور الشخصية اليهودية في مرحلتها المتقدمة **{ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }**، وهنا يعود إلى الذهن سؤال مطروح: إذا كان الدين الذي في أصله قائماً على الدعوة إلى الفضيلة يصير مجرد وسيلة لتبرير الرذيلة فأيُّ معنى بقي منه وهو فاقدُ الاعتبار إلا لتحقيق هذه الغاية الخسيسة ؟!

أيْ أنَّ ما أُريد قوله :هل من الممكن أن يكون عند مَنْ هذه صفته : **{وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }** أيُّ بقيّةٍ باقية لمكانة الدين في قلبه ، أو أثَارةٍ من نفحةِ إيمان ؟

وهذه الفاصلة القرآنية- كما ذكرتُ سابقاً - هي ذات الفاصلة التي أعقبت آية أخرى من نفس السورة وهما الوحيدتان في القرآن اللتان جاءتا بنفس الصيغة ، والآية الثانية جاءت في التحريف اللساني ، وكذلك هناك آيات

1- جاء في كتاب اليهودي العالمي : " .. والاعتبار الأكثر أهمية الآن عندما نتأمل حقائق التاريخ في هذا الصدد ,هو أن مشاعر العداء بين القوميات المختلفة الموجودة في عالم اليوم إنما نشأت كنوع من الاحتجاج ضد طغيان المال اليهودي , الذي مارس نشاطه تحت = = ستار مختلف الأسماء= =والشعارات القومية الزائفة التي جعلت الصدام بين قومية وقومية أخرى أمراً لا مفر منه , مما أفضى إلى نشوب حروب كان اليهود هم السبب في قيامها " . (هنري فورد / اليهودي العالمي / ترجمة علي الجوهري / ص 41) .

كثيرة تصف تحريف اليهود وهو باب كبير يسهل فتحه ويصعب إغلاقه [1]، وإنما يهمني هنا ليس موضوع التحريف بقدر ما هو بيان لما ركز القرآن على إظهاره بخصوص الملابسات المرافقة لهذا الفعل والتي تحدد ملامح معينة لطبيعة هذا التحريف وشخصية منفذيه، وهي -كما أرى- عدة أمور :

· **نموذج سلوكي :**

ملامح الشخصية المادية من خلال طبيعة التحريف اليهودي :

لقد اخترت هذا النوع من السلوك لأنه يشمل بين طياته الكثير من السلوكيات السيئة الأخرى ، فهو يتضمن الكذب ، وشهادة الزور ، وأكل السحت من وراء عوائد المكاسب الخبيثة جراء التحريف ، وخيانتهم لعهدهم مع الله ...

ومن هنا فلعل دراسة هذا الموضوع من القرآن ، يساهم في الوقوف على محددات السلوك اليهودي في مجال الأخلاق :

ملابسات التحريف اليهودي في التصوير القرآني :

يمكن الوقوف على ملابسات التحريف اليهودي من خلال عدة نقاط ، أوجزها بما يلي :

الأمر الأول : أنه تحريف لموضوع هو الأخطر والأكثر فظاعة لأنه يتعلق بالعقيدة وآيات الله وتشريعاته: **{ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (50) }** النساء ، ثم إن بلوغ مستوى التحريف هذه الدرجة كافٍ ليدل على أن :

- هذه الشخصية قد وصلت مبلغاً عظيماً في الاستخفاف بالله وأوامره ، لأنها جمعت مع التحريف للمقدس ، خيانة العهد للأوامر الربانية بالحفاظ عليها وبالتالي فمن المؤكد أن تكون تبعات هذا النوع من التحريف هي الأخطر والأصعب أثراً على الشخصية اليهودية .

- كل شيء يندرج تحت هذا المستوى من المواضيع المحرفة هو أقل شأناً وأسهل فعلاً ، أي أن من وصلت به الجرأة على آيات الله وعهده ، يسهل عليه ابتداءاً أن يزوِّرَ أي نوع من القيم والعهود بل وأي شيءٍ ممكن أن تطاله يد المحرفين ، وليس هناك حاجة إلى مزيد إقناع في إثبات الخلق اليهودي وكما وصفه رب العزة : **{ الذين**

[1] - للمزيد , ينظر على سبيل المثال ما كتبه تقي الدين المقريزي (م845)هجري , في كتابه : تاريخ اليهود وآثارهم في مصر , تحت عنوان : ذكر معتقد اليهود وكيف وقع عندهم التبديل :ص 107 - وكذلك : الرسالة الجامعية بعنوان : (نقض العهود والمواثيق عند اليهود..) دراسة موضوعية / / إشراف : د.أحمد فريد أبو هزيم / إعداد: أرحام فريد السلمان / الجامعة الأردنية / 2002م

عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56) } الأنفال ، و" من " في قوله " منهم " للتبعيض ، لأن العهد إنما كان يجري مع أشرافهم ثم ينقضونه.

أما مناسبة الآية ذكر الطبري أنها نزلت في بني قريظة وقدم هذا الرأي أبوحيان وأكثر المفسرين [1] .

ومجرى سياق الآيات يذكر أنهم شر الدواب { **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** } ، وفي قوله :{ فهم لا يؤمنون } إخبار منه تعالى أنهم لا يؤمنون فلا يمكن أن يقع منهم إيمان ، وقد جاء عن ابن عباس : شرّ الناس الكفار وشرّ الكفار المصرّون منهم وشرّ المصرّين الناكثون للعهود فأخبر تعالى أنهم جامعون لأنواع الشر " !

يقول الرازي : " اعلم أنه تعالى لما وصف كل الكفار بقوله : { وَكُلٌّ كَانُواْ ظالمين } أفرد بعضهم بمزية في الشر والعناد ، فقال : { إِنَّ شَرَّ الدواب عِندَ الله } أي في حكمه وعلمه من حصلت له صفتان : الصفة الأولى : الكافر الذي يكون مستمراً على كفره مصراً عليه لا يتغير عنه البتة .

و الصفة الثانية : أن يكون ناقضاً للعهد على الدوام ... قال أهل المعاني إنما عطف المستقبل على الماضي لبيان أن من شأنهم نقض العهد مرة بعد مرة [2] " .

وقوله { **وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ** } حالٌ من فاعل ينقضون ، أي يستمرون على النقض والحالُ أنهم لا يتقون سُبّةَ الغدرِ ولا يبالون بما تجره عليهم عواقبه قال القرطبي :" أي لا يخافون الانتقام [3] ".

الأمر الثاني : أنه (التحريف) يتم في الوقت نفسه مع سابق تعمد وعلم وإصرار ، فالله سبحانه حين وصف عموم المشركين في مراحلهم المتعاقبة ، قال مثلاً في سورة الأنعام : {**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ....** } أما تتمة الآية فتدل على أنهم ضالون بما توهموه من أساطير توارثوها من غير دليل و لا يقوم بها حجة : {**..قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149)** } الأنعام

أما الآيات التي وصفت تعامل اليهود مع كلام الله فقد تكرر فيها موضوع التحريف على علم[4]، ومنها قوله تعالى : { **أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) } البقرة**

---

[1] ينظر : الطبري/ جامع البيان / ج14 / ص 21 – أبو حيان / البحر المحيط / ج6 / ص 60 - - ابن كثير / تفسير القرآن العظيم/ ج 4 / ص 78

[2] الرازي / التفسير الكبير / ج 7 / ص 420

[3] ينظر : القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج8 / ص 30

[4] ومنها قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) } البقرة , وقال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (77) } آل عمران

وفيها يقول البقاعي : " ولما كان الكذب من عظم القباحة بمكان يظن بسببه أنه لا يجترىء عليه ذو عقل فكيف على الله سبحانه وتعالى ، قال : { **وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } أي ذوو علم فيعلمون أنه كذب .
ولما ادعوا نفي الجناح عنهم فيهم وبين تعالى أنهم لا يتحاشون عن الكذب صرح بكذبهم في هذا الأمر بخصوصه بقوله : { **بلى** } أي عليكم في خيانتهم لتحريم العذر عليكم مطلقاً ، أي سبيل - كما هو في التوراة [1] " .
كما أن هذا السلوك وهو(التحريف) تم كعملية مبادلة سلعة بسلعة فهم باعوا ما عندهم من العلم مقابل عرض تافه ، قال تعالى :{ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (174) } وفي { **يشترون**[2] } يقول الطبري : " وأما تأويل قوله : { **وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا** } فإنه يعني : يبتاعون به ، "والهاء" التي في"به"، من ذكر"الكتمان"، فمعناه : ابتاعوا بكتمانهم ما كتموا الناس ثمناً قليلاً، وذلك أنّ الذي كانوا يُعطَوْن - على تحريفهم كتابَ الله وتأويلهِ على غير وجهه، وكتمانهم الحق في ذلك - اليسيرَ من عرض الدنيا [3] " ، وعند أبي السعود : " أي يستبدلون ويأخُذون { **بِعَهْدِ الله** } أي بدلَ ما عاهدوا عليه من الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم والوفاءِ بالأمانات { وأيمانهم } وبما حلفوا به من قولهم : والله لنُؤمِنن به ولننصُرَنّه { **ثَمَناً قَلِيلاً** } هو حُطامُ الدنيا { **أولئك** } الموصوفون بتلك الصفاتِ القبيحةِ { لاَ خلاق } لا نصيبَ { لَهُمْ فِى الاخرة } من نعيمها [4] " .

ومن هنا فالواضح أن شراءهم تم على علم كذلك بطبيعة ما باعوا وما اشتروا ، ثم هم رغم ذلك فضلوا التافه من الدنيا وحطامها على الخير الذي جاءهم من العلم وإن تصرفاً كهذا (البيع والشراء) هو ترجمة لعملية مقصودها التخلي عما هو غير مرغوب واستبداله بالمرغوب والمحبوب ، وعملية استبدال الأدنى بالخير العظيم يدل على أن هذه الشخصية لا تملك تقدير قيمة الخير الذي تخلت عنه ، وإنما تتجه دوافع محبتها للحطام والتافه واستعظام أمره والسعي وراءه ، فالعشق القلبي للمادة أعمى بصيرتها عن القيمة الجوهرية لحقيقة الأشياء **!!**

الأمر الثالث : أن فعل (التحريف) متأصِّلٌ في الشخصية اليهودية ، بدليل تكرره واستمراره { **أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100)** } البقرة

[1] البقاعي : نظم الدرر : ج 2 / ص 95
[2] أورد الطبري بأسانيد إلى عكرمة وغيره قوله : {إنّ الذين يكتمونَ ما أنزل الله من الكتاب } ، والتي في"آل عمران "{ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا } [سورة آل عمران: 77] نزلتا جميعًا في يهود.ا (جامع البيان / ج3: ص238, رقم : 2497
[3] المصدر السابق / ج3/ ص238
[4] أبو السعود / إرشاد العقل السليم / ج 1 / ص257

وتعليقاً على هذه الآية يقول د. صلاح الخالدي : "والذي يلفت في الآية كلمة (**كُلَّما**) وهي تدل على أن نقض العهد عملية متكررة عند يهود ، فكل عهد يعقدونه يقومون بنقضه ، مهما كان الطرف الآخر الذي عقدوه معه ، لأن (**كُلَّما**)حرف يفيد التكرار والاستمرار ،ويدل على تحقق وتوفر وجود جوابها عند وجود شرطها – **كلما** حرف شرط، وفعلها في الآية:(**عَاهَدُوا عَهْدًا**)- فيتكرر وجود الجواب بتكرر وجود الفعل [1] " .

الرابع : الأسلوب المتبع في موضوع التحريف :

لقد رأينا يقيناً بما لا شك فيه كيف أن طبيعة ما أفرزه العهد القديم لهذه المهزلة الفكرية هو الأسلوب الجاد في طمس أي معنى قدسي يمس الألوهية والأنبياء ، والكتبة - أقصد الكذبة - متلهفون لتوريط مقاماتهم بمختلف الأشكال والمسميات في مسألة ماديّة بحتة بعيدة كلياً عن أي معنى روحي ، مما يظهر بوضوح أن شيئاً واحداً يجمع كل معطيات التحريف ، هو صُبّه في بوتقة (المسخ المادي)، وفي نظري فإن هذه هي أكثر ميزة تظهر صبغة المادية واضحة في الشخصية اليهودية لأنها ترجمة مباشرة لطبيعة الأفكار والتصورات التي أرادها المحرفون .

أما أمثلة التحريف فكثيرة بحيث لا يحصيها إلا من أحصى التراث الإسرائيلي طولاً وعرضاً ، ولعل ما ذكرتُ سابقاً من نماذج العبث اليهودي في تصورات العقيدة التوراتية كاف لإثباته

وسأكتفي من الرصيد التحريفي في هذا المقام ، بتذكيرٍ بسيط لأشهر كتبهم المعروف (بالتلمود) والذي يعرفه الكثير أنه حصيلة التصورات اليهودية اتجاه العالم والإنسانية ، ووجه التحريف فيه معروف وهو أنه ابتداع كامل على الطريقة اليهودية ، وفي نفس الوقت يحمل صفة القداسة المطلقة ، حتى أنه عند الكثيرين منهم يرتفع بقدره على الكتاب الأم (التوراة) وتعتبر تعاليمه أوامر ملزمة بالاتباع [2] ، وهو يصلح كدليل ملموس على التحريف بدون أدنى محاولةٍ من جهد لأنه باعتراف اليهود أنفسهم لا يعتبرونه من الله أو من نبي وإنما من صنع الحاخامات ورجال الدين باتفاق ، والملفت في هذا الكتاب أننا لا يمكن أ ن نستثني شيئاً منه لا يحمل أصالة القسوة المتحجرة أو التصور الوثني أو التشويه الحاقد لكلِّ معنى غير مُعرَّف بأجندة القيم المادية !

---

[1] د. صلاح عبد الفتاح الخالدي / الشخصية اليهودية من خلال القرآن الكريم / ص 224

[2]- ومن أقوال التلمود :

-المشينا والجمارا (التلمود) كالخمر المعطر

- ان تعاليم اللاهوتيين في التلمود أطيب من كلام الشريعة (التوراة)
- من يسفك دم الكفار بيده يقدم قربانا مرضيا لله , قال الرباني عازار : هكذا يعني يسوع واتباعه ..

.(للمزيد : ينظر : تعريف اليهود في فضح التلمود , تعاليم الحاخامين السرية / الأب أي. بي. برانايتس / إعداد: زهدي الفاتح / دار النفائس , د. عبد الوهاب المسيري / اليد الخفية / دار الشروق / ط98 م) .

* مراجع مهمة عن التلمود (للفائدة) : يقول د. احمد شلبي: " بين أيدينا مرجعاً يعد مصدراً أساسياً عند الحديث عن التلمود , ذلك هو (الكنز المرصود في قواعد التلمود)ومؤلفه (الدكتور روهلنج) الذي كان مدرسا بجامعة (براج) , وقد ترجمه من الفرنسية إلى العربية د. يوسف نصر الله , ومرجع اخر وثيق الصلة به وهو (التلمود شريعة إسرائيل) , (ينظر : د. أحمد شلبي / مقارنة الأديان : اليهودية (1) / ص249) .

يقول الباحث و المتخصص في الأديان د. جوزيف باركلي : " بعض أقوال التلمود مغالٍ ، وبعضها كريه ، وبعضها الآخر كفر ، ولكن تشكل في صورتها (المخلوطة) أثراً غير عادي للجهد الإنساني ، وللعقل الإنساني وللحماقة الإنسانية [1] " .

ويعلق المتخصص خوري بولس حنا على التلمود بالقول : " ما يحويه التلمود في حديثه عن العرب والمسيحية وحتى الأسفار ، خالية من الكلمات ذات المعنى الإنساني [2] "

ومن الملابسات السابقة – وقد يكون غيرها - التي ميزت التحريف التوراتي كما أظهرتها الآيات الكريمة ، ما يثبت أن الشخصية اليهودية تبلورت حتى أنتجت شخصية مبتدعة في صورتها للكفر وليس مجرد مقلدة لصور من سبقها من الوثنيين ، حيث أن قلب صورة الدين قلباً كاملاً ليصبح الطريق إلى المادة أفقدها أدنى إحساس لما يمليه طبيعة التدين في ضبط الأخلاق والقيم ، وبالتالي عزز مقولة[3]أن استفحال المادة بصورتها الكاملة لم يأتِ كمتمم للرغائب والشهوات ، ولكن كبديل جديد حل محل غريزة التدين !!

المبحث الثاني : التصور المادي للنظام الاجتماعي :

المطلب الأول : التصور المادي للقيم الاجتماعية :

إن القيم مفهوم واسع لا يمكن تأطيره إلا في حيز وجوده الاجتماعي ، فالقيم عبارة عن مبادىء سلوكية يتم من خلالها بلورة الأهداف الفردية والمجتمعية وهي مستمرة في الوجود لأنها قائمة على العاطفة إذ يرى المجتمع أن أي هجوم على قيمه السائدة هو تهديد كبير أقوى من الانحراف العقلي عن المعايير [4]

وحيث أن القيم على الصعيد الاجتماعي هي الموجه لسلوك الفاعلين بوصفها هدفاً يعمل للمحافظة على نمط معين للمجتمع ، فإن المقاييس التي تنبثق من جماعة ما تكون بمثابة موجهات للحكم على الأعمال والممارسات المادية والمعنوية ، ويكون لها من القوة والتأثير في الجماعة بما تحويه من صفة الضرورة والإلزام والعمومية[5] .

---

[1]- د. جوزيف باركلي / التلمود وتعاليمه / ص27- 28

[2] ينظر التعليق في كتاب : همجية التعاليم الصهيونية / خوري بولس حنا , نقل عنه : خليل حسن جابر / بنو إسرائيل والإفساد الأول والثاني / دار المحجة البيضاء / ط2 / ص 75

[3] هذه المقولة تبناها الشيخ البهي الخولي في طرحه عن موضوع بني إسرائيل في القرآن , ولم أجد من الكتّاب والباحثين من علق على هذا الموضوع بالذات بهذا الوصف الدقيق والبديع كالذي عند الخولي رحمه الله .

[4] باري شوكرمان /علم الاجتماع (النظرية والمفهوم) / ترجمة وتعليق : د. محمد غريب / ط5 / ص 191

[5] ينظر : عقيل نوري محمد / الفعل الاجتماعي (دراسة تحليلية) / ط1 / ص 85

والذي أراه أنه مادامت موجهات الأفراد السلوكية حينما تتجمع تشكل محددات عامة لما هو مرغوب أو غير مرغوب ثقافياً وعقدياً داخل التنظيم الاجتماعي - على الأقل في النمط الغالب -

فإن تحديد طبيعة القيم المعتبرة في (النسق الاجتماعي اليهودي) واضح للغاية ويسهل تناوله على الرغم من التعقيدات المتشابكة لملف الشخصية اليهودية منفرداً ، وذلك لأن أهم معلمٍ يجمع المسمى اليهودي هو (الطبع السائد) والذي دائماً ما يظهر بلونه الفاقع جداً بين التجمعات البشرية على اختلافها .

أما العلاقة بين التصور القيمي عند المجموع اليهودي والإفراز المادي لهذه القيم فيمكن أن نلاحظه في التناول القرآني له من خلال المعايير الأساسية التي رسمها القرآن لتقويم الاختيار .

وبصياغة أخرى فإننا من منظار القيمة الأساسية للفعل القرآني الاجتماعي يمكن أن نقيس مباشرة نسبة المعيار المادي للقيمة الاجتماعية الضابطة للسلوك اليهودي :

أولاً : المعيار اليهودي للقيم الاجتماعية :

يمكن أن يُعرَّف المعيار بأنه : قاعدة مشتركة بين أعضاء جماعة اجتماعية يتوقع أن يشتركوا ويتطابقوا فيها وتقوى عن طريق الحدود والجزاءات السلبية والإيجابية إن المعيار القرآني يبدأ من حيث تحديد الهدف لأنه أبعد ما يكون عن العبثية والعشوائية .

وحيث أن الهدف العام الذي حدده القرآن ليجمع حوله كل القيم على الصعيد الفردي والاجتماعي هو (رضا الله) يمكننا أن نلاحظ أن هذا الهدف هو هدف (غيبي) ومثل هذه الغيبية في الهدف من شأنها أن تديم حالة التواصل في الفعل محافِظةً بذلك على النمط القرآني الذي يسعى إليه في صياغته لعملية التفاعل الفردي والمجتمعي ، فإن معيار القيم في هذه الحالة يتركَّزُ في أمرين هما : الإيمان والعمل الصالح [1] ، وهذا يفسر تقديم القرآن النموذج المعاكس لهذه المعايير على أنه النموذج اليهودي .

أي أن استثارة كوامن الفطرة بتنفيرها من العواقب السيئة على المجتمع يتطلب تقديم تلك الصورة المنفرة في الواقع نتيجة عدم مسلكها التصور الصحيح ، وأفضل نموذج يمكن أن يقدم هو النموذج المعاكس لهذه المعايير ،والذي يشكل نقيض الهدف الغيبي (النموذج اليهودي).

ومن هنا أستطيع القول : لقد قدم لنا القرآن صورة كاملة للهيكل البشع الذي ركبته القِيَم اليهودية في تصورها للمجتمع ، حين أثرانا موضوعياً بما يثبت أن اليهود فاقدون لأهلية النهوض بالمجتمعات نحو الصلاح والخير للإنسانية حيث كان يقع تصنيف اليهود في التعامل القرآني مع الكفار على أنهم الصنف الأشد عداوة للمؤمنين

[1] المصدر السابق / ص 85

كما ذكرت سورة المائدة ذلك صراحة { **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الْيَهُودَ** .. (82) }المائدة ، وهم الصنف الأشد عداوة للمنهج القائم على العقيدة الغيبية كما أظهرته سورة البقرة حين رسمت هذا المنهج . والجماعة المسلمة بتحركها الإيجابي المستمر نحو الإعمار والبناء من منطلق الإيمان بالغيب ، لا بد وأن تواجه من المختلفين معها بهذا المنطلق عداوة شديدة ، وهذه العداوة تتفاوت زيادة ونقصاناً بمقدار الاختلاف في المنطلق ، أي أن الكافر الذي يؤمن بمجموعة من القيم الروحية - فعلى تحريفها – تبقي جسراً من التواصل الذي يحفظ لغة التخاطب الإنساني ، والطبيعي أنه كلما قلت نسبة الإيمان بقيم إنسانية مشتركة قلت مساحة التعايش وزادت مساحة العداء

ويمكن أن ننطلق من المفهوم العام للبناء الاجتماعي– والذي هو[1] عبارة عن نسج من العلاقات الاجتماعية المستقرة الدائمة في المجتمع التي تبدو على هيئة أنساق متبادلة التأثير والتفاعل ، في الوظائف بين الجماعات وبين الأفراد الذين تنظم علاقاتهم وتحدد أدوارهم المتباينةِ المواقف ، بقواعد وإجراءات اجتماعية معقدة[2]، تتفاعل داخل نطاق الجماعة أو المجتمع بطريقة فيها الكثير من الانسجام والاتساق - كمنظار أولي نحدد من خلاله أهم المعالم لتصور الشخصية اليهودية داخل مجتمعها على اختلاف ظروفه وطبيعة أفراده ، حيث أن أقوى الاعتبارات الخاصة في التركيب المجتمعي هي طبيعة التفاعل داخله ثم الناتج عن هذا التفاعل هل هو صعود نحو البناء أو هبوط نحو الهدم ، ولن أدخل في الملابسات الجزئية والنظريات التجريبية التي قد تبعدنا عن صلب الموضوع ، وأبقى حول المفاهيم التي عالجتها الآيات القرآنية وهي تطرح موضوع الشخصية اليهودية وطبيعتها داخل المجتمع ، ولعل أبرز ما تناولته الآيات الكريمة حول هذا الموضوع هو تصوير المشاهد التي تعتري اليهودي أثناء الحرب والمواجهة قديماً وحديثاً - كما حدث في "قصة طالوت" في سورة البقرة ، و"غزوة بني النضير" في أوائل سورة الحشر- لا لمجرد إخراج الجبن اليهودي المتميز وحسب ، وإنما لإظهار الكثير من الطباع اليهودية المرافقة في تعاملها مع محيطها ومجتمعها ، والسبب الذي أراه في الاختيار القرآني لمشهد (المواجهة) في تحديد طبيعة النفسية اليهودية ، أن الحقيقة غالباً ما تظهر متجليةً بوضوح حين تتعرض لفتنة الصدام المباشر وما يخالط ذلك من محن وأزمات ، كما أن التفاعلات

---

[1] - د. عبد الفتاح تركي / البناء الاجتماعي للأسرة / المكتب العلمي للنشر / مصر / ص21 ينظر تعريف البناء الاجتماعي - وكذلك ينظر : أحمد أبو زيد / البناء الاجتماعي , مدخل لدراسة المجتمع / ج2 / ص3 / الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة / ط 1967 , وجاء في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية : هذا النمط المقر لأي نظام داخلي اجتماعي لجماعة ما وتتضمن مجموعة من العلاقات الموجودة بين أعضاء الجماعة ببعضهم البعض , وهو إطار المجتمع كعلاقة منظمة بين الوحدات الاجتماعية المختلفة والتجمعات القائمة على القرابة والنسب والمصلحة المشتركة والمكانة.... (احمد زكي بدوي / معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية / بيروت / مكتبة لبنان / ص697).

[2] يمكن بإيجاز شديد تحديد خصائص البناء الاجتماعي الخاص بأي جماعة اجتماعية , أنها :

- البناء الاجتماعي كيان واقعي واضح وملموس لدى مختلف المجتمعات , وهو ليس بناء فيزيقيا إلا أن واقعيته ووجوده واضحة مثل وضوح الظواهر الفيزيقية .
- يتميز أي بناء اجتماعي بصفة الاستمرارية
- يتضمن البناء الاجتماعي العلاقات الاجتماعية وقواعد السلوك وأنماطه المرتبطة بالبناء والتي لا تحدث في فراغ بطريقة مستقلة أو عشوائية (للمزيد : محمد علي / أسس علم الاجتماع / طبعة الإسكندرية / دار المعرفة الجامعية / 1985م/ ص268).

النفسية تتسارع في ساعة الشدة وتكشف عن كم أكثر من الطباع في الوقت نفسه ، بما يخدم البلاغة القرآنية التي عودتنا غنى المادة التعبيرية بلفظ قليل

وقبل أن أستعرض النوذجين المذكورين في سورة البقرة والحشر ، أفضل الحديث عن ميزة جديرة جداً بالاهتمام وهي ظاهرة (التحوصل اليهودي) داخل المجتمعات ، و لاشك أنها ذات علاقة وثيقة بنظرة اليهودي لمحيطه ، ويمكن من خلال دراستها التوصل إلى جوانب مهمة في تصب عمق الشخصية اليهودية وعلاقتها بالمادية .

نموذج (1) في قياس طبيعة التصور اليهودي

ظاهرة العزلة اليهودية في المجتمع ، وعلاقتها بالتصور المادي :

عندما يُقال فرضاً إن شيئاً أو عنصراً ما في حال خلطه مع عناصر أخرى ، يكون ناتج ذلك أنْ لا يتّحدا معاً بأي صفة مشتركة ، فإننا نحكم فوراً بعدم تجانسهما في التركيب ، وهذا مفهومُ بصورة طبيعية لأن تعليله واضح ، ولكن كيف لنا أن نفهم كون مجموعة من البشر أينما وُضِعت لا يمكن أن تتعايش مع غيرها من الجنس البشري على فرض أنهم مشتركون معاً في الصفات الإنسانية ؟

ثم إذا أردنا تقييم الطبع اليهودي في المنظور الاجتماعي فبأي مسطرة سنقيس ؟

لا شك بداية أن نبدأ من البند الذي اتفق عليه مختلف المجتمعات في وصفهم ، وسأمر عليه يسيراً لأنتقل إلى المقياس القرآني في تمييز المجتمعات بعيداً عن العرف الموجود الآن في الحضارة الغربية القائم أصلاً على منظومة مخلخلة للمجتمع تحصر اهتمامها في مظاهر وقشور ، ولا تلتفت إلى القيمة و الهدف .

أما الذي تتفق عليه المجتمعات فهو الإقرار بالعزلة اليهودية عن التركيب المجتمعي عموماً بغض النظر عن طبيعة هذا المجتمع أو ذاك ، ويكاد المحللون لهذه الظاهرة يقتربون من تعليل واحد لها وهو الشعور اليهودي بالتعالي على الآخرين[1] .

والمطلع على أدبيات الشعوب ومنها الشعوب الأوروبية ، يجد أن النظرة إلى اليهود كانت مستندة إلى إرث هائل من التصورات السلبية المتبادلة التي خلفتها ظروف العزل والفصل ، والنَّفَس اليهودي المختلف دائماً عن طبيعة مجتمعه ،حيث يعيش اليهودي بنَفَس الصراعات التي فجرتها المسائل القومية والاجتماعية والطبقية، ومثالاً عليه أستشهد بما يعرف بنظريات غراتنوار (Grattenauer)

---

[1] ينظر على سبيل المثال ما كتبه هنري فورد / اليهودي العالمي / ص53 تعريب خيري حماد / وكذلك ما كتبه زكي شنودة في كتابه : المجتمع اليهودي , بعنوان : غرور اليهود وتعصبهم / ص 329

حوالي العام (1800) م التي استوحى العديد من المفكرين آراءهم منها ، فقد رأت في اليهودية سمة سيكولوجية وثقافية وعيباً يمكن التخلص منه![1]

ولو عدنا أكثر للوراء لوجدنا أن كلمة يهودي قد أخذت في أذهان أمم العالم معنىً كريهاً منذ وقت مبكر ، فقد جاء عند الحديث عن قصة (أستير) وعيد البوريم [2] : " أن كل كافر في تلك الأزمان كان يدعى يهودياً"

وحتى أسير مع الموضوع بزواياه المختلفة يبقى أن أنقل بصورة موجزة عملية التكيف النفسي كما هي لدى علماء النفس حيث نجدهم يعتبرون الدافع للتكيف يتم بصورة تلقائية طبيعية، ولئن كان التكيف البيولوجي تغييراً يطرأ على الجسم دون علم أو إرادة منه ، فإن التكيف النفسي يلجأ إليه الفرد قاصداً تحقيق التوازن المطلوب مع محيطه و إشباع حاجاته ، وتحقيق أهدافه ، وهذا قد لا يعني بالضرورة مسخاً للهوية أو الذوبان ، ولكنه التصرف الإنساني الطبيعي الذي يقوم به الفرد تحت مبدأ التعايش والتفاعل الإيجابي مع محيطه ومجتمعه .

و يؤكد علماء الصحة النفسية كذلك أن "نجاح التكيف يتوقف على مدى تكيف الفرد مع ذاته ، ويشبهونها بحال السعادة تنبع أولاً من داخل الفرد ، ثم تنعكس بعد ذلك على بيئته [3] "

و لنعد بصورة أخص نحو النزعة الفردية المتطرفة ، الأقرب لفهم سلوك الشخصية اليهودية ، وبالتأكيد فإن الصورة التي عرضها علماء النفس لطبيعة التكيف تختلف عما هي عند اليهودي ، وبمعنى أدق هناك خلل واضح في برمجة التكيف داخل النفسية اليهودية ، أما مكان هذا الخلل فيمكن وصفه نظرياً بأنه عائد لفقدان التوازن الذي سببه (الفراغ المعنوي) الحاصل عند اليهودي نتيجة حلول (فيروس) عشق المادة مكانه مما أفقده أهم أدوات الاتصال والتعايش مع المجتمع الإنساني كنتيجة طبيعية .

يقول محمد قطب : "حين تفسد فطرة الفرد ، ويحس بوجوده الذاتي إحساساً مبالغاً فيه،يكون قد اعتدى على الآخرين اعتداءاً مؤكداً ليحقق لنفسه أكثر مما ينبغي من المتعة الفردية الأنانية ،وهو مع ذلك لا يعتزل المجتمع ولا يعيش وحده متنازلاً عن العون الضخم الذي يستمده من وجوده في الجماعة ، والتسهيلات الهائلة التي ييسرها له مجموع الأفراد ،فكأنه في تبجحه يريد أن يستغل المجموع إلى أقصى درجة ، ثم لا يؤدي نصيبه من التكاليف ![4] "

وما أريد الوصول إليه من خلال التقديم بهذه الفكرة ، أن انعزالية الكيان اليهودي الدائمة هي مظهر له دلالاته على دخائل نفوسهم وطبيعتها التي صبّت عليهم نقمة المجتمع المحيط بهم وسائر المجتمعات على مر العصور ، وعليه فمجرد الوقوف على المظهر لا يفسر الدلالة ولا يخلص إلى التشخيص الحقيقي ، فليس موضوع الانعزالية اليهودية

---

[1] ينظر : دسليمان القعفراني / أزمة الانتماء اليهودي / فصل بعنوان : اليهود في الفكر الغربي / ص160

[2] الشاهد من القصة أورده الدكتور حسن ظاظا في كتابه : (الشخصية الإسرائيلية) ص 30, نقلاً عن التلمود وفقا للمذكور في (مجلة " المجلة" :13 : 71) .

[3] ينظر : محمد السيد الهابط / التكيف والصحة النفسية / تحت عنوان : التكيف النفسي / ص 33 / المكتب الجامعي / الإسكندرية / ط2 / 1985م .

[4] محمد قطب / الإنسان بين المادية والإسلام / ص 141/ ط4

سببه التعالي على الآخرين والنظرة الدونية للغير – كما يذهب إليه الكثير من المحللين – وإنما الحقيقة عكس ذلك تماماً ، فالذي كشفه لنا القرآن الكريم أن هذا ادعاء كاذب سببه الجبن عن مواجهة المجتمع الإنساني بتلك القيم الغريبة عن الروح الإنسانية والتي تصطدم مباشرة مع الفطرة في تركيبها الأولي التي تضع للروح والمعاني حيزها الأصلي في الاعتبار .

ولننظر مثلاً في تكذيب القرآن لهم بخصوص دعوى استئثارهم بحب الله لهم ، والتي شاركهم فيها النصارى كذلك ، يقول تعالى : { **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18)** } المائدة

وفي قوله : { **قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ** } إبطال لدعواهم ، لأن الأب لا يعذّب ولده ، والحبيبُ لا يُعذّبُ حبيبه، أو أن معنى الكلام : فلمَ عذّب منكم من مسخه قردةً وخنازير؟ وهم أصحاب السبت ، فإن صحّ أنكم أبناء الله وأحباؤه فلم تذنبون وتعذبون بذنوبكم فتمسخون وتمسكم النار أياماً معدودات على زعمكم ، ولو كنتم أبناء الله ، لكنتم من جنس الأب ، غير فاعلين للقبائح ولا مستوجبين للعقاب . ولو كنتم أحباءهُ ، لما عصيتموه ولما عاقبكم { **بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ** } من جملة من خلق من البشر { **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء** } وهم أهل الطاعة { **وَيُعَذّبُ مَن يَشَاء** } وهم العصاة[1] .

وقال ابن عاشور : " ليس المقصود من هذا أنّ يَردّ عليهم بوقوع العذاب عليهم في نفس الأمر ، مِن تقدير العذاب لهم في الآخرة على كفرهم ، لأنّ ذلك لا يعترفون به فلا يصلح للردّ به ، إذ يصير الردّ مُصَادَرَة ، بل المقصود الردّ عليهم بحصول عذاب يعتقدون حصوله في عقائد دينهم ، سواء كان عذاب الآخرة أم عذاب الدّنيا .

فهذا يدلّ على أنهم كاذبون في هذه الدعوى ، وهذا البرهان هو المسمى عند الجدليين ب (برهان الخلف[2]) " .

أما بخصوص دعوى استئثار فصيلهم عن باقي البشر بالدار الآخرة فتلك تخص اليهود وحدهم وقد رد عليها القرآن رداً مباشراً ، يقول تعالى : { **قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96)** } البقرة .

هذه الدعوى التي بينتها الآية نوع من الدعاوى الكثيرة والمتنوعة التي يخدع بها اليهود أنفسهم بامتيازهم عن باقي البشر، والسبب في الاختيار القرآني لهذا النوع من الدعوى لتفنيدها هو أن الموضوع المتناول فيها حساس

[1] ينظر : الزمخشري / الكشاف /ج 2 / ص 17 , الشوكاني / فتح القدير / ج2 / ص 286
[2] ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج4 /ص168

وجوهري ، وطبيعة البلاغة القرآنية إبراز الأمثلة الواضحة والصريحة مما يغني عن الدخول في كثير من الجزئيات وإعادة طرحها من جديد ، لذا فالآيات هنا تصلح أن تكون دليلاً قوياً على أن الفوقية اليهودية هي شعور مصطنع مفقود في حقيقته لأنه لو حصل أي موقف يمتحن فيه هذا الادعاء فإنه سرعان ما يكتشف زيفه ويسقط ، وما دمنا في نطاق هذا الموضوع ، سنرى طبيعة الكشف الذي أظهرته الآية القرآنية حين فضحت زيف هذا الادعاء بل و أثبتت ضده :

ومعنى الآية على قول ابن عباس وأكثر المفسرين [1] : إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحبّاؤه، وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم [من] أهل النار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المُباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فلما تيقّنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المُباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه. فعلم كل أحد باطلهم، وخزيهم، وضلالهم وعنادهم ،وقال ابن كثير :[وسميت هذه المُباهلة تمنيًا؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيّما إذا كان في ذلك حجة له فيها بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت [2]

قال القرطبي : "فإن قيل: فالتمني يكون باللسان تارة وبالقلب أخرى، فمن أين علم أنهم لم يتمنوه بقلوبهم ؟ قيل له: نطق القرآن بذلك بقوله " **ولن يتمَّنوهُ أبداً** " ولو تمنوه بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم رداً على النبي صلى الله عليه وسلم وإبطالاً لحجّتهِ، وهذا بيّن [3] ".

إذن فالآيات الكريمة هنا كشفت حقيقة الادعاء اليهودي بأنه كاذب ، و لم تكتف بهذا بل أظهرته بالدليل الواقعي الحي نتيجة ما رافقها من أسلوب التحدي لتتم بذلك الحجة عليهم وفضحهم بأخزى صورة تظهر مخبوء سرائرهم! وأما طبيعة الادعاء اليهودي فإنه يظهر فكراً عنصرياً بصورةٍ بالغةِ التعقيد بما يحملهُ من أبعاد متشعبة عميقة الجذور ، أهّل اليهود أن يكونوا هم الأكثر ترشيحا لاستلام قيادة الترعة العنصرية في العالم ، والسبب داخليٌّ محض ، فاليهودي لا يملك لغة تفاهم إنساني عامة ، لأنه قد أسقط حيز المعاني الإنسانية من كيانه ، أو فقد الإحساس بها لران المادة على قلبه، واليهودي كذلك لا يملك لغة التفاهم بالخطاب الديني لأن طبيعة التدين لا بد وأن يكون فيها ارتباط روحي وجامع يضبط جميع المنتمين له على محاسبة على السلوك ، وهذا غالباً ما يصطدم مع الشخصية اليهودية في خطة رسمها للمصالح ، فلم يبق أي منْفَذٍ للتحرك بهذه المصالح إلا أن تصطبغ بصبغة عنصرية بحتة ، ولو تأملنا في النصوص التي شكلها التصور اليهودي لتشريع نقمته على الجنس البشري ، لاستبعدنا أن يكون المؤلف

[1] قال ابن كثير : هذا الذي فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جرير عن قتادة، وأبي العالية، والربيع بن أنس، رحمهم الله جميعاً (تفسير القرآن العظيم / ج1 / ص 333)

[2] ينظر : الصدر السابق/ ج1 / ص 334

[3] القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج 2/ ص /33

لهذه النصوص مجموعة من البشر تعاقب عليهم أزمنة كثيرة ولتوقعنا أن الموضوع مجرد تفاهات لرجل مختل عقلياً كتبها لحظة مجيء حالة إنفصامه عن العالم ، ومن هذه النصوص ما سطروه ودونوه من نظرتهم التي شملت الشعوب والأمم الأخرى غيرهم حافلة بعبارات السخط واللعنات !

وقصتهم المشهورة التي انتهت بلعنة كنعان ،كما نص عليها سفر التكوين[1]: " ... فقال : ملعون كنعان فيكون عبداً لعبيد إخوته " وكنعان كما تذهب رواية التوراة هو ابن حام بن نوح ، والغريب المضحك في هذه القصة أن تطاله اللعنة بذنب اقترفه غيره ، ويبدو أن اختصاصه باللعنة كان لغرض واضح!

وبالطبع فموضوع اللعنات لم يتوقف على كنعان أو غيره [2] ، وإنما طال جميع البشر ، ففي إشعيا مثلاً : "..لأن الرب بالنار والسيف يخاصم كل البشر ويكون قتلى الرب كثيرين"(أشعيا :66)) ، وفي مزامير داوود : "إن الرب قد اختار يعقوب لذاته وإسرائيل لخاصته "(المزمور 135:4) [3]

يقول السياسي اليهودي جيرالد سومان (S. Gerald Soman) في صحيفة العالم اليهودي الانكليزية : " نحن لا يمكن أن نكون إنكليزا لأننا ننتسب إلى عنصر خاص .

وقال المفكر اليهودي ج. ب . ستيرن (G.B. STERM) مؤلف : DEBATABLBE CROUN : نحن أمة خاصة ، .. نحن أكثر الأمم تعصباً لعنصرنا الخاص [4] "

ولا يمكن قصر ما نراه على أنه مجرد تفسير لحالة "الترعة العنصرية" ، وإنما مظهرٌ للغلو في الفكر المادي الذي يريد أن يسيطر على كل شيء ، ويكسب كل شيء ، ليس الحجر والشجر بل وحتى البشر يجب أن يكونوا وفق (منطق الكسب اليهودي) عبيداً يصلح استغلالهم وبيعهم وشراؤهم .

وقد يكون الفكر العنصري مبرراً أحياناً بين الأجناس تماشياً مع غريزة الأنا وحب الاعتزاز بالأصل والنسب ، ولكنه عند اليهودي هو لغة التخاطب الوحيدة التي يملكها لأنها أقصر طريقة لتعزيز منطقه في التعامل (الكسب) على الطريقة اليهودية المعاكسة قالباً ومضموناً لروح ومصلحة الجماعة ، ولأن الطريقة الأخرى غير مسلك التعصب للجنس لابد وأن تحمل نوعاً من الخطاب الإنساني العام الذي يراعي القيم والروح الإنسانية ، وهذه اللغة لا يفهمها أو لا يقوى على فهمها من يحركه دافع المادة وهواها !

¤ مسألة

---

[1] - ينظر القصة مفصلة : علي عبد الجليل / معالم عنصرية في الفكر اليهودي / ص33

[2] مثلاً: إن سكان جنوب فلسطين في زمن شاؤول , و (سورا) الاسم القديم للشام , تتوالى عليهم اللعنات كما في سفر القضاة: إلعنوا أرض ماروز – اسم مكان في فلسطين – قال ملاك الرب العنوا سكانها ...) الإصحاح 5 / الفقرة 23

[3] - ينظر: زكي شنودة / المجتمع اليهودي /على التوالي : ص327 , ص344 , ص356

[4] ينظر : س . ناجي / المفسدون في الأرض / 1976م / ط2/ العربي للنشر / ص 464

فهل نفهم من التوجه المغالي لدى اليهودي في نظرته المحقرة والمعادية والمستغلة للغير ، ضمانَ صحةِ علاقته مع مثيله اليهودي الآخر ؟

الجواب لا قولاً واحداً ، ولعلي سأعلله من شق واحد فقط تاركاً للآية الكريمة في سورة الحشر [1] أن تتولى ذلك في حينه ، أما ما أراه- وفق فهمي الخاص- فعلى اعتبار أن النمط العنصري المقر للنظام الداخلي الاجتماعي عند اليهودي ملتبس تماماً بالأنانية اليهودية ، وهذه الأخيرة تمتاز بكونها على صلة مباشرة بالمادية التي منبعها - عند اليهودي - صار ذاتياً وليس مكتسباً ، فإننا لا يمكن فهم حدود النفس الأنانية بهذه التركيبة الخاصة إلا صعوبة أو استحالة أن تتوقف عند حد معين ، أي يمكن القول :

في ظل التوافق الحاصل بين دافع الأنا والتعصب العنصري ، حيث العلاقة الطردية بين الشكلين ، فكلما ازداد انحراف سهم المصلحة نحو الأنا الذاتية ازداد التوجه نحو التعصب العنصري ، وبالتالي فإن هذا التعصب غايته بالتأكيد الشعور بالرغبة لإشباع الذات ، وبذلك من السهل جداً ، وفي أية لحظة أن يتوجه الغيظ والعداء من يهودي إلى يهودي آخر عند أدنى منافسة أو عرقلة نحو مكسب مادي أو وسيلة إليه .

ويكفي أن نستحضر الآية الكريمة في سورة البقرة وهي تفضح نوعاً من أنواع نكثهم للعهد ، متعلق مباشرةً بسلوكهم السيئ مع بعضهم لدرجة أن يقتل بعضهم بعضاً : **{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... } (85)** البقرة

أما حديث كتبهم فقد سجل من السلوكيات المخزية ما يفضح كذلك نفاقهم مع بعضهم على أساس العلاقة القائمة على المصلحة الأنانية ، مثلاً ، جاء في سفر إرميا : "يقول الرب : يا ليت لي في البرية مبيت مسافرين فأترك شعبي وأنطلق من عندهم ... لسانهم سهم قتّال يتكلم بالغش ، بفمه يكلم صاحبه بسلام وفي قلبه يضع له كميناً... " إرميا (8:7-34) [2]

وقد يفيدنا طرح هذه المسألة في تصور الحالة التي يتمثل فيها المجتمع اليهودي النقي من العناصر غير اليهودية على أنه لا يختلف في صناعته الداخلية عن الجماعة اليهودية داخل مجتمع آخر ، وإذ خرجنا من هذه المسألة ، فقد يستدرجنا هذا التصور إلى موضوع المادية وفساد المجتمعات :

---

[1] وهي قوله تعالى : (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) 14

[2] كما تبدو وحشية اليهود مع بعضهم في أبشع صورها كذلك فيما فعله قاض آخر من قضاتهم وهو ابيمالك ابن جدعون , إذ قتل سبعين من إخوته ليرث مكانة أبيه مكانة أبيه , فقد جاء في سفر القضاة ((وذهب ابيمالك ابن يربعل (وهو جدعون) إلى شكيم الى إخوة امه , وكلمهم ... ثم جاء الى بيت أبيه في عفرة وقتل إخوته بني يربعل سبعين رجلا على حجر واحد .(القضاة :1 – 5) .
ومنها كذلك قصة آخاب ملك إسرائيل وزوجته إيزابيل مع أليزرعيلى التي وردت في سفر الملوك الأول 21: 1 -16)
ينظر تفاصيل القصة : زكي شنودة / المجتمع اليهودي / ص 336

نموذج (2) في قياس طبيعة التصور اليهودي

الجُبن اليهودي :

إن من الطبيعي ونحن نستعرض ما كتبه الناقدون والباحثون في الشأن اليهودي أن نرى وصف (الجُبن) مندرجاً ضمن لائحة صفات الشخصية اليهودية ، ولكن الإبداع القرآني في موضوع طرحه لقضية الجبن هو بيان الدافع الحقيقي وراء الجبن ، والدافع الذي صوره القرآن لا يختلف أولياً عن أي دافع يجتمع عنده كل الجبناء (الخوف من الموت أو المجهول) ولكن الوصف القرآني بين أن هذا الدافع عند اليهودي هو الأقوى مقارنة مع غيره حتى من المشركين ، لأن له طابعاً يميزه ، لذا جاءت البلاغة القرآنية تبرز هذا الأمر وتفضحه من حيث اختارها عرض هذا الموضوع بصورة التحدي في طلب الموت للكشف عن حقيقة المظهر الديني المزيف الذي يدعيه اليهود ،
والاستخدام القرآني للوصف {أحرص الناس } يدل على أمرين معاً : [أمرٌ سلوكي (فعلي) ملازمٌ لأمرٍ إرادي (معنوي)] ، ويدل عليه ما ذكره الراغب : " الحرص فَرْطُ الشَّره وفَرْطُ الإرادة ..وأصل ذلك من حَرِصَ القَصَّارُ الثوب أي قشَّره بدقّة والحارِصةُ شَجَّةٌ تَقْشِرُ الجلد ..[1] "
وهذا الحرص اليهودي ملموس ومشاهد في الواقع لذا جاء النظم الكريم بالقول :{**ولَتَجِدنَّهُم** } ليدل على أمر مهم ، وهو مدى اهتزاز مفهوم (الغيب) عند اليهودي حتى لا يكتفي بشعور الخوف منه ، وإنما يوجه طاقته الفعلية الكامنة على الهروب منه في كل الأوقات ، وأي شيء أعمق في الجبن من أن يكون فكر صاحبه قائماً على حصيلة فارغة من القيم الغيبية ، ولا يخفى على أحد مقدار ما يعطيه الإيمان بالغيب من قوة معنوية تدفع على العزيمة والشجاعة ورفض الخنوع ، ولنا أن نتصور إنساناً لا تغدو المؤثرات الخارجية مصدر خوفه ، وإنما تركيبته النفسية المعجونة بأخلاط الخوف من كل غيبي ومجهول هي مكمن الداء ، وأظن من السهل تشخيص هذه الحالة على أنها مرض المادة - الذي يضاد كل الغيبيات ويقضي على المعنويات - دافعهم الرئيس للجبن .

¤ مسألة:

كيف نفهم الجبن المتولد عن الفكر المادي اليهودي بأنه جبن خالص من أي بقية لبواعث الشجاعة ؟

إذا كانت الشَّجاعةُ شِدّة القَلْبِ في البأْس[2] ، فمن المعلوم أن الدافع للشجاعة هو أمر معنوي بكل المقاييس ، فبواعثها فلا تخرج عن أن تكون حميةً جاهلية أو عصبية قبلية أو نصرة لدين أو فكرة أو معتقد ، بدليل أنها وصف مرتبط بالقلب ، والقلب حين يوجه الإنسان بدوافع معينة فلا بد أن يتحرك بإيقاع الفكرة التي تغذيه ، ويعود

---

[1] الراغب الأصفهاني / المفردات / ص121
[2] ابن منظور / لسان العرب / ج 8 / ص 173

سؤال مطروحٌ إلى الذهن: على افتراض وجود شيء من الشجاعة عند اليهودي ، فبأي نوع يمكن أن نصنف الباعث المولد للشجاعة لديه ؟

يمكننا أن نجيب على هذا بسهولة إذا أخذنا بعين الاعتبار الخواص التي تميز اليهودي عن غيره ثم نرى إلى أيها يكون الدافع الأقرب في بواعث الشجاعة ، فيكون ما توصلنا إليه جامعاً للجواب مع الدليل عليه ، و خشية التكرار لن أتعرض في تفصيلات الأمثلة ، وإنما سأنطلق من نتائجها وصولاً للمطلوب:

فعلى احتمال أن يكون الباعث حميةً فهذا ساقط لسبب أن الرابط القلبي بين المجموع اليهودي مشتَّت وأما الفكرة والمعتقد فمنطلقها ليس دينياً بالتأكيد ، لأن اليهودي لا يقبل الإله إلا بصورته المشوهه والممسوخة التي يقف فيها الإله ليعفيه أصلاً من كل عهد والتزام ديني ، أي أنه في حلٍّ من التبعات الدينية التي من الممكن أن تترك أثراً في البواعث المحركة داخل نفسه ، وأما العصبية القبلية ففي زمان مضى نعم [1]، لكن مع تعاقب القرون لم يعد لنقاء العرق بواقي صدَفٍ ولا قشرة ، بقي إذن المدار الذي يجمع قلب كل يهودي وهو طبيعته المتعشقة للمادة ، وبما أن هذا الطبع خالٍ تماماً من أي صفة معنوية ، وقد سبق الاتفاقُ على أن باعث الشجاعة يلزم كونه معنوياً ، وصلنا إلى نتيجة أن باعث هذه الصفة عند اليهودي صار منتفياً تماماً ، فلا شجاعة أبداً ، بل وانتفاء تام من أي احتمال لمبعثٍ الشجاعة ، وإنما هو الجُبن الخالص والصافي من غير أخلاط ولا تعكير !!

ثانياً : نماذج قرآنية تكشف جوانب ومعايير من المادية اليهودية :

استناداً إلى التنوع القرآني في عرض المواقف وحيثياتها المختلفة زمانياً ومكانياً ، و من ثم الخروج بها من حدود الزمان والمكان إلى إدراك المغزى و استنتاج العبر ، فإننا بالتأكيد لن نتعامل مع المشاهد المنتقاة من ميدان الحدث اليهودي بالأفق القصير لدلالة الكلمة ووصفها وإنما باعتباره (ظاهرة) قابلة للتعميم على كل المجتمعات التي توالى فيها الوجود اليهودي ، و أرى أننا لن نواجه اعتراض النهج العلمي في ذلك ، على اعتبار أن المواقف اليهودية التي أظهرت تفاعل الحدث في القصة متشابهة في كل مرة ، وهي كذلك ثابتة فيما تقدمه مدرسة الصياغة اليهودية للمجتمعات :

النموذج الأول :

[1] (للفائدة) : حول توجيه طاقة القومية والعنصرية للإسلام , ينظر : "الأعمال الكاملة " جمال الدين الأفغاني ج2 / ص 40 , دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة / ط بيروت /1981م / , كذلك : معالم المنهج الإسلامي / د. محمد عمارة /المعهد العالمي للفكر الاسلامي / 1981م / ص 191

يقول تعالى في سورة البقرة : { **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آَيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آَلُ مُوسَى وَآَلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248)** } البقرة

وجه المناسبة بين آيات هذه القصة[1] وما قبلها هو أن الآيات التي قبلها نزلت في شرع القتال لحماية الحقيقة وإعلاء شأن الحق وبذل المال في سبيل الله لعزة الأمم ... وهذه القصة " قصة قوم من بني إسرائيل" تؤيد ما قبلها من حاجة الأمم إلى دفع الهلاك عنها ، فهي تمثل لنا حال قوم لهم نبي يرجعون إليه وعندهم شريعة تهديهم إذا استهدوا ، وقد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم بالقهر كما خرج أصحاب القصة الأولى بالجبن[2] .

يقول البقاعي : ".. ولما كان عندهم من الغلظة ما لا ينقادون به إلا لإنالة الملك وكان القتال لا يقوم إلا برأس جامع تكون الكلمة به واحدة قالوا : { ابعث لنا } أي خاصة { ملكاً } أي يقيم لنا أمر الحرب {نقاتل} أي عن أمره { في سبيل الله } أي الملك الأعلى . قال الحرالي في إعلامه أخذهم الأمر بمنة الأنفس حيث لم يظهر في قولهم إسناد إلى الله سبحانه وتعالى الذي لا تصح الأعمال إلا بإسنادها إليه فما كان بناء على تقوى تمّ ، وما كان على دعوى نفس انهدّ ...[1] " .

ويمكن في هذا المقطع من الآيات الكريمة تسليط الضوء على ما يلي :-

- المادية اليهودية و المعايير المعتبرة لاختيار الملك :"

لم يكفهم قيادة النبي لهم وهو المؤيد من الوحي حتى يطمئنوا ويسلموا أمرهم وتقوى عزائمهم فيكون دافعاً لهم على الإقدام والطاعة[2]، ولكنهم اشترطوا لقتالهم أن يبعث لهم ملكاً ، ثم ظهر -كما بينت الآيات كذبهم- وقد

---

[1] جاءت قصة طالوت في التوراة تفضح الجبن اليهودي وتذكر أن غالبية الشعب كانوا من المتقاعسين عن حرب أعدائهم ,وفيها ما نصه : (وجمع الفلسطينيون جيوشهم للحرب فاجتمعوا في سوكوه التي ليهوذا , واجتمع شاول ورجال اسرائيل في وادي البطم واصطفوا للحرب للقاء الفلسطينيين , وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبل من هنا , وإسرائيل وقوفاً على جبل من هناك والوادي بينهم , فخرج رجل مبارز من الفلسطينيين اسمه" جليات" فوقف ونادى صفوف إسرائيل وقال لهم .. اختاروا لأنفسكم رجلا ولينزل إلي , فان قدر ان يحاربني ويقتلني نصير لكم عبيدا , وان قدرت عليه أنا وقتلته تصيرون انتم عبيدا وتخدموننا .. أنا عيرت صفوف إسرائيل هذا اليوم . اعطوني رجلا فنتحارب معا . ولما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطيني هذا ارتاعوا وخافوا جداً .. وكان الفلسطيني يتقدم ويقف صباحا ومساءا أربعين يوما .. وجميع رجال إسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جداً "(صموئيل الأول 1:17-24).
... وجاء صبي صغير بعد ذلك من رعاة الغنم وضربه بحجر في رأسه بمقلاع فقتله . وكان هذا الصبي هو داوود الذي أصبح ملك اليهود فيما بعد " (صموئيل الأول 14:17-58)

[2] ينظر : الزمخشري / الكشاف / ج1 / ص319

جاء في موسوعة المصطلحات اليهودية ، ما يلي : " ذهب شيوخ العبرانيين إلى زعيمهم صموئيل ، وطلبوا إليه أن يجعل لهم ملكاً يقضي لهم كسائر الشعوب ، وقد حذرهم صموئيل من أن الملكية في تصوره حنث بالعهد بين الإله والشعب ، ذلك العهد الذي جاء فيه أن بني إسرائيل لن يكون لهم ملك سوى الله ، ولكنه في النهاية توج (شالوت) [3] "

- **اعتراضهم على المَلِك :** يقول ابن عطية : "... ترك القوم السبب الأقوى وهو قدر الله وقضاؤه السابق انه مالك الملك فاحتج عليهم نبيهم عليهم بالحجة القاطعة وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفائه[4]وانه زاده بسطة في العلم وهو ملاك الإنسان والجسم الذي هو معينه في الحرب وعدته عند اللقاء ... ، ثم يقول : ولما علم نبيهم تعنتهم وجدالهم في الحجج تمم كلامه بالقطع الذي لا اعتراض عليه وهو قوله { والله يؤتي ملكه من يشاء } [5] " .

وشاهدي في الموضوع هنا هو أنهم عندما حاجّوا نبيهم بيّنوا سبب رفضهم للمعايير التي اختارها الله للملك وذكروا معاييرهم ، وهي معايير مادية بحتة فلم يكن في منظورهم (التقوى) مثلاً ، أو أي أمر قد يفيد في مواصفات تناسب طبيعة المهمة (القتال) ، وإنما كان معيارهم هو(المال) الذي في نظرهم يقلب الميزان إلى الكفة الراجحة .

- **العلامة على اختيار الملك (التابوت علامة مادية)**[6]:

قال تعالى : **{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ... }**

وذلك عند طلبهم منه حجّة على أنه سبحانه اصطفاه ، فبين تلك العلاقة بمجيء (التابوت) وقد قيل في وصفه وطريقة مجيئه عدة أوصاف لا فائدة فيها [7] ، وأيضا فالمهم أن الآية قد جعلت في إتيانه نعمة أخرى وهي السكينة والطمأنينة ... وهم لم يكفهم كل هذا الجدال لنبيهم وما أجابهم عليه من الحجج القاطعة ، حتى ذكر العلامة

---

[1] البقاعي / نظم الدرر /ج ا / ص 386

[2] قد أجد مخالفة في هذا الرأي , إلا أنني لا أرى مسوغاً لطلبهم الملك على الأقل في هذه الفترة , والسبب أن الملك يحتاج دولة- أو أرض في أدنى قياس – وهم طلبوا الملك قبل توفر الأجواء المناسبة لوجوده , فحاجتهم الفعلية كانت لقائد , لذلك أدى هذا الملك دور قائد الجيش , مع أنه لا مانع من أن يقودهم نبيهم , ولا يوجد دليل معتبر على أنه لا يصلح لهذا الدور – والله أعلم .

[3] ينظر : د. رشاد الشامي / موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية / ص 296 , وكذلك : في قاموس الكتاب المقدس : ص 552

[4] صفوة الشيء خالصة واصطفيت كذا على كذا أي اخترت (مختار الصحاح/ ج1/ ص153) .

[5] ابن عطية / المحرر / ج1 ص 332

[6] يقول د. أحمد لطفي تحت عنوان : (الاستغراق في الطقوس الوثنية) : من يطالع العهد القديم بدقة فلا بد أن يشم رائحة الوثنية التي حرف اليهود إليها دينهم القويم , فجعلوا محور عبادتهم تابوتاً يطلقون عليه (تابوت العهد) ويخصصون فصولاً طوالا في وصف هذا التابوت , ومن الذي يقترب منه , وكيف أن الذي يلمسه يموت ... ويخصصون قبيلة معينة من قبائلهم هم (اللاويون) ليكونوا هم الكهنة حراس التابوت والعهد , المتحدثين باسم الله ! (د. أحمد لطفي / جذور العنف والعنصرية في الفكر الديني اليهودي / ص79) .

[7] ينظر: ابن كثير/ تفسير القرآن العظيم / ج1/ص303-304 , النسفي / مدارك التنزيل /ج1 / ص 12, تفسير السمعاني /ج1ص 251

على اختيار طالوت لهم أمراً مادياً محسوساً (التابوت) وهنا يبرز انفراد شخصيتهم بطابع مادي عجيب خلافا لما هو معهود عند الأمم حتى المتقدمة منها ، فهم لم يسلموا لتلك المعايير في الاختيار إلا بأمر خارق محسوس **!**

- المادية اليهودية وطبيعة الامتحان !

لم يرد الله أن يحقق النصر إلا على أيدي الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله ، تلك الفئة هي صاحبة الموازين الربانية ، ثم إن الله تعالى عاملهم معاملة المختبر، فكان الامتحان الأول الذي جاء به طالوت يُظهر انتصار إرادة وقوة الروح على رغبة الجسد .

ومن الحكمة الربانية أن يكون الاختبار مناسباً كذلك لطبيعة الممتحنين ، وأما هذا الاختبار (النهر) فهو من نوع تطويع النفس على مقاومة حاجة الجسد على شكل اختيار مباشر محدد بين أمرين ، والنتيجة التي أخبر عنها القرآن أن الجميع شرب (سقط) إلا القليل منهم ، وهؤلاء القليل تهيئوا لامتحان آخر ، متعلق كذلك بدرس مباشر في كسر مبدأ التعويل على الكثرة الظاهرة بالمعيار المادي المنظور ، حيث وضعوا أمام جيش يفوقهم عدداً وعدة ، فيقول من أخذ بالحسابات البشرية المجردة : {لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده } ليرد عليهم الصفوة ا لقليلة المتبقية من الأصل من القلة (أصحاب اليقين) بأن الموازين الدنيوية والحسابات المادية فاقدة الاعتبار أمام إرادة الله ومشيئته .

وهذا الدرس العظيم - بما يحمله من العبر والمغازي الكثيرة التي تصلح أن تكون قواعد عامة - جديرٌ بالوقوف والتدبر ، ومن ذلك التصور اليهودي الذي شارك في تشكله المعايير المادية ، وقد ظهر جلياً أنها مشاعر جبانة لا تخرج عن إطار مشاعرهم العامة لأنها لا تضع أمامها إلا الحسابات المادية ولأنها دائما تعلي معيار المادة فتفشل وتسقط أمام كل اختبار فيه تزكية للروح وسمو الفكر { **إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ** } **!!.**

النموذج الثاني :

يقول تعالى في سورة الحشر : { هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2) }

أما مناسبة هذه الآيات الكريمة فقد تعرض لها المفسرون [1] مفصلة بما يغني عن تكرارها .

ولا يفوت أن نلحظ تسمية القرآن ليهود بني النضير بأنهم { الذين كفروا من أهل الكتاب }[1]وتكرار هذه الصفة في السورة ، فهي حقيقةً لأنهم كفروا بدين الله في صورته العليا التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم وقد كان اليهود ينتظرونها ويتوقعونها .

[1] حول تفاصيل حادثة بني النضير ينظر على سبيل المثال : الطبري / جامع البيان /ج23 / ص262- ابن كثير / تفسير القرآن العظيم /ج 8 / ص56 – السيوطي / الدر المنثور / ج9 / ص447

وذكر هذه الصفة في الوقت نفسه يحمل بياناً بسبب التنكيل بهم؛ كما أنه يعبئ شعور المسلمين تجاههم تعبئة روحية تطمئن لها قلوبهم فيما فعلوا معهم ، وفيما حل بهم من نكال وعذاب على أيديهم .

وجملة { **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ** } عطف على العلة ، أي وهم ظنوا أن المسلمين لا يغلبونهم وإنما لم يقل : وظنوا أن لا يُخرَجوا ، مع أن الكلام على خروجهم ، من قوله تعالى : { **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } فعدل عنه إلى { **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ** } أي مانعتهم من إخراجهم ، والتقدير : وظنوا أن لا يخرجوا لأنهم تمنعهم حصونهم ، أي ظنوا ظناً قوياً معتمدين على حصونهم، فأتاهم أمرُ الله تعالى وقدرُه المقدورُ لهم { **مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ** } و لم يخطرْ ببالِهم أن تسلب قلوبَهم الأمنَ والطمأنينة ....[2]

وفي قوله تعالى :{ **وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهمُ الرعب** } أصل القذف كما يقول الراغب : " الرمي البعيد .. واستعير للشتم والعيب كما استعير للرمي[3] " .

يقول د. فضل عباس : " من كان له أدنى اطلاع ومعرفة في قضايا اللغة يدرك أن كلمة (القذف) تعطي من الدلالة ، وتلقي من الظلال ما لا يوجد في كلمة (إلقاء) .

فكلمة (القذف) إنما تستعمل لما فيه الشدة والقوة والضخامة ، ولهذا يقال : هم بين خاذف وقاذف ، فالخذف هو رمي الخذف ، وهي الحصاة الصغيرة ، أما القذف فلا يكون إلا بما كبر من الحجارة واشتد ضاربه ..[4] "

ويعتبر بعض المفسرين في تحليلهم لسبب اختيار لفظ (**القَذْف**) أنه استعير للحصول العاجل ، أي حصل الرعب في قلوبهم دفعة دون سابق تأمل ولا حصول سبب للرعب ولذلك لم يؤت بفعل القذف في آية آل عمران : { **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ..** } (151) ، والمعنى : وجعل الله الرعب في قلوبهم فأسرعوا بالاستسلام.

وأمر آخر ذكروه ، وهي أن اختيار لفظِ "القذف" أنسب لوضع (الحصون) ، والذي أراه أنه بالإضافة إلى ما ذكر من اللفتات الجميلة ، يمكن القول إنّ الرعب الحاصل في قلوبهم له سببه الواضح ، فقلوبهم أصلاً مهيأةً نفسياً بكل سبب يدخل عليها الرعب ، لأن الرعب داء معنوي وهم مفتقدون للإحساس بكل معنوي أصلاً بدليل الآية : {

---

[1] جاء في الجامع للقرطبي : " الحشر الجمع، وهو على أربعة أوجه: حشران في الدنيا وحشران في الآخرة، أما الذي في الدنيا فقوله تعالى: (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) وكان الله عزوجل قد كتب عليهم الجلاء، فلولا ذلك لعذبهم في الدنيا , وكان أول حشر حشروا في الدنيا إلى الشام, ونقل عن ابن عباس وعكرمة: من شك أن المحشر في الشام فليقرأ هذه الآية، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: (اخرجوا) قالوا إلى أين ؟ قال: (إلىأرض المحشر) , وقال قتادة: هذا أول المحشر ...وقيل: إنهم أخرجوا إلى خيبر، وأن معنى " لأول الحشر " إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخره إخراج عمر رضي الله عنه إياهم من خيبر إلى نجد وأذرعات, وقيل تيماء وأريحاء، وذلك بكفرهم ونقض عهدهم. ,وأما الحشر الثاني: فحشرهم قرب القيامة ..." (القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج18 / ص 2) .

[2] ينظر :سيد قطب /الظلال /ج7 /ص 157- ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج14 / ص 477 - الشنقيطي /أضواء البيان / ج8 / ص176

[3] الراغب الأصفهاني / المفردات / ص398

[4] أد. فضل حسن عباس / إعجاز القرآن الكريم / ط1991م / ص 184- 185

مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا } وحيث أن الحسبان الوارد لا يدخل مفهومه عندهم إلا بالعدّة المادية أخبر الحق سبحانه أن الهزيمة التي تحققت بهم ليس سببها الشيء المتوقع في حساباتهم .

قال ابن عاشور : " وأصل الاحتساب : مبالغة في الحسبان ، أي الظن .

أي من مكان لم يظنوه لأنهم قصروا استعدادهم على التحصّن والمَنَعة و لم يعلموا أن قوة الله فوق قوتهم .

وقَذْفُ الرعب في قلوبهم هو من أحوال إتيان الله إياهم من حيث لم يحتسبوا فتخصيصه بالذكر للتعجيب من صنع الله ، وعطفُه على أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا عطف خاص على عام للاهتمام [1] "

والرعب : أشد الخوف ، أوهو الخوف الذي يملأ الصدر والقلب، وفي لسان العرب الرُّعُبُ الفَزَع والخَوْفُ رَعَبَه يَرْعَبُه رُعْباً ورُعُباً فهو مَرْعُوبٌ ورَعِيبٌ أَفْزَعَه ، وأصله يستعمل في الامتلاء والتقطيع ، يقال رَعَبَ السَّيْلُ الوادِيَ يَرْعَبُه مَلأَه ورعبت الحمامة : رفعت هديلها وشدته : ورعب السنام وغيره يرعبه : قطعه كرعبه ترعيبا فيهما والترعيبة بالكسر : القطعة منه والسنام المرعب : المقطع[2] .

أبقى مع قوله تعالى : { **وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ الله** }فالمعنى القريب المتبادر من هذه الآية : أيْ ظنواً أنَّ حصونهم تمنعُهم أو مانعتُهم من بأس الله تعالى .

نلاحظ من الآية الكريمة أنها جاءت بنظم بديع غاية في الدقة ، لا يكشف عن مجرد وصف الحالة التي كانوا عليها أثناء الحصار وإنما يتعداها إلى فضح خبايا نفوسهم ..

أما في النظم فيقول أبو السعود : " { وتغييرُ النظم بتقديم الخبر وإسنادُ الجملةِ إلى ضميرِهم للدلالةِ على كمالِ وثوقِهم بحصانةِ حصونِهم واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزةً ومنعةٍ لا يُبَالى معها بأحدٍ يتعرضُ لهم أو يطمعُ في مُعازّتهم ، ويجوزُ أن يكونَ مانعتُهم خبراً لأنَّ ، وحصونُهم مرتفعاً على الفاعليةِ }[3] "َ.

وعند ابن عاشور : " وجاءت جملة { **وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ الله** } على هذا النظم دون أن يقال : وظَنُّوا أن حصونهم مانعتُهم ، ليكون الابتداء بضميرهم لأنه سيعقبه إسناد { **مَّانِعَتُهُمْ** } إليه فيكون الابتداء بضميرهم مشيراً إلى اغترارهم بأنفسهم أنهم في عزة ومَنَعة ، وأن مَنَعة حصونهم هي من شؤون عزتهم .

وفي تقديم { **مَّانِعَتُهُمْ** } وهو وصف على {**حُصُونُهُم** } وهو اسم والاسم بحسب الظاهر أولى بأن يجعل في مرتبة المبتدأ ويجعل الوصف خبراً عنه ، فعدل عن ذلك إشارة إلى أهمية منَعة الحصون عند ظنهم فهي بمحل التقديم في استحضار ظنهم .. [1] ".

---

[1] ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 14 / ص 481

[2] ينظر : الزَّبيدي , محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي / تاج العروس من جواهر القاموس / ج1 / ص 527 , ابن منظور / لسان العرب / ج1 / ص420

[3] أبو السعود / إرشاد العقل السليم / ج 6 / ص 296

ولفتةُ ابن عاشور حول "ظنهم" بديعة ، حيث أظهر أن المقصد البلاغي في النظم الكريم إظهار ما تعلق به ظنهم وعوّلوا عليه وهو شيء مادي (الحصون) ، والسؤال المطروح هنا : إذا كانت هذه الحصون هي ملجأهم الوحيد في الخلاص من أعدائهم في الدين ، أين ذهب الإله الذي يؤمنون به ليؤازرهم ؟!

ولكن القرآن كشف عن خبيئة أعظم من فقدان عنصر التوكل والاعتماد على أي قوة روحية من الممكن أن تقوي عزيمتهم ، لقد جاء النظم الكريم ليقول : { **مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مّنَ الله** } وبالتأكيد فإن استخدام لفظ الجلالة (**الله**) هنا له دلالته العميقة و الدقيقة ، وأظن أن هذه الدلالة كما لها علاقة بعلمهم ويقينهم أنهم يحاربون الحق وأهله ومصدره (الله)، فهناك شيء آخر مختص بكوامن نفوسهم يدل يقيناً على أن طبيعة هذه الشخصية مادية إلى المستوى الذي لم تقدر فيه أن تلجأ حتى إلى الإله الوثني المجسم والمفصل على الطريقة اليهودية بصورته النظرية ، بل كان اعتمادها الوحيد على الحصون ، ثم إن البلاغة القرآنية زادت في دقة الوصف حتى أدخلتنا في أعماق النفسية اليهودية وهي تكل للحصون مهمة الوقوف أمام الله !!

فهم أوهموا أنفسهم -من عشش المادية التي في قلوبهم- أنهم بإقامة هذه الحواجز المادية قادرون على أن يمنعوا غضب الله عنهم ، فأي فضيحة أكبر من هذه التي كشفها القرآن وهو يخبر عن طبيعة مرضهم من خلال هذا التمثيل الواقعي الذي أظهر سر هزيمتهم ، وكيف جاء من حيث هو مكمن دائهم وهو القلب ، فكان نوع الهزيمة معنوياً وهم لم يحتسبوها لأن برمجة العقول عندهم لا يدخل فيها حساب المعنوي وهي غير قادرة عليه وهذا يفسر بوضوح مدخل الرعب إلى قلوبهم .

لذا تبعه في نفس الآية تمثيل بديع { .. **فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا** } وفيه " مُثِّل شأنُ الله حين يسّر أسباب استسلامهم بعد أن صمموا على الدفاع وكانوا أهل عِدة وعُدة و لم يطل حصارهم بحال من أخذ حذره من عدوّه وأحكم حراسته من جهاته فأتاه عدوه من جهة لم يكن قد أقام حراسة فيها [2] ".

مسألة التعويل المادي وانهيار المعنويات :

من الأمور المدروسة في إدارة الحروب وسياستها ما يعرف بالحرب الإعلامية أو الحرب النفسية ، وهذه الحرب متعددة الوسائل والطرق ، والغاية منها أن تُفْقِد الخصمَ قوته المعنوية فتنهار قواه النفسية التي تتبعها هزيمته الفعلية ، ولا شك أنّ قوة الإعداد لأي مواجهة مع العدو تتطلب إعداداً معنوياً مماثل للإعداد المادي والعسكري ولربما أكثر، والقاعدة القرآنية تقول :{ **كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ) (249) } البقرة**

---

[1] ينظر : ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 14/ ص 478

[2] ابن عاشور / التحرير والتنوير /ج 14 / ص 480

والعجيب أن هذه القاعدة قد تذوق طعمها اليهود فعلياً في أكثر من واقعة ، وقد تنزلت هذه الآية أصلاً في قصة معركتهم مع جالوت لتشكل تلك الواقعة درساً هو الأقوى لمن أراد أن يتبصر ويعتبر !

وحديثي هنا ليس عن مقدار ما يفعله وباء المادة في تحطيم المعنويات ، فقد يكون إثباته سهل من الواقع الحي الذي تعيشه مختلف الأمم والمجتمعات ، ولكن حديثي في موضوع الشخصية اليهودية هنا بخصوص مرحلة ما بعد فقد المعنويات ، حيث أخبر الذكر الحكيم عن نقطة ضعف خطيرة حاصلةٌ في النفسية اليهودية نتيجة الوباء المادي المتأزم والذي تولد معها انهيار كامل للمعنويات مما أنتج حقيقة جديدةً وهي الخوف والفزع الشديد (الرعب) ، وكان هذا الرعب من النوع الكفيل وحده بإلحاق الهزيمة .

أي بعبارة أخرى نستطيع أن نقول : إن الوباء المادي المستشرف في النفوس اليهودية قدّم لنا هدية مميزة على شكل معونات حربية جاهزة في قتالنا معهم أغنتنا عن أي نوع من الحرب النفسية لأنه - وكما أخبرت الآيات التي نحن بصددها – وفق المنطق الحربي اليهودي فإنّ مكان استمداد الطاقة الضرورية للمواجهة مأخوذ من التعويل المادي فقط ، ولا مكان أبداً للتعويل المعنوي ، أي أن المعنويات منهارة ابتداءاً !

النموذج الثالث :

يقول تعالى :{ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14) } الحشر

لقد جاء سياق هذه الآيات الكريمة في ذم المنافقين واليهود ذماً شنيعاً ، وأضعفت من شأنهم، ويذكر المفسرون أن فيها من الأمثلة ما يجعل المؤمنين يستخفون بهم ، ويجاهدونهم بغلظة وشدة بما كشفته من حقائق واضحة بخصوصهم ، أثبت تعاقب الأزمنة صدقها ودقت وصفها ، وما أريده هو الوقوف على شيء من هذه الحقائق تتمة لما بدأت به في التدليل على أسرار ودوافع الشخصية اليهودية من خلال تبعات ما خلفه قصور شخصيتها على الجانب المادي فقط ، والذي حفلت به الآيات التي معنا بصورة مركزة تخدم الموضوع

وحتى أقترب من الموضوعية أكثر سأتناول بعضاً من هذه الحقائق المتعلقة بما أبدته هذه الآيات الكريمة والتي لها مساس مباشر في جوهر الشخصية المادية اليهودية : [موقف المواجهة]:

- أولاً : قوله تعالى : {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ..}

وفي الآية خطابٌ للمؤمنين بأن هؤلاء يخافونكم أشد خيفة من الله تعالى ، لأنهم يتوقعون عاجل شركم ، ولعدم إيمانهم لا يتوقعون أجل عذاب الله ، وذلك لقلة فهمهم ،

يقول الزمخشري : " فإن قلت : كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشدّ . قلتُ : معناه أن رهبتهم في السر منكم أشدّ من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم - وكانوا يظهرون لهم رهبة[1] شديدة من الله دلالة على نفاقهم ، يعني أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله وأنتم أهيب في صدورهم من الله .. [2] ".

وفي آخر وصف ختمت به الآية {.... **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ** } وفيها جاء التعليل القرآني بوصف سبب الرهبة في صدور هؤلاء اليهود أنهم قوم (لا يفقهون) قدر عظمة الله،فهم لذلك يستخفُّون بمعاصيه ، ولا يرهبون عقابه قدر رهبته منكم !

وأصل الفِقْهُ[3]عند الراغب : :" هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم [4] " ، ويقال : أَفْقَهْتُه ، أيْ بَيَّنْتَ له [5] ".

ومن المعنى الذي ذكره الراغب نفهم أمراً مهماً ، وهو أن هناك حلقة مفقودة في الشخصية اليهودية وهذه الحلقة هي الرابط بين إدراك الغيبي من خلال المشاهد والمحسوس .

وهذا الوصف : **{لَا يَفْقَهُونَ }** ضرْبٌ في عمق شخصيتهم المادية ، حيث شكلت المعطيات المادية التي رافقت المسلمين في إعدادهم العسكري الذي يتم في صورته الطبيعية ، أشد وقعاً على أنفسهم من معطيات السنن الكونية التي اقتضتها العدالة الربانية في تسليط أعدائهم عليهم من مسلمين و غيرهم ، فهل هناك أكثر غباوة وأشد غشاوة من تلك التي غمرت قلوب هؤلاء- المفرطين في عشقهم للمادة - فجعلتهم لا يحسبون إلا للمشاهد أمامهم دون إدراك أبعاده ومقتضياته !!

---

1 رهبة : مصدر رهب المبني للمفعول ، كأنه قيل : أشد مرهوبية ، فالرهبة واقعة منهم لا من المخاطبين ، والمخاطبون مرهوبون ، وهذا كما قيل : فلا هو أخوف عندي إذ أكلمه ... وقيل إنك مأسور ومقتول (أبو حيان / البحر المحيط /ج 10 / ص 251)

2 الزمخشري / الكشاف / ج4 / ص21

3 جاء في الفروق اللغوية : " الفرق بين الفقه والعلم : أن الفقه هو العلم بمقتضى الكلام على تأمله ولهذا لا يقال إن الله بفقه لأنه لا يوصف بالتأمل، وتقول لمن تخاطبه تفقه ما أقوله أي تأمله لتعرفه، ولا يستعمل إلا على معنى الكلام قال ومنه قوله تعالى { لا يكادون يفقهون قولا } وأما قوله تعالى { وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم } فإنه لما أتى بلفظ التسبيح الذي هو قول ذكر الفقه .. قال الشيخ أبو هلال رحمه الله: وسمي علم الشرع فقهاً لأنه مبني عن معرفة كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.(السكري , أبو الهلال الحسن بن عبدالله / الفروق اللغوية / تحقيق : حسام الدين المقدسي / ج1/ ص412)
دار الكتب العلمية / بيروت

4 الراغب / المفردات / ص387

5 الصاحب بن عباد / المحيط في اللغة / ج1 / ص 278

ثانياً: بخصوصِ الجمع والتحصين :

قال تعالى : { لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ .. }

إن الاعتماد المادي الذي ترتكز عليه هذه الشخصية في مواجهة خصومها من أهل الحق هو فقط عددها الوحيدة ، ولها شكل متشابه في كل المرات (القرى المحصنة) [1].

ولو عدنا إلى تحليل هذا التصرف من الناحية النفسية لوجدنا له تعليلاً واحداً وهو استحكام مادي قاهر تولد في قلوب هؤلاء حتى أوصلهم إلى درجةٍ مرضيةٍ حرجةٍ ، أفقدت أصحابها كل روح معنوية من الممكن أن توجد حتى كمجرد رد فعل للأمور الشديدة الطارئة ، والإنسان- وحتى الحيوان - إذْ يدرك لحظة الخطر فإنه يأنس غريزياً للانضمام مع فصيله المشترك معه في ذات الموقف فيتحقق الدفع المعنوي للمواجهة نتيجة الإحساس بالانتماء ، أما لفاقد الروح المعنوية فليس (للجمع) أي تعزيز معنوي نحو روح الانتماء سوى ما تعنيه الأرقام الحسابية من زيادة العدد في رصيد "الإعداد المادي" المضاف إلى القرى المحصنة والنتيجة أنهم يميلون للجمع نعم ولكن بما يضفيه مظهره من كثرة شكلية وهم بعيدون كل البعد عن معنى التآلف الحقيقي ، وهذه حقيقة أخرى كشفتها نفس الآية حول طبيعة الجمع اليهودي :

قال تعالى : { بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى }

فظاهر حالهم أنهم كغيرهم مجتمعين على أمر ورأي ، خلاف قلوبهم [2] المتفرقة ، " وأهل الباطل مختلفة آراؤهم مختلفة شهادتهم مختلفة أهواؤهم ، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحقّ [3] "

قال ابن عاشور : " قد يسأل السائل : كيف ذلك ونحن نراهم متفقين ؟ فأجيب بأن ظاهر حالهم حال اجتماع واتحاد وهم في بواطنهم مختلفون فآراؤهم غير متفقة لأن بينهم إحَناً وعداوات فلا يتعاضدون ... فإذا كان لا يكفي عادة في الاتحاد توافق الأقوال ولا التوافق على الأغراض إلا أن تكون الضمائر خالصة من الإحن والعداوات، و لا تكون أمة ذات بأس على أعدائها إلا إذا كانت متفقة الضمائر يرون رأياً متماثلاً في أصول مصالحهما المشتركة ، فإن الله يكشف أن طبيعة اليهود ليس وصولهم في تقييم مصالحهم إلى درجة الخلاف بل إنها

---

[1] يقول صاحب الظلال : " وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز في « تشخيص » حالة أهل الكتاب حيثما التقى المؤمنون بهم في أي زمان وفي أي مكان . بشكل واضح للعيان . ولقد شهدت الأيام الأخيرة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة . فما كانوا يقاتلونهم إلا في المستعمرات المحصنة. فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان . حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء . وسبحان العليم الخبير! " (قطب / في ظلال القرآن / ج7 / ص 168)

[2] والقلوب : العقول والأفكار ، وإطلاق القلب على العقل كثير في اللغة ' ، (الراغب / المفردات / ص412) , وشتَّى : جمع شتيت بمعنى مفارق بوزن فَعْلَى مثل قتيل وقَتلى / المصدر السابق : ص 285)

[3] العبارة نقلها المفسرون بأسانيد عن قتادة رحمه الله (ينظر : الطبري / ج 23 / ص293 , القرطبي : ج 18 / ص 36 , الشوكاني : ج 7/ ص 149 , السيوطي / نظم الدرر / ج 9 / ص 469)

وصلت إلى درجة التشتت ، فقد شبهت الآيات الكريمة العقول المختلفة مقاصدها بالجماعات المتفرقين في جهات أنها لا تتلاقى في مكان واحد ...[1] ".

والخطاب – كما ذكر المفسرون [2]- لغير معيّن لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يحسب ذلك ، وهذا تشجيع للمسلمين على قتالهم والاستخفاف بجماعتهم .

و في آخر وصف ختمت به الآية { .. **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ** } إشارة إلى ما ذكر من أن بأسهم بينهم ومن تشتت قلوبهم أي ذلك مسبب على عدم عقلهم إذ انساقوا إلى إرضاء خواطر الأحقاد والتشفي بين أفرادهم وأهملوا النظر في عواقب الأمور واتباع المصالح فأضاعوا مصالح قومهم ، وفيه إيماء إلى أن ذلك من آثار ضعف عقولهم حتى صارت عقولهم [3] كالمعدومة فالمراد : أنهم لا يعقلون المعقل الصحيح .

قال ابن عاشور : " وأوثر هنا { لا يعقلون } ، وفي الآية التي قبلها { لا يفقهون } [الحشر : 13] لأن معرفة مآل التشتت في الرأي وصرف البأس إلى المشارك في المصلحة من الوَهن والفتّ في ساعد الأمة معرفة «مشهورة» بين العقلاء .. أي لا يعقلونَ شيئاً حتَّى يعرفُوا الحقَّ ويتبعُوه وتطمئنَ به قلوبُهُم وتتحدَ كلمتُهُم ، فإهمالهم سلوك ذلك جعلهم سواء مع من لا عقول لهم فكانت هذه الحالة شقوة لهم حصلت منها سعادة للمسلمين[4] " .

المطلب الثاني : التصور المادي للسلوك الاجتماعي العام :

يضع اليهودي نفسه أسير الانحلال من الشعور الإنساني للتعامل مع الغير من خلال رصيد كبير من التصورات السلبية البعيدة عن أن تمس أي شكلٍ من الالتزام الخلقي ، كالسرقة والسلب والنهب وعدم رد الأمانات والودائع ، والربا الفاحش وكل وسيلة يمكن أن تستنفد أموال الناس ... إلى غير ذلك من المبادىء اللاأخلاقية السيئة ، وعلى رأسها قتل الأنبياء ودعاة الحق .

ولست بصدد إحصاء المبادىء والأسس اللاأخلاقية في تركيبة المزاج اليهودي، وإنما أريد أن أشير إلى نماذج من أخطر هذه الأسس التي تمس جوهر المادية بشكل مباشر ، من خلال إضاءات على دراسة الدوافع والأسباب الداعية وراءها :

أولاً : المادية اليهودية ونزعة التمرد :

---

[1] ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج15 / ص 7

[2] ينظر : الرازي / التفسير الكبير / ج15 / ص 305 , أبو السعود / إرشاد العقل السليم / ج 6 / ص 304 - الطنطاوي / التفسير الوسيط / ج 1 / ص 4531

[3] جاء في اللغة : العَقْل: نقيض الجَهْل. عَقَل يَعْقِل عَقْلاً فهو عاقل. والمَعْقُولُ: ما تَعْقِلُه في فؤادك. ويقال: هو ما يُفْهَمُ من العَقْل، وهو العَقْل واحد .. " (للمزيد , ينظر : الخليل بن أحمد الفراهيدي / معجم العين /ج1 / ص 32 , ابن دريد/ جمهرة اللغة / ج2 / ص 27

[4] ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 15 / ص 7

من الطبيعي أن الشخصية المادية لا تعرف الاستقرار ولا الهدوء ولا الراحة النفسية ، وبالنسبة للشخصية اليهودية ، فإن طغيان العشق المادي قد أخل بتوازنها النفسي ، وأفقدها الكثير من الخصائص الأولية التي وهبها الله في الفطرة الإنسانية ، لذلك فاحتمال حصول السكينة أمر مستحيل، وحقيقة السّكينة استشعار معنوي ، فكيف له أن يبيت في نفوسهم أو يطرق بابها، وبيتهم أصلاً خرابٌ من الروح والمعاني ؟!

لذلك فإن خاصية روح التمرد طاغية على كل شيء ، حتى وإن كانت في مجتمع تتوفر فيه أعلى مستويات ممكنة من المثالية !

وهل هناك أفضل مثاليةً من مجتمع يقوده نبي ؟! فقد سجل القرآن عليهم محاولاتهم للتمرد على قوادهم الذين كانوا في كثير من الأحيان أنبياء ، ومن حيث سجلات التاريخ ، لم يعرف عنهم حالة الانضباط إلا في عصر الملك داوود و سليمان عليهما السلام ، والسبب بالتأكيد ليس من جانب كونهما نبيّين ملِكين ، يحكمان بالعدل والوحي ، ولكن من جانب القوة وأسبابها التي لم تتوفر لغيرهما من ملوك الأرض ، كما هو معروف ، ومعروفٌ كذلك كيف انقسمت مملكة سليمان العظيمة ، فوراً بعد مماته إلى مملكتين متناحرتين (يهوذا وإسرائيل) .

حتى إن قدرة موسى عليه السلام وكفاءته القيادية مع كل ما حمله لهم من المعجزات الإلهية العظيمة ؛ عجزت عن تحقيق مهمة ضبط هؤلاء القوم في مجتمع إيماني تحكمه التوراة تحت مظلة الإيمان بالله الواحد !

وقد مثّلت آيات كريمة كثيرة بالعديد من مواقفهم في هذا الشأن ، وأظهرت عجز هؤلاء عن العيش في مجتمع مستقر ، وأخرجت هذه النزعة من نفوسهم لنراها ونحس بها ، ونعرف أن هذه الشخصية قد قطفت ثمار المادية كاملة ناضجة ، منذ البدايات !

فمن بدايات عهدها مع موسى قالوا في برية سيناء : { .. **يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ واحد** (60) } البقرة

ثم كان من الخيرة السبعين منهم بعد المعجزات الكثيرة التي عاشوها : { **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** (55) } البقرة

وفي قصة البقرة رأينا كيف طلب منهم موسى أمراً مباشراً من الله {**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أن** ..} فأجابوه فوراً : { .. **أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا** (71) }، ثم بعد سلسلة من المراجعات قالوا : { **الْآَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ** } .

وفي خلافة هارون لموسى عادو هارون وانتفضوا عليه حتى أوشكوا على قتله : { **ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي** .. (150)}الأعراف ، وهم أصلاً كانوا يتحيّنون الفرصة للتمرد على موسى قبل ذلك : { **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ** ... (150) } الأعراف

وَفِي قصة طالوت ، حين قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : { **إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا** " فلم يجيبوه بالطاعة ، بل بادروا بالاعتراض فور صدور قرار التعيين : { **قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا**.. }

وفي هذه الحوادث وغيرها تَظهر نزعة التمرد جليةً فيهم كخلق أصيل ، ولم يسجل عليهم القرآن حادثة واحدة ظهر فيها أدنى درجات الاستجابة الفورية ، ولو في أقصى الظروف شدة ، ففي حادثة أخذ العهد عليهم بالتمسك بالتوراة أبوا إلا عند رؤية الجبل فوق رؤوسهم ، فكان الإذعان منهم خوفاً من الجبل أن يقع عليهم ، والأغرب أن تقرن الآيات قولهم : **"سمعنا "** في تلك اللحظة ، مع قولهم **"عصينا"** : {.. **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** (93) } ، وقد يكون العصيان تبييت النية به ، أو قولاً على الحقيقة ، أو فعل العصيان نفسه ، أو قد يكون كل ما ذكر ، والمهم أن العرض القرآني قد أبرز في نظمه الكريم ، هذه القضية بوضوح ، وأظهر نازع التمرد ملازماً لهم في كل المواقف دون استثناء !!

ثانياً : المادية اليهودية وأمن المجتمع :

إنَّ أهم ما يمكن أن يضمن لمجتمع ما أمنه واستقراره هو العدل وعوامل الردع ، وكما أن الجريمة المنظمة أشد وقعاً في الأذى والتبعات على المجتمع للأسباب المعروفة الكثيرة ، فالشخصية اليهودية تشكل في منطلقها الميل نحو الفساد المنظم ، وقد دللتُ سابقاً من الآيات الكريمة التي وصفت قلوب اليهود واجتماعهم أن الرابط النفسي الوحيد الذي يربط اليهود معاً كجماعة هو (الطبع اليهودي) ومنه ذلك الميل السلوكي نحو الفساد ، أما الهدف فمختلف باختلاف الرغبات المادية والمصلحة الآنيّة، وطالما أن المصالح المادية مشتتة في طبيعتها فلا تولد إلا مزيداً من الشتات لقلوب أصحابها ، ثم لماذا لا يقع الخيار اليهودي إلا على الفساد كمنهج وسلوك دائم ؟

فالسبب أن السلوك إذا تحدد معه هدف مادي منبعه الأنا لا يمكن أن يعطي لمبدأ أو قضية عامة اعتبارها ، والسلوك في تلك الحالة كذلك يكون تلقائياً خالياً من أي قيمة معنوية أخلاقية تضبطه عن الانحراف إلى المزالق التي تؤدي إلى أذية الآخرين وبالتالي تعاسة المجتمع ككل،لهذا لا يمكن أن يكون سلوك الفساد عند اليهودي إلا الخيار الدائم والوحيد ولا يملك إلا أن يتحرك به الكيان اليهودي أينما حل طالما نبضات قلبه تتحرك بدينامية العشق للمادة وهواها ، وهذا ما يفسر الفرق بين الفساد العارض أو الطارىء على شخصية ما ، والفساد المستحضَر في التركيبة اليهودية .

وهناك تفسير آخر -لا يقل أهمية عما ذكرت — وهو أن الفساد المركب على الطريقة اليهودية منبعه ذاتي ،لذلك فهو يحمل طابعاً استمرارياً ، لأن ليس مطروحاً في خانة الاختيارات التي محلها توجيه العقل، ولكنه مطروح في

خانة الهوى والعشق القلبي ، وقد يكون الدليل على ما أقول استنتاجياً وليس مباشراً ، ولكني أعرضه بدايةً من حيث أننا جميعاً متفقون على أن الإنسان بطبيعته محتاج لإشباع النوازع الروحية والبدنية في الوقت نفسه ، فإذا حدث أن فُقد أو قُتل الوازع الروحي - بفعل عوامل معينة - سيشكل ذلك اضطراباً عميقاً وفقداً ذاتياً للتوازن ، وهذا إن حدث واستمر أو طال عليه الأمد فإن ذلك الاضطراب يستحيل بقاؤه محبوساً وإنما سيخرج إلى محيط حاملهِ بطبيعة الحال ، والإناء بما فيه ينضح ، أي ليس عند اليهودي صاحب الشخصية المشبعة مادياً والمضطربة والمختلة ذاتياً إلا أن تخرج لنا ما في جعبتها من ذلك الاضطراب ، وتعكسه علينا على شكل فتن ومؤامرات ، ولعل هذه المهنة هي أكثر ما يجيده اليهود جميعاً على اعتبار اشتراكهم في الطبع نفسه .

ومن هنا وبالتشخيص العلمي لا يمكن أن يستشعر اليهودي أمنه وتوازنه النفسي إلا بإشباع رغبته برؤية الاضطراب الذي دائماً ما يكون على حساب أمن المجتمع المحيط به، وإذا أضفنا إليه عامل المصلحة المرجوة من حصيلة تلك الاضطرابات ، نفهم أن كيان المجتمع اليهودي لا يقوم إلا بتلك العلاقة الطفيلية مع محيطيه !

ثالثاً : المادية اليهودية وسلوك الإفساد :

إذا كان التعايش الإنساني هو الأساس الذي يقوم عليه مجتمع ما ، وحيث أن قيماً معينة هي المرجع للمجتمع في تحديد علاقاته وضبطها ، فإننا نلحظ في كل مجتمع من يحاول أن ينقلب على بيئته بخرق تلك القيم وطرح المُثل جانباً طلباً لنفع شخصي عارِض ، يكون عادة على حساب استقرار المجتمع وأمنه .

وهؤلاء (أي المفسدون) ليس لهم مكان محدد ولا هوية واحدة ولا زمان واحد ، لأنهم منتشرون في كل المجتمعات ، يسيرون عكس التيار الطبيعي في التقدم الإنساني ، وطالما أنه ليس خافياً على الجميع أن اليهود مشهورون بإفسادهم القديم في الأرض ، فما هي خصوصيتهم في طبيعة هذا الإفساد عن غيرهم من المفسدين ؟ وكيف لنا أن نفهم مظاهر الإفساد التي أنتجوها من منطلق فهمنا لطبيعة التركيب المادي لشخصيتهم ؟

السلوكيات الاجتماعية السيئة على تنوعها تصبُّ حتماً في نتيجة واحدة محددة وهي (فساد المجتمع) وحيث ان الفساد المجتمعي عنوانٌ يجمع تحته كل المسميات للسلوكيات المنحرفة التي تحدث في مجتمع ما ، يمكن أن نوفر المساحة التي يفترض أن تأخذها دراسة السلوكيات بصورتها المجزأة ونتناول موضوعها من عنوانها العريض ما دام ذلك لا يؤثر على استخراج الدوافع النفسية التي تقف وراءها والتي يمكن من خلالها ملاحظة علاقتها الواضحة بالشخصية المادية على النحو الذي أسلفت .

الوصف القرآني لطبيعة " المادية اليهودية" في عنصر الإفساد :

لقد أجمل القرآن الكريم وصْفَ استجابة اليهودي للإفساد بأنها " **سعي و مسارعة**" :

يقول تعالى : { **وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (62)** } المائدة ، وقال تعالى : { **وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64)** }المائدة

أما سياق الآية الأولى فقد جاء في وصفهم سوء الأعمال بعد وصفهم لسوء الاعتقاد

يقول الطبري : " وإنما وصفهم الله بأنهم أكلوا ما أكلوا من أموال الناس كذلك بالباطل ، لأنهم أكلوه بغير استحقاق ، وأخذوا أموالهم منهم بغير استيجاب[1] " .

والمسارعة مبادرة الشيء بسرعة ، يقول الألوسي : " وإيثار (في) على (إلى) للإشارة إلى تمكنهم فيما يسارعون إليه تمكن المظروف في ظرفه وإحاطته بأعمالهم " [2] .

وعند ابن عاشور : " يسارعون إليها أي يرغبون في الاستكثار منها ، والمسارعة مستعارة للاستكثار من الفعل ، والمبادرة إليه ، تشبيهاً للاستكثار والاعتناء بالسير السريع لبلوغ المطلوب [3] " .

والمراد بالإثم[4] الحرام ، وقيل : الكذب مطلقاً ، والمراد من العدوان : الظلم أو مجاوزة الحد في المعاصي ، وقيل : الإثم ما يختص بهم ، والعدوان ما يتعدى إلى غيرهم ، { **وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ** } أي الحرام مطلقاً ، وقال الحسن : الرشوة في الحكم ، والصحيح الذي عليه أكثر المفسرين أن الإثم يتناول كل معصية يترتب عليها العقاب ، وجاء تخصيص العدوان وأكل السحت بالذكر ، تعظيماً لهاتين المعصيتين وهما : ظلم غيرهم، والمطعم الخبيث الذي ينشأ عنه عدم قبول الأعمال الصالحة

ولأبي حيان لفتة في اختيار لفظ " المسارعة " يقول فيها : " وأكثر استعمال المسارعة في الخير فكأن هذه المعاصي عندهم من قبيل الطاعات ، فلذلك يسارعون فيها [5] " .

إن كلمة " **المسارعة** " لها إيحاء نفسي يعطي نوعاً من الاستجابة اللاشعورية نحو شيء مخزن في ما وراء المحسوس ، يشد إلى أمر مرغوب يشكل الحرص عليه هماً يستحق مبادرة الجوارح بإقدام سريع ، وهذا ليس أمراً طبيعياً عند الأسوياء ، فالإنسان السوي لا يستبعد عنه الوقوع في الإثم ، أو السير في خطى الفساد ، إذا غلبت عليه شهوته أو ظهر له من العوامل التي تسيء إلى فطرته ، ولكن ليس من السهل أن تصفه بأنه مسارع لأن المسارعة لا بد أن يرتبط معها نوع من الاستجابة الغريزية السريعة، وهذا إن دل على شيء فلا يمكن أن يكون - بأقل تقدير - إلا

[1] الطبري / جامع البيان / ج9 / ص392
[2] الألوسي / روح المعاني / ج 5/ ص85
[3] التحرير والتنوير / ج3 / ص 193
[4] جاء في الفروق اللغوية : الفرق بين الإثم والذنب: أن الاثم في أصل اللغة التقصير , أثم يأثم إذا قصّر ...و الفرق بين الأثيم والآثم: أن الأثيم المتمادي في الإثم، والآثم فاعل الإثم ....و الفرق بين الإثم والعدوان : الإثم: الجرم كائنا ما كان, والعدوان: الظلم.(العسكري / الفروق اللغوية /ج 1/ ص 15
[5] ينظر : أبو حيان / البحر المحيط / ج4 / ص 471

إثباتاً لحقيقة تغلغل الوباء المادي بصورة عميقة ، بل وعميقة جداً بحيث صار كافياً لأن يكون الفساد والانحراف عندهم شهوة ودافعاً .

وإذا نظرنا إلى الآية التالية ، وهي قوله تعالى :{ **لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (63)** }

نلاحظ أن علاقة الشخصية اليهودية بالفساد جاءت تتضمن وصفاً لحالتين : الحالة الأولى هي للمسارعين في أنواع الفساد ، والحالة الثانية لأحبارهم ورجالات الدِّين ، الذين دعموا وحفزوا العامة عليه ، بترك أهم واجب موكل إليهم في وظيفتهم الدينية والاجتماعية ، وجاءت (لولا) في الآية تحضيضاً [1] يتضمن توبيخ العلماء والعباد على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله تعالى والأمر بالمعروف .

وفي قوله تعالى :{ **لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ** }يقول الشنقيطي : "فترْكُ الربانيين والأحبار نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت سماه الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة صنعاً في قوله : { **لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ** } [المائدة : 63] . أي وهو تركهم النهي المذكور ، والصنع أخص من مطلق الفعل ، فصراحة دلالة هذه الآية الكريمة على أن الترك فعل في غاية الوضوح- كما يظهر- وأما الآية الثانية فهي قوله تعالى : { **كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ** } [المائدة : 79] فقد سمى جل وعلا في هذه الآية الكريمة تركهم التناهي ، عن المنكر فعلاً ، وأنشأ له الذم بلفظة بئس التي هي فعل جامد لإنشاء الذم في قوله : { **لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ** } [المائدة : 79] أي وهو تركهم التناهي ، عن كل منكر فعلوه [2] ".

وقال البيضاوي : "{ **يَصْنَعُونَ** }هنا أبلغ من قوله { **يَعْمَلون** } من حيث إن الصنع عمل الإنسان بعد تدرب فيه وترو وتحري إجادة ، ولذلك ذم به خواصهم ولأن ترك الحسنة أقبح من مواقعه المعصية ، لأن النفس تلذ بها وتميل إليها ولا كذلك ترك الإنكار عليها فكان جديراً بأبلغ الذم .. [3] "

قال الطبري : " وكان العلماء يقولون : ما في القرآن آية أشد توبيخاً منها للعلماء ، [4] "

" والإثم هنا ظاهره الكفر ، أو يراد به سائر أقوالهم التي يترتب عليها الإثم [5] ".

والعجيب -كما رأينا - موقف أحبار اليهود حيث لم يحاولوا أن يوقفوا مسارعتهم المجنونة نحو الفساد ، وشكل تصرفهم دعوة عملية للاستمرار على ذات النهج الخبيث ، بل والمضي به قدماً .

---

[1] (لولا) إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض .(البيضاوي / أنوار التنزيل : ج2 / ص 91)
[2] الشنقيطي / أضواء البيان / ج 6 / ص 83)
[3] البيضاوي : أنوار التنزيل : ج2 / ص 91)
[4] الطبري / جامع البيان / ج 10 / ص449
[5] ينظر : ابوحيان / البحر المحيط / ج 9 / ص471

وفي قوله تعالى : **{وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً }** المراد بالكثير : علماء اليهود ، يعني : ازدَادُوا عند نُزُولِ ما أُنْزِل إليك من رَبِّكَ من القرآنِ والحُجَجِ غُلُواً في الكُفْرِ والإنكَار كما يُقال : « ما زادَتْكَ الموْعِظَةُ إلا شَرّاً » ، وهم كُلَّما نزلت آيةٌ كَفَرُوا بها فازْدَادُوا طُغْيَاناً وكُفْراً

وقال تعالى : **{..كلَمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }** (64) المائدة

وهذه الآية كشفٌ صريح للنوازع اليهودية التي تسير عكس السنة الكونية في تسخير الإنسان نحو الإعمار والبناء للأرض ، والتعبير هنا لذلك على سبيل المجاز إذ عبر - سبحانه - عن إثارة الحروب بإيقاد نارها ، باعتبار أن الحروب في ذاتها وبما تشتمل عليه من مذابح بشرية تشبه النار المستعرة في أخطارها ومصائبها ،

واعتبر ابن عاشور تركيب **{ أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله }** تمثيلاً ، شُبِّه به حال التهيّؤ للحرب والاستعداد لها والحَزَامةِ في أمرها ، بحال من يُوقد النّار لحاجة بها فتنطفىء [1] .

وفي قوله : **{ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) }**المائدة ، تذييل مقرر لما قبله من الصفات ، أي : حال هؤلاء اليهود أنهم يجتهدون في الكيد الذي يمهد للحروب ، فيسعون ويسعون سعياً حثيثاً للإفساد في الأرض عن طريق إثارة الفتن ، وإيقاظ الأحقاد وتهييج الصراعات ، والله - تعالى - لا يحب المفسدين بل يبغضهم ويمقتهم ، لإيثارهم الضلالة على الهدى ، والشر على الخير[2].

يقول د.عبد الله التل - الباحث في الشؤون اليهودية المعاصرة – تحت عنوان : تجار الحروب : " إن جميع الثورات والانقلابات والحروب التي وقعت منذ بدء عصر التسامح مع اليهود وهو الذي يمتد عبر قرون ... يكاد يكون من صنع اليهود أنفسهم ، لجأوا إليها تنفيذاً لتعاليم التوراة والتلمود التي تحض على القضاء على غير اليهود ، كلما استطاع اليهود إلى ذلك سبيلا مستخدمين كل السبل التي توصلهم إلى أهدافهم البعيدة [3] " .

وأقتبس قولاً صريحاً لليهودي ماركوس رافاج ، يقول فيه : " نحن اليهود نقف وراء جميع حروبكم ، وان الحرب الأولى قامت لتحقيق سيطرتنا على العالم [4] ".

[1] ينظر : ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 4 / ص 235 .
[2] طنطاوي / الوسيط / ج 1 / ص 1316
[3] - د. عبد الله التل / الأفعى اليهودية / بعنوان : تجار الحروب / ص9
[4] - المصدر السابق/ ص30

كما يذكر د. طعيمة الباحث في التراث الإسرائيلي كيف تطالعنا الأسفار(25-32) بما تذهب إليه في الرؤى والتنبؤات التي نسبوها إلى (حزقيال) ضد الشعوب والأمم الأخرى غير بني إسرائيل ويهوذا مثل عمون ومؤاب وأدوم وفلسطين وصور ومصر ، وهي لا تخلو من ألم وحقد تجاه هذه الشعوب [1]. وفي سفر حزقيال كذلك نقمة الرب على فساد بني اسرائيل وتنكيلهم بالشعوب ،جاء منها : " وهكذا قال السيد الرب : أيتها المدينة السافكة الدم .. الصانعة أصناماً لنفسها للتنجس بها ، قد أثمتِ بدمك الذي سفكت ونجستِ نفسك بأصنامك التي عملت" ونص آخر "... إن إثم بيت إسرائيل ويهوذا عظيم جداً جداً ، وقد امتلأت الأرض دماء ... لأنهم يقولون الرب قد ترك الأرض والرب لا يرى . وأنا أيضا عيني لا تشفق ولا أغفو .. أجلب طريقهم على رؤوسهم " (حزقيال: 9) أما صرعة اليهود في إنتاجهم التلمودي[2] فهي العداء الصريح لكل أمم الأرض ، وفيه : "... إنه من العدل أن يقتل اليهودي كل أممي لأنه بذلك يقرب قرباناً إلى الله ويكافأ بالخلود[3] في الفردوس وللإقامة هناك [4] " .

وبالفهم البديهي لهذه المسألة ، فإن من ملك القابلية و الاستعداد للمتاجرة بآيات الله من أجل مكسب دنيوي حقير ، ليس غريباً عليه المتاجرة بدماء الناس وأعراضهم وحرماتهم من أجل أدنى نفع مادي كذلك ، فقد أثبت الواقع أن طبيعة القسوة القلبية الموجودة عند هذا الصنف من البشر قد ولدت عندهم ميلاً عدوانياً متميزاً لإحلال الدمار بين المجتمعات الإنسانية أينما حلّوا ، وإن لم يكن لهم نصيب سوى إبادة الروح الإنسانية ، وحتى لو لم يجنوا من أرباحها سوى قتل معنويات الشعوب أو الطوائف المتناحرة ففي هذا كفايةُ أن يكون هدفاً أولياً يريح الضمير اليهودي المتحفز لإشباع نهمه القلبي في إجراء المعادلات والحسابات المادية التي يراهنون بها مكاسبهم على حروب غيرهم وينتظرون نتائجها على أي تقديرٍ زمنيٍ قريب أو بعيد .

¤ نتيجة :

لقد رأينا تبلور الشخصية اليهودية في نطاقها الأخلاقي من خلال تفاعلها الحسي مع الحياة ومنتجات هذا التفاعل، حيث ظهر أننا بعيدون كل البعد عن البناء الأخلاقي بسمته الفطري الموجود - ولو بالمستوى الأولي - في عرف الإنسانية .

---

[1] - سفر حزقيال : إصحاح 30 / فقرات 20-26, نقل عنه : صابر طعيمة / التراث الإسرائيلي / ص 207

[2] - يطلق التلمود أو التلموذ على شروح وحواشي التوراة , فقد كتب تفسير للتوراة أولاً وأطلق عليه (المشناة) وكتب شرح المشناة واطلق عليها اسم (الجمارة) , ويطلق اسم التلمود على الجمارة والمشناة معاً , وقد يطلق على الجمارة وحدها (ينظر : ترجمة محمد خليفة التونسي / مقدمة كنوز التلمود / ص11 / دار البيان)

[3] - وقد يعجب القارئ لهذا النص التلمودي وغيره من النصوص الكثيرة المشابه وهو يلحظ شبه غياب عبارات (التقرب إلى الله) والمصطلحات المعبرة عن (الجنة و الفردوس)سابقاً –كما مر معنا في مبحث تصورهم لليوم الآخر –وتذكرها في هكذا موضع !

[4] - د. روهانج / الكنز المرصود من قواعد التلمود / ص67 / ترجمة يوسف خضر

إن المعنى الخلقي عند اليهودي ، لم يتجاوز أن يفسر تفسيراً مادياً وفق هوى المادة المتقلب ، فمنطق الحاجة الطبيعية المباشرة عنده هو الذي يتحكم في طبيعة الأخلاق بأوتار متناغمة صعوداً وهبوطاً مع الشكل الذي ترسمه ضرورة المصلحة الظاهرة .

ومن هنا ، يمكن القول : إن رسم شكل تقريبي لصورة الخلق اليهودي بمعزل عن معطياته " **المادية** "، قد يكون من الصعب تحديد معالمه ، لأنه يظهر لنا شكلاً هلامياً متقلباً من الأخلاق السيئة التي يشترك فيها مع آخرين من أهل الشر ، لذا لا يمكن أن نصف بالضبط طبيعة الخلق اليهودي مفصولاً عن الفكر المادي الذي تغذيه آلية عشقه للمادة .

المبحث الثالث : المادية اليهودية في ميزان الاقتصاد

مدخل :

إن كل مجتمع على جميع أنماطه وأشكاله ، ينبغي أن يكون لديه ثمة نظام يضبط عملياته الاقتصادية ، و إذا كان منظورُ علم الاقتصاد يقوم على دراسة مظاهر النشاط الإنساني في المجتمع - لذلك فقد اعتبره الكثيرون في صف (العلوم القانونية والأخلاقية التي تشكل وحدة واحدة في علم الاجتماع)- فإن الوجهة النظرية لعلم الاقتصاد -

كغيرها من العلوم - إنما تهتم بالأسئلة والعبارات والفروض التي يمكن إيضاح أنها خاطئة أو صحيحة عن طريق الملاحظات والمشاهدات الميدانية [1].

وليس من الضروري إيضاح أهمية أنّ رسمَ تصورٍ لشخصيةٍ ما من خلال الجانب الاقتصادي لها ، لا يمكن أن يتم بمعزلٍ عن رصد تلك السلوكيات من احتكاكات الواقع معها بالشكل الملموس [2].
ولذا فإن تحديد الخطوط المتعلقة بهذه المسألة فيما يعكس الأسئلة والعبارات والفروض التقديرية ، لا نستطيع معالجته إلا بالرجوع إلى الحقائق الميدانية في الحياة العملية ..... فمناشدة الحقائق في أرض الواقع هي الوسيلة السليمة لمعالجتها .

ونحن حين نريد فهم الشخصية المادية من تعاملها في عالم الاقتصاد ، لا يمكن أن نعزل ذلك الفهم عن إطاره الأخلاقي الذي يديره ، لذا نرى القرآن الكريم حين قدم لنا الرؤية الاقتصادية للشخصية اليهودية لم يفصلها أبداً عن ساحة القيم والأخلاق .
وسهل علينا بعد ذلك كله أن نحدد العلاقة بين القيم الأخلاقية التي تدخل المعاملات الاقتصادية بعمومها ، وبين استخدامها في هذا المجال عند صاحب الفكر المادي ، أنها علاقة نفعية آنية تتشكل وتتقلب وفق طبيعة المكاسب .

والهوية المادية لليهودي لابد أن تترك سمتاً معيناً يخصها في عالم الاقتصاد ، كما هو الحال في عالم العقائد والتصورات ، ولعل القارىء في غنىً عن فتح ملف الجنايات والجرائم اليهودية المتنوعة في باب الفساد الاقتصادي من احتكار وربا ورشوة وسرقة ، فليس في الدنيا قديمها وحديثها من يخفى عليه شيء منها ، ولكن تناول أبرزها مما اهتم القرآن بعرضه يفيدنا في التدليل على الخفايا التي تقف وراءها وتحركها لتخرجها بهذه الصبغة المميزة :

المطلب الأول : الخصال الجديرة لتمثيل شخصية اليهودي (المادية) في القرآن الكريم :

لقد اهتم القرآن الكريم بالخصال التي تظهر انعكاس العشق المادي على الشخصية اليهودية ، فأظهرتها البلاغة القرآنية محاطة بشيء من ملابساتها التي تفيد في التشخيص الأكثر عمقاً ، والأقرب دقة وموضوعية ، فقد تحدثت آيات كثيرة عن خصال : الكذب ، المراوغة ، التحاييل ، السفه ، الحرص ، البخل ، التحريف ، الخيانة ونقض

[1] ينظر : د. وليم جاك بومول / علم الاقتصاد / الفصل السادس / بعنوان : نظام الاقتصاد الحر / ترجمة : سعيد السامرائي وآخرون / مراجعة : د. حميد القيسي : مكتبة دار المتنبي / بغداد / ط 1964م / ص 441 [بإيجاز وتصرف] .
[2] ينظر : د. أحمد أبو اسماعيل / أصول الاقتصاد / دار النهضة العربية / القاهرة ط 1963م / ص13

العهد .... ، ولأن العديد من الكتابات الإسلامية قد تعرضت لموضوع الأخلاق اليهودية ، سأكتفي فقط بتناول وصفين منها ، هما الأكثر شهرة عند الناس لالتصاقهما باليهود قديماً وحديثاً : (البخل و الربا) :

أولاً : البخل :

يقول تعالى : { **أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53)** } النساء

وحول مناسبة الآية مع السياق يقول الرازي : " اعلم أنه تعالى وصف اليهود في الآية المتقدمة بالجهل الشديد ، وهو اعتقادهم أن عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله تعالى ، ووصفهم في هذه الآية بالبخل والحسد ، فالبخل هو أن لا يدفع لأحد شيئاً مما آتاه الله من النعمة ، والحسد هو أن يتمنى أن لا يعطي الله غيره شيئاً من النعم ، فالبخل والحسد يشتركان في أن صاحبهما يريد منع النعمة من الغير ، فأما البخيل فيمنع نعمة نفسه عن الغير ، وأما الحاسد فيريد أن يمنع نعمة الله من عبادة ، وإنما قدم تلك الآية على هذه الآية لأن النفس الإنسانية لها قوتان : القوة العالمة والقوة العاملة ، فكمال القوة العالمة العلم ، ونقصانها الجهل ، وكمال القوة العاملة : الأخلاق الحميدة ، ونقصانها الأخلاق الذميمة ، وأشد الأخلاق الذميمة نقصانا البخل والحسد ، لأنهما منشآن لعود المضار إلى عباد الله[1] ".

والاستفهام داخلٌ على مجموع الجملة وجزائها معاً ؛ لأنّهم ينتفي إعطاؤهم الناس نقيراً على تقدير ثبوت المُلك لهم لا على انتفائه ، وهذا الكلام تهكّم عليهم في انتظارهم رجوع ملك إسرائيل إليهم، وتسجيل اتصافهم بالبخل الذي لا يُؤاتي من يَرْجو المُلك !! [2]

والنقير : شَكْلَةٌ في النواة كالدائرة ، يضرب بها المَثَل في القلّة ، جاء في لسان العرب : " **النَّقْرُ** والنُّقْرَةُ والنَّقِيرُ النُّكْتَةُ في النواة كأَنَّ ذلك الموضعَ نُقِرَ منها .. [3] "

و قال الزمخشري : " والمراد بالملك : إما ملك أهل الدنيا. وإما ملك الله كقوله تعالى:{ **قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبّى إِذًا لأمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق** } [الإسراء : 100] [4] "

وقد رأينا هذه الآية تعلل بخل اليهود بإخبار أنه لو كان لهم نصيب من الملك ، بأن كان المال وتوزيعه ، والرزق وتقسيمه لهم ، فإنهم سيبخلون به ولا يؤتون الناس منه شيئاً ، وواضح ارتباط صفة البخل الشديدة بطريق مباشر في علاقتها مع الشخصية المادية (بالمعنى البسيط والمركب للمادية) ، والبخل المقصود هنا هو النوع الأكثر ذماً ، قال الراغب : " البخل إمساك المقتينات عما لا يحق حبسها عنه ، ويقابله الجود ... والبخل ضربان : بخلُ بقنيّات

---

[1]- الرازي /التفسير الكبير / ج 5 / ص 234
[2] - ينظر : ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 3 / ص 445
[3] - ابن منظور , محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري / لسان العرب / ج 5 / ص 227
[4] - الزمخشري / الكشاف / ج ا / ص 421

نفسه ، وبخل بقنيّات غيره ، وهو أكثرها ذماً، دليلنا على ذلك قوله تعالى : {الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل } [1] " .

وهذا يظهر ميزة خاصة لصفة البخل المتأصلة عند اليهودي ، الذي لازمها كداء متأصل انعكس من طبيعتها المادية

ثانياً : الربا

قال تعالى : { **وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** (161) } النساء

و ارتباط الآية بما قبلها واضح ، وهو قوله تعالى : { **فَبِظُلْمٍ مّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنا ..** } قال أبو السعود : " لعل ذكرَهم بهذا العنوانِ للإيذان بكمالِ عِظَمِ ظلمهم بتذكير وقوعِه بعد ما هادُوا أي تابوا من عبادة العجلِ مثلَ تلك التوبةِ الهائلةِ المشروطةِ ببخْع النفوسِ إثرَ بيانِ عِظَمِه في حد ذاتِه بالتنوين التفخيميِّ ، أي بسبب ظلمٍ عظيمٍ خارجٍ عن حدود الأشباهِ والأشكالِ صادرٍ عنهم { .. **حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحِلَّتْ لَهُمْ** } [2] " .

" ولما ذكر امتناعهم ومنعهم من المحاسن التي لا أطيب منها ولا أشرف ، أتبعه إقدامهم على قبائح دنية فيها ظلمهم للخلق فقال : { **وأخذهم الربا** } أي وهو قبيح في نفسه مُزرٍ بصاحبه { وقد } أي الحال أنهم قد { نهوا عنه } فضموا إلى مخالفة الطبع السليم الاجتراء على انتهاك حرمة الله العظيم ، فقوله تعالى : {**وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ..**} جملة حالية تفيد تأكيد قبح فعلهم وسوء صنيعهم [3].

قال ابن عاشور : "وأخذُهم الربا الذي نهوا عنه هو أن يأخذوه من قومهم خاصّة ويسوغ لهم أخذه من غير الإسرائيليين كما في الإصحاح23 من سفر التثنية « لا تقرض أخاك بربا ربَا قضّةٍ أو ربا طعام أو ربا شيء مّا ممّا يقرض بربا ، للأجنبي تقرض بربا » . والربا محرّم عليهم بنصّ التوراة في سفر الخروج في الإصحاح22 « أن أقرضَت فضّة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي لا تضعوا عليه ربا » [4] " .

وتعامُل اليهود بالربا سلوك قديم مشهور في كل المجتمعات التي يعيش فيها اليهود ، ف"شيلوك" اليهودي الذي قدمه شكسبير مثلاً ، هو رمز أدبي للشعور الحقود من أفراد تلك المجتمعات اتجاه ما ولدته نظرتهم لليهود ، ملاصِقةً للربا ، حتى غدا الربا علماً عليهم .

ولا شك أنه انعكاس للطبيعة اليهودية المادية التي لا ترحم أحداً أمام مصالحها ، حتى ولو كان داخل محيط دائرتها الاجتماعية .

---

[1]- الراغب / المفردات / ص 48
[2]- أبو السعود / إرشاد العقل السليم / ج3 / ص 103
[3]- ينظر : البقاعي / نظم الدرر / ج 2 / ص 349
[4] - ابن عاشور / التحرير والتنوير / ج 3 / ص 217

المطلب الثاني : حقيقة الفساد الاقتصادي اليهودي في القرآن الكريم :

سأعالج في هذا المطلب نقطتين أساسيتين و هما : موقع الأمانة عند اليهود ، والمعايير المعتبرة للنظام الاقتصادي عندهم :

أولاً : موقع (الأمانة) في النظام الاقتصادي اليهودي ، كما عرضه القرآن :

يقول تعالى في سورة آل عمران : **{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) }**

قد سبق تعليقي على هذه الآية من وجه أنها تصلح قاعدةً في كشفِ فنِّ التبرير ، الذي قد وصل أَوْجَهُ هنا على اعتبار أن الظلم الشامل الذي يلحق انتهاك الأمانة كمبدأ ، صار عندهم معتمداً على قاعدة شرعية {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ } وهذا يظهر مدى التمادي اليهودي في فكرهم الاقتصادي ، حين وصلوا به إلى تقعيد الخيانة كمبدأ أساس في التعامل !

ولا يماري أحد في كون الأمانة من الأهمية بمكان أن جُعلت أساساً أصيلاً لكل المعاملات الاقتصادية، بل وحتى الاجتماعية .

ولا يمكن أن نتصور فكراً يسقط الأمانة من مرجعيته ، إلا أن يكون غير مؤهل ليس لقيادة أمة ، ولا مجموعة صغيرة من الناس ، بل ولا حتى لبهائم ، و إعمار الأرض بمعناه الإيجابي لا يستقيم أبداً بفكرة تقوم على ضياع الأمانة أو تجزيئها !

ومعلوم أن الأمانة قيمة معنوية غير قابلة للتجزئة أو التفكيك ، ولكن الشخصية اليهودية تعاملت معها كشيء مادي مقسم ومفكك بذريعة التملص من استخدامها مع (الجوييم) ، فقالوا : {لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ } والله تعالى في سياق الآيات الكريمة التي تلت هذه الآية ، يُربط موضوع الأمانة بشكلها الاقتصادي المادي ، بالأمانة الأكبر (العهد مع الله) فيقول جل وعلا : **{ بَلَى مَنْ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }**

ثم تردنا الآيات إلى أقصى مستوى من الممكن أن يبلغها ضياع الأمانة وهو المتاجرة بعهد الله :

{ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (77) } آل عمران

تجار القيم :

ومن هذا المنظور الذي طرحته الآيات الكريمة السابقة ، كشف الله عن صفة متجدّدة في الفعل: **{يشترون}** الملازم لطبيعة الشخصية اليهودية وهي المتعلقة بتجارة القيم ، وهنا نخرج من الصورة الأولى التي يُستهان فيها بأمانة حفظ المادة (المعاملات الاقتصادية) إلى صورة ثانية يستهان فيها بأمانة القيم ، والعلاقة بينهما واضحة ، إلا أنّ

الأخيرة تصل إلى انحطاط أكبر في مجال الفكر المادي الذي أرسى في حساباته ترجيح الثمن القليل على أمانة العهد مع الله .

وإذا قيّمنا ذلك في المنظور الاقتصادي ، فإننا إذا افترضنا حصول الجُرم الكبير (خيانة الأمانة مع الله) فاستهانة فعل الأقل منه تحصيل حاصل ، مع إضافة أمر مهم ، وهو فتح الباب على مصراعيه أمام تدهور أسس ومباديء العملية الاقتصادية بينهم وبين الناس ، وبالتالي فإن مَرْكَباً كهذا سيوصلنا لنتيجةٍ يتحققُ فيها انهيار العلاقة الاقتصادية بمضمونها الإيجابي النفعي بين الأفراد والشعوب والأمم ، مما يشير بدوره إلى انهيار ركنٍ أساس في منظومة العلاقات الإنسانية الطبيعية .

وعودة إلى أصحاب (تجارة القيم) الذين سهلوا علينا إصدار الحكم عليهم بالعمى القلبي الناتج عن العشق اللامتناهي للمادة ، والذي ولد هذا الخلل الذي رأيناه في الموازين والحسابات بين ما يستحق وما لا يستحق من حيث التقديم والاعتبار !

- **قارون نموذج يهودي :**

قال تعالى : { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) }
القصص

" تبتدىء هذه القصة بتقرير أن قارون كان من قوم موسى ، لكنه خرج عليهم ، وتمرد عن الولاء لأمته ، وانضم إلى معسكر أعدائه ، إذ عندهم القوة والمال والظهور ... وجاء التقرير ب"إنّ" لتأكيد أهمية القصة وشد الانتباه لمتابعتها .. [1] " .

وبالطبع فليس عبثاً أن يكون الاختيار القرآني لشخص قارون بالذات (كشخصية يهودية) حتى تكون مثلاً قائماً إلى يوم الدين في التدليل على الشخصية الجامعة للفساد والظلم مع الثراء ونفاق السلطة !

ومعنى **{ فبغى عَلَيْهِمْ }** أي من البغي وهو التجاوز والظلم ، وقوله: **{ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاتَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا }** أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة ، في طاعة ربك

[1] للمزيد , ينظر : د. أحمد نوفل / سورة القصص (دراسة تحليلية موضوعية) / جمعية المحافظة على القرآن الكريم / 2004م / ص 370

والتقرب إليه بأنواع القربات ، التي يحصل لك بها الثواب في الدار الآخرة. { **وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** } أي : مما أباح الله فيها

ثم تصف الآية الكريمة طبيعة كنوزه وضخامتها {**وَءاتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز** } : أي الأموال المدخرة فهو مجاز بجعل المدخر كالمدفون إن كان الكتر مخصوصاً به ، وعند أبي حيان أن أمواله سميت كنوزاً لأنها لم تؤد منها الزكاة وقد أمره موسى عليه السلام بأدائها فأبى وهو من أسباب عداوته إياه [1].

وجوانب الاعتبار في هذه القصة كثيرة وعميقة ، وقد يصلح أن أقتبس من دلالاتها شيئاً يخص موضوعنا في هذه الزاوية ، وهو أن القرآن قدم لنا قارون كنموذج للرجل اليهودي الذي أعماه التكاثر الشيئي والاعتداد المادي ليس في تسخير ذلك لصالح مجتمعه ، وإنما في قلب الآية عليهم وظلمهم {**فبغى عَلَيْهِمْ** }، فكان رمزاً لطبيعة اليهودي الثري ، الذي مع ثرائه الفاحش فقير إلى مقومات المشروع الاقتصادي الناجح لبيئته ومجتمعه .

ومن الممكن قياساً على هذا النموذج استنتاج الحالة الواقعة لمظاهر الثراء اليهودي في مجتمعاتهم أو محيطهم ، أنها غالباً ما يكون مصيرها — وإن زهت حيناً - أن تأكل بعضها بعضاً ، لأن أصحابها لا يعتمدون في نظرتهم الاقتصادية على رسالة سامية يقدمونها حتى لفصيلهم ، وإنما هي المصلحة النفعية الأنانية المتاخمة لطبيعة كفرهم .

• **مسألة :**

هناك الكثير من المفكرين ممن يعتبر عدم إمكانية تفسير الوضع الاقتصادي لجماعة اجتماعية معينه بإمكاناتها الغريزيّة أو بأيدلوجيتها ، ويهدفون — عن قصدٍ أو بغير قصد - لإثبات ذلك عن طريق الرؤية القائلة أننا نعجز عن تفسير طبيعة الشخصية من خلال مجموعة المعتقدات التي رسمت السلوك الاقتصادي والاجتماعي لأصحابها ....

وبالنسبة لليهود ، يذكر - مثلاً - المفكر الألماني أبراهام ليون في كتابه: [المفهوم المادي للمسألة اليهودية] [2] أننا لا نستطيع أن نفسر مؤهلاتهم الغريزية للتجارة وضعهم الاقتصادي ، بل إن وضعهم الاقتصادي هو الذي يفسر مؤهلاتهم التجارية ويعتبر أن من الطفوليَّه اعتبار ذلك ، فاليهودية في نظرهم إذن نتيجة الاختيار الاجتماعي والظروف الاقتصادية المحيطة ، وليست نتيجة نمط منظوري معين يضبط ذلك الاختيار .

---

[1]- ينظر : أبو حيان / البحر المحيط / ج6/ ص327 , الألو سي / روح المعاني / ج 7 / ص 251

[2]- كتاب : [المفهوم المادي للمسألة اليهودية] من تأليف : الكاتب السياسي الألماني أبراهام ليون , وترجمة :عماد نويهض / طبعة دار الطليعة / بيروت عام 1969م

والمترجم من خلال هذا الكتاب يروج للفكر الماركسي , كما ينقل عن المؤلف تَهَجُّمَه على الدراسات التاريخية أو التحليلية لواقع ما أو جماعة ما من خلال الكتب الدينية باعتبار أن هذا الأسلوب بعيد عن المنهج العلمي.

أقول : لم يعد لهذه الكتب ولا لأصحابها رواجاً وقد انهارت نظريتهم وسقطت معادلتها إلى غير رجعة , ولولا أن عنوان الكتاب يخص موضوع البحث لما تتبعت طرحه وأظهرت مجهوداً في الرد عليه , وللأسف فإن كُتّاباً عرباً كثيرين ممن يدّعون الموضوعية متأثرين بهذا النوع من الطرح , ويكفي لنجيبه وأمثاله أنّ ما تقدم في نظريتهم وتوابعها هو أبعد ما يكون على المنهج العلمي , إذ أن من أوليات المنهج العلمي ببساطة دراسة المعطيات الواقعة من أجل الوصول إلى نتيجة وليس العكس (إفتراض نتيجة مسبقة من أدلة قائمة على فكرة ارتجالية لا تقوم على أساس ولا إثبات) !!

ورداً على هذا الطرح أقول : إن تشكل ظاهرة متكررة لسلوك معين كأن يكون الشكل الاقتصادي مثلاً ، لا بد أن يقف وراءه أكثر من سببٍ أو احتمال ، فإذا كان أحد الاحتمالات مردّهُ قَصْرُ ذلك على عوامل اجتماعية أو اقتصادية محيطة ، فإن هذا الاحتمال يُلغى فوراً في حالة تكرر هذه الظاهرة في ظروف اجتماعية مختلفة ومتباعدة ومتنوعة ، ولا مانع حينها من رد الأمر إلى أهله ودراسته من حيث منطلقهِ الشخصي الذي يقف خلف دوافعه الظاهرة .

وغنيٌّ عن القول أن هذا المفهوم الذي قدمه أمثال هؤلاء المفكرين ، يفسر الواقع كله بصيغة بدائية بسيطة ، ونحن نجد القرآن الكريم حين قدم لنا السلوكيات المنحرفة لدى اليهود في مجال الاقتصاد ، رد هذه السلوكيات إلى نمط التفكير السيئ لدى أصحابها ، وغاص في أعماق نفوسهم فأخرج لنا السبب الحقيقي خلفها أنه متعلق بخلل واضح في موازين الترجيح بين القيمة والمادة أدى إلى ضياع القيمة العليا أمام التافه والقليل من المادة ،

وأوجَزَ لنا قيمة هذا التصرف بمبدأ البيع والشراء (المتاجرة) الذي تمّ باستبدال الأمانة وعهد الله بها مقابل الثمن القليل { **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا** }.

ولا ريب أن التقييم القرآني للمسألة جاء بصورة مقنعة منصفة ، تعتمد انتقاء الشاهد والدليل المتنوع زمانياً ومكانياً ، دون الحاجة إلى تلك التكلفات الفلسفية المتخبطة التي أقحم بها بعضٌ من دارسي [علم الاجتماع من منظوروه الاقتصادي] أنفسهم فخرجوا لنا بقلب الحقائق وتشويهها .

النموذج الثاني :

معايير (تصورية وسلوكية) للانحراف الاقتصادي عند اليهود : [نموذج : مقطع من المائدة] :

قال تعالى : { وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (62) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (63) وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) }المائدة.

قد تناولت هذه الآيات الكريمة بمدلولها العام فيما يخص موضوع الإفساد اليهودي ، ومن هذا المقطع كذلك ، يمكن أن نخرج بمعايير تصورية نظرية وأخرى سلوكية ترسم لنا المنهج المادي أو منهج اليهودي في تعامله الاقتصادي :

حيث يمكن أن أستلهم أمراً - من منظور اجتهاديٍّ قاصر - في الآيات الثلاث التي بين أيدينا، بافتراض صور ثلاث تنقلت بها الشخصية اليهودية في المجال الاقتصادي لتخرج لنا بمعالم معينة حول هذا المجال :

- إن الآية الأولى جاءت تصف سلوك اليهودي بالانتشار والكثرة ، ثم قيّمت دافع هذا السلوك (بالمسارعة إليه).

- وجاءت الآية التالية ، لتصف أن القضية ليست متوقفة على السلوك السيّء ، أو سوء أصحابه المسارعين إليه ، وإنما هي ممنهجة بالقدر الذي صارت فيه شكلاً مكوِّناً لنظام فسادٍ اقتصادي كامل ومغطى من أدناه إلى أعلى رأس فيه ، حيث أظهرت مشاركة الأحبار والرهبان في صناعته .

- أما الآية الكريمة الثالثة فقد نقلتنا إلى اكتمال الصورة التي نضج فيها هذا النظام الاقتصادي الفاسد من حالته السابقة كنظام اقتصادي منحرف ، إلى حالة أو مستوى جديد كمنهج فكري منحرف ، فهم صعدوا سلم الانحراف إلى أعلاه حتى الحدّ الذي ترنح بهم فسقط وسقطوا ، ليلقي بهم إلى حضيض التصور ، ذلك أن المستوى الذي أوصلهم لأن يتصوروا يد الله مغلولة — تعالى الله عن ذلك - هو بلا شك نتاج استدعاءٍ لفكرٍ مادي متغلغل ، إلى الدرجة التي استحال معها إدراك أي شيء أو فهمه معزولاً قوانين الحسابات المادية ، ولغة الجمع والطرح ، لذا فالنتيجة المنطقية لذوبان كيانهم الكامل في مسخ المادة ، قصورهم على أدوات تفكير محدودة بحدود المادة وطبيعتها ، فببساطة لا يستطيعون أو لا يملكون الأدوات التي تربطهم بين موجودات الأرض من النعم الكثيرة وبين المنعم المتفضل بها .

وبلغة الحسابات التي يفهمونها ، نظروا إلى ما عندهم من الشيء القليل ، وعدوه نداً للتقييم أمام قيوم السماوات والأرض !

وكما لو رأينا مجنوناً يهذي ، فإننا نرد مباشرةً فعله هذا إلى ذهاب عقله ، وكذلك هم يمكننا أن نرد سخافة طرحهم المختل الموازين أو المنسوف الميزان أصلاً ، إلى فقدان أدوات القياس والربط بين علاقة الأشياء.

وقد نرد قبح تصرف الكافر وسخافة تفكيره إلى جهله في كيفية استخدام هذه الأدوات ، ولكنهم يزيدون على الكافر بافتقادهم إليها أصلاً !!

المطلب الثالث : إفرازات المادية اليهودية في عالم الاقتصاد المعاصر :

لقد رأيت من المفضل أن أخرج بقراءة سريعة للواقع الاقتصادي اليهودي لأنها تبعدنا عن الأسلوب الجامد الذي يلازم الطرح النظري البحت ، ويقربنا أكثر للتفاعل مع المضمون .

يكاد الجانب الاقتصادي أن يكون الحلقة الضاغطة على أكثر الأمور حساسية وخطراً في حياة المجتمعات ، بدليل أن المفتاح الاقتصادي لأي مجتمع هو مفتاح لبابٍ بل لأبوابٍ كثيرة من الفساد على أشكاله و أنواعه ، لذلك عني القرآن الكريم ببناء اقتصاد سليم نقي ، من خلال نظام اقتصادي متكامل مرتبط مباشرة بالدين ، وقد تعامل القرآن مع مجموعة الضوابط الخاصة بالسلوك الاقتصادي كركن أساسي من العقيدة .

ومعلوم أن ما يحرك أي شخصية نحو سلوك معين هو الدافع والهدف ، فما ننتظر من شخصية دافعها قلبٌ متعشقٌ للمادة ، ومحط سعيها (الهدف) فساد تتسارع نحوه ؟!

"الإنسان المادي بهذا المعيار لا يقف على حدود أو سدود أو قيود : اجتماعية أو سياسية أو أخلاقية أو جمالية روحية ، لذلك لا نجد مسافة تفصله عن حيز المادة ، فإذا حصل و اعترضه شيء من تلك التي يراها قيوداً أو سدوداً ، فإنه يحاول جاهداً بعثرتها ، أو تفكيكها ثم إعادة تركيبها لتتلاءم والوضع الذي يريد [1]".

لذا فاللعب على أوتار الفساد الاقتصادي ، هو شيء يتقنه اليهودي [2]، لأنه يفهم طبعاً لغةً تتحدث فيها الأرقام والحسابات المادية المجردة ، وهو يستخدم هذه اللغة التي يعرفها ويجيدها جيداً كسلاح فعال في قتل المعنويات بين الأفراد والشعوب ، وطبعاً ليس الأمر عائداً إلى فرط ذكاء اليهودي وحسن فطنته في هذا المجال ، ولكنه عائد إلى التهافت الذي صبه في الميل نحو زاوية واحدة ، قصره أفقه المحدود عليها ، إلى محاولة التخلص من كل الاستعلاء الروحي والمعنوي الذي تتمسك به - هذه الشعوب - من بواقي القيم الإنسانية .

فمعروف أن سلوك الربا مثلاً ، طريقة قديمة عند اليهود ، ولكنها في العالم الحديث سلاح اليهود الفعال نحو إفقار الشعوب ، ثم إن الملاحظ في المجتمعات التي تقوم على أساس الربا أنها مجتمعات أول ما تفتقر إلى الأمن ..

ولا يقوم أهلها في الحياة ولا يتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب القلق الذي لا ينال استقرار ولا طمأنينة ولا راحة ، وعالم اليوم خير شاهد على ذلك [3].

لقد أصبح الربا هو لغة الاقتصاد الحديث وهذا طبيعيٌ لأنه رافق العلو اليهودي في الأرض ، والعالَمَ يتحدث بلغة المسيطر ، فإذا تفاقم الفساد ووصلنا إلى متعلقات الحياة الأساسية فإن النقص فيها يخلق اضطراباً ملحوظاً في نفسية أفراد جميع المجتمعات المتضررة ، وقد يتطور الأمر لدى كل فرد حتى يصبح هم الرزق هو الهم المقدم ، فينشأ الانفصام في روحه وجسمه ، وتطغى حاجات نفسه الملحة على حاجاته الروحية ، وهنا يظهر خلل جديد أو نوع

[1] - ينظر هذه العبارة (بتصرف) : د. عبد الوهاب المسيري / موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية / المجلد الأول / الجزء الرابع : تحت عنوان : إشكاليات نظرية / ص 260

[2] - للمزيد حول شواهد في موضوع : سيطرة اليهود الاقتصادية على العالم , ينظر : س . ناجي / المفسدون في الأرض / ط2 / ص 185 , نقلاً عن : warms sombert (les juifsetla viu economiue) e > f > p 211

[3] - حول موضوع الربا عند اليهود , ينظر : السيد محمد عاشور / 1972م / الربا هند اليهود / دار الاتحاد العربي / القاهرة

جديد من الفساد الاقتصادي الذي لم يخفى على اليهودي استغلاله لتعزيز همه في كل المجتمعات بدءا بمجتمعه هو الذي يكون أول ضحية الفساد والاستغلال .

تقول الكاتبة الماركسية اليهودية أرندت في بحثها عن العوامل السياسية لظهور موجة العداء للسامية : " الإثراء غير المشروع من تزوير ، وتهريب ، ومضاربات عقارية ومالية ، طال جميع يهود أوروبا بلا استثناء .. [1] " .
ويقول المحلل الفرنسي ستشنيرب : " اليهود الموجودون في كل مكان والحلفاء الأوفياء للسلطات القائمة ، أصبح ينظر إليهم على أنهم (إما مرابون وإما ثوريون [2] " .
ويقول فردريك إنجلر : " تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتي : وهو أن الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات ، هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي ... وإذن علينا أن لا نبحث عن هذه الأسباب في الفلسفة وإنما في اقتصاديات العصر الذي نعنيه [3] " .
كما جاء في كتاب [اليهودي العالمي] - الذي رصد فيه صاحبه "هنري فورد" نتائج باحثين متخصصين في هذا المجال - ما يلي : " إن اليهود هم الذين يختلقون لدى الناس الأوهام التي تجعلهم وراء أهداف اقتصادية يستحيل الوصول إليها ، واليهود أيضاً يحتكرون لأنفسهم أساتذة الاقتصاد والسياسة في جامعاتنا ... وهم الذين روجوا لانتشار الأوهام القائلة بأن نظريات الاقتصاد ليست مجرد نظريات بل هي قوانين حتمية التحقيق ، ويستخدم اليهود على نطاق واسع النظريات والأفكار الاقتصادية كمجرد أدوات لتحقيق التفسخ الاجتماعي[4] ".
ويدلل الكتاب في موضع آخر بنص من البروتوكول الثامن لحكماء صهيون ، الذي يقول : "سنحيط حكومتنا بجيش كامل من الإقتصاديين ، وهذا هو السبب في أن علوم الاقتصاد تشكل الموضوع الرئيسي في التعليم عندنا ، وحول حكومتنا سنستقطب مجموعة من رجال البنوك ورجال الصناعة وأصحاب رؤوس الأموال ، وفي مقدمتهم أصحاب الملايين ، لأن كل شيء وكل شأن تتم تسويته من خلال الأرقام والتقويم المالي والاقتصادي ، إذ الواقع أن كل شيء يقرره المال [5] ".
ولو تأملنا نصوصاً أخرى (البروتوكولات وغيرها) تناقلتها كتابات غربية اهتمت بظاهرة الفساد الاقتصادي عند اليهود ، سنجد اتفاقاً بين ما تحكيه هذه النصوص والواقع الذي يترجمه سلوك اليهودي المعاصر ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ، ما نص عليه البروتوكول السادس بصراحة : " ... وسندفع بالأجور إلى الارتفاع مما لن يكون ذا نفع للعمال وذلك لأننا في الوقت نفسه سنعمل على رفع أسعار الحاجيات الضرورية زاعمين أن هذا الارتفاع

---

[1] - pp88-89 ’ lantisiemitisme .cite /sur origins du tu totalitarisme (h) > arendt. (نقل عنها : د" سليمان قعفراني / أزمة النتماء اليهودي (فينيا 1900م) / ص165

[2] - schnerb (r) . p>.xtxesecle op>cite .p. 50 نقلاً عن : المصدر السابق

[3] - د. راشد البراوي / النظام الاستراتيجي (مترجم) / ص120

[4] - اليهودي العالمي / هنري فورد / تعريب خيري حماد / منشورات دار الأرقم / بيروت / ص25

[5] - المصدر السابق / ص153

ناجم عن تدهور الزراعة وتربية المواشي ، وسنعمل بحذق ومهارة وعمق على تخصيم موارد الإنتاج عن طريق نشر الآراء الفوضوية بين العمال وتشجيعهم على استعمال المشتريات الروحية ، مستخدمين في الوقت نفسه الإجراءات الكفيلة بإبعاد القوى المثقفة من غير اليهود عن البلاد [1] " .

ولا عجب من الأسلوب التدميري الذي يطرحه الفكر الاقتصادي اليهودي في واقعنا المعاصر ، إذا كانت جذوره قديمةً ، قِدم تحريف التوراة واختلاق أسطورة التلمود !

والتلمود يشرع لليهودي سرقة مال غيره وينظر إلى استحلال هذا الأمر على أنه شرع مندوب ولا حرج فيه !، والأمثلة العملية التي ضربها الحاخامات لهم كثيرة ومعلنة، ومنها ما جاء في التلمود عن الرابي (صموئيل) والرابي (كهانا) وأسلوبهم في الاحتيال والغش لسرقة أموال الناس [2]

والعجيب أن يطرح التلمود موضوع استحلال السرقة بأسلوب مباشر ، مع تفاصيل لنماذج القدوة العملية التي قام بها الحاخامات حتى يكونوا مثلاً يحتذى ، وهم لا يعتقدون أنهم يسرقون وإنما يستردون حقهم !

والغش ، وهو عند الشخصية المادية - التي ترى أسبقية المصلحة المادية على كل شيء - أمراً ليس طبيعياً وحسب ، بل وضروري ، ولكن سلوكاً كالغش يكون في الغالب مستوراً ، لا يحب صاحبه أن يظهر مكشوفاً على الملأ في الأحوال العادية تماماً كالسرقة، أما عند الشخصية اليهودية ، فلنترك للتلمود يحسم لنا هذا الخيار :

الغش والنفاق مطلوب حتى من القضاة !!

يقول التلمود : " إذا جاء أجنبي وإسرائيلي أمامك في دعوى ، وأمكنك أن تجعل الإسرائيلي رابحاً فافعل وقل للأجنبي هكذا تقضي شريعتنا (إذا حدث هذا في مدينة يحكمها اليهودي)) ، وإذا أمكنك ذلك وفقا لشريعة الأجنبي ، فاجعل الإسرائيلي رابحا وقل للأجنبي هكذا شريعتك ....." [3]

ومما تقدم ، إذا كان والنشاط الاقتصادي لأي مجتمع يكاد ينحصر في جانبين :

أولهما هو (رأس المال) وثانيهما هو (النشاط البشري) لاستغلال رأس المال .

---

[1]- يراجع : محمد الخشاب / بروتوكولات حكماء صهيون / نقلها إلى العربية : الأستاذ : محمد خليفة التونسي / ط5 / 167, جون كريج سكوت / الحكومة السرية في بريطانيا /ص104 / طبعة 1957م / القاهرة , د. روهانج / ترجمة حنا نصر / الكنز المرصود في قواعد التلمود / ص19 / مطبعة المعارف / 1899م

[2]- لمعرفة المزيد ينظر : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / من التلمود /القاهرة / / ط 63 19/ ص52

[3]- إعداد المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / من التلمود / ص51 / القاهرة / 1967م

فإن المنطق المادي اليهودي يقول : إن رأس المال هو (الحق) الذي يمنح صاحبه حرية اغتصاب الآخر بكل الوسائل .

وأما النشاط البشري فهو الأداة التي يصك من خلالها اليهودي عملته ويجمعها[1] (قارون نموذج)

لذا من الضروري بل ومن اللازم أن تكون الأشكال التي عهدناها من(الربا والسحت وأكل أموال الناس بالباطل..) وفق العقلية التي يمتلكها شخص كاليهودي هو النظام الطبيعي والمعقول والأساس الصحيح الذي لا أساس غيره للنمو الاقتصادي.

من هنا فإن قلب الصورة الأصلية للهيكلية الاقتصادية التي تبني المجتمعات عليها أساسها الحضاري ، هو الأبرز وضوحاً في السمت اليهودي بلا استثناء ، ولا شك أن لهذا خطورته في بث الفوضى والاخلال بالنظام الاقتصادي من جذوره ، في حين أنّ " كل مجتمع ابتدائياً كان أو متطوراً ، غنياً أم فقيراً ، ينبغي أن يكون له نظام لمراقبة عملياته الاقتصادية [2] " ، ونحن نجد الاقتصاديين جاءوا يبحثون في إشباع حاجات الانسان بمجتمعه عن طريق تنظيم توزيع موارده المحدودة على حاجاته المتعددة [3]... فأين موقع الرجل الاقتصادي اليهودي من هذه الغاية ؟

ولعل أكثر صورة يمكن أن تتمثل بها الشخصية اليهودية هي صورة (الإنسان الاقتصادي)، ليس بمعناه اللغوي فقط ، وإنما بتعريفه الفلسفي كذلك ، ولدى عودتي إلى موسوعة اليهود والصهيونية ، وجدتها تعرف الإنسان الاقتصادي : " .. هو إنسان "آدم سميث" الذي تحركه الدوافع الاقتصادية والرغبة في تحقيق الربح والثروة ، وإنسان "ماركس" المحكوم بعلاقات الإنتاج ، وهو يعبر عن مبدأ المنفعة بحيث لا يعرف الإنسان سوى صالحه الاقتصادي ، لذا فهو إنسان يتسم بالتقشف والإنتاج وحب التراكم ، وهو إنسان متحرر دائما من القيمة ، دوافعه وأهدافه الأساسية اقتصادية بسيطة ، وتحركه قوانين الاقتصاد ، وتحكمه حيثياتها ، إنسان لا ينتمي إلى فكر حضاري ، أو حضارة بعينها، وإنما ينتمي إلى عالم الاقتصاد ، وهو لا يعرف الخصوصية والكرامة والأهداف السامية ، وهو يجيد نشاطاً واحداً هو البيع والشراء ... [4] " .

---

[1] - حول موضوع النشاط الاقتصادي , ينظر : أ. د أحمد أبو اسماعيل / موضوع الاقتصاد / القاهرة / ط63

[2] - هذه العبارة نصّ عليها كتاب : [علم الاقتصاد] للمؤلفين الغربيين : وليم جاك بومول و ل . بستر فرنين جارندلر / ترجمة سعيد السامرائي وآخرون / دار المتنبي / / بغداد / ط 64 / الفصل السادس / ص441

[3]- ينظر : أ. د أحمد أبو اسماعيل / أصول الاقتصاد / دار النهضة / القاهرة / ص 13

[4]- د. عبد الوهاب المسيري / موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية / المجلد الأول / الجزء الرابع : تحت عنوان : إشكاليات نظرية / ص 260

ومن هذا التعريف يمكننا استدعاء مدلوله في الشكل الذي رسمه عامة الناس من المجتمعات المختلفة عن صورة اليهودي في أذهانهم ، وهي بلا شك لم تنبع من فراغ ، فالإجماع على صورة واحدة مكررة ، هو في الواقع تأصيل لما وصم به اليهودي نفسه .

¤ نتيجة :

وبعد ، فقد تبين لنا أن الحركة التي يتعامل بها اليهودي في مجال سلوكه الاقتصادي لا تنبع من فراغ وإنما هي برمجة واضحة لانعكاسات طبيعتة المغالية في المادة .

- إن المادية إذا استحكمت في النفس ووصلت إلى درجة العشق ، أصبح المرء لا يرى إلا بمنظار واحد ، فحالت غشاوة المادة بينه وبين فطرته وخاصيتها في إدراك الحسن والقبيح [1]، وتصور الأمور لوناً واحداً هو المباح .. ثم لنا أن نقدر كيف للشخصية اليهودية أن تتصرف بعد ذلك في ميدان الاقتصاد .

- وفي المجال العملي : لقد قدمت لنا المادية اليهودية اقتصاداً بهيمياً عائماً لا يعرف حدوداً ولا ضوابط
ولا جرم أن تكون الشخصية المادية لا تملك ميزاناً أصلاً تقيس فيه تحركاتها في عالم الاقتصاد ، وقد أخرجت لنا ثقافة نفعية انتهازية [2]

- وثمة أمر هو امتداد لمعطيات المادية في عالم الاقتصاد، وهو أن الشخصية اليهودية المادية حين فقدت إحساسها بالمعاني ، غاب عنها تصور الجمال ، ومعلوم أن عنصر الجمال شيء مكمل لبناء الاقتصاد النامي ، لأن منه يخرج الحافز على الإبداع ، ولا إبداع لحسٍّ قاصر في مجال الاقتصاد ولا غيره ، إلا أن يكون معتوهاً مشوهاً ، مزخرفاً بألوان سطحية مموهة ، وما اشتغالهم بما نراه من خدع ومظاهر تموه باقتصاد زاهر ، إلا كتلوين قنبلة أو علبة متفجرات سرعان ما تنفجر في أية لحظة ، مولدة الدمار والعجز على الكيان الاقتصادي للمجتمع برمته .

ولاشك أن فساد الفطرة اليهودية في موازين الاقتصاد ، وعدم أهليتها لتقديم نفعه على البشرية ، عائد مباشرة ، للخلل الحاصل في تركيبة شخصيتها غير المتجانس مع المعادلة الاقتصادية الإيجابية ، التي وضعها الله لنا كجزء من القانون الصالح للاستخلاف على الأرض .

---

[1] - خاصية إدراك الحسن والقبيح , ذكرها الشيخ البهي في كتابه : بنو إسرائيل في القرآن الكريم
[2] - تنظر هذه النقطة في المصدر السابق ,[بإيجاز وتصرف] / ص260

المبحث الرابع : وباء المادية اليهودية وواقع المجتمعات المعاصرة :

لقد عالج القرآن الكريم كل عيوب المنهج المادي من خلال رصده للسلبيات التي لحقت بأصحابه المتمثلين باليهود ، وآثار ذلك على بيئتهم وعلى الإنسانية ، لذلك يمكن أن نفهم مثلاً سرّ التقابل الذي أبدته سورة البقرة حين استهلت بوصف المنهج الذي دستوره القرآن ، أنه لأصحابه الْمُتَّقِينَ بوصفهم **{ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ.. }** فجاء النظم الكريم بلفظ **{ الْغَيْب}** [1] ليكشف نوع هذه المقابلة بين المنهجين (المنهج المادي والمنهج القائم على الإيمان بالغيب) ، ومن خير من تحدث عن ذلك هو الدكتور دراز رحمه الله ، ضمن تقسيمه البديع لنظريته المسماة "نظام عقد المعاني" ، حين لفت النظر الى تلك المقابلة والمشاكلة ، ودلل عليها بسورة البقرة كنموذج[2].

وحتى لا تكون دراستي بخصوص "الشخصية اليهودية المادية" متحيزة لفترة زمنية معينة ، آثرت انتقاء مجموعة من القرائن الحية في حياتنا المعاصرة التي تسير في نسق إثبات أن ثمة نمطاً سلوكياً متكرراً يُعبر عن جوهر يهودي وطبيعة يهودية واحدة تنعكس في رؤية أخلاقية متناغمة مع ذلك الجوهر ، والذي يفترضه البحث جوهراً متعشقاً للمادة.

لقد استقبل اليهودي عصر الثوران العلمي بذات العقلية المادية ، والحقيقة الطبيعية أن العقل المادي غير قادر على التجاوز ، لأن محدودية تفكيره تدخل ضمن حساب المحسوس فقط[3]، وبالتالي يكون عاجزاً عن إفراز منظومة تكاملية تربط بين المشاهد، وتعليله فيما وراء المشاهد ، ومن هنا ظهر في مجال العلوم نزعة تجريبية محضة ترفض كل ما يكون خارج الحسي المباشر وتلتصق تماماً بحركة المادة والحواس .

---

[1]: يقول صاحب المنار: " الناس قسمان عادي لا يؤمن إلا بالمجسات وغير مادي يؤمن بما لا يدركه الحس أي في غياب عن المشاعر متى ارشد إليه الدليل والوجدان السليم لذلك وصف الله المتقين الذين يهتدون بالقران بقوله (يؤمنون بالغيب) وهو الاعتقاد بما وراء المحسوس وينقل عن أستاذه الإمام عبده : صاحب هذا الاعتقاد واقف على طريق الرشاد وقائم على أول المنهج لا يحتاج إلى من يدله على المسلك ويأخذ بيده إلى الغاية ... " (محمد رشيد رضا / المنار / ج1 / ص 127) .

[2] يقول رحمه الله : " ثم رأيت الحديث في الدور الأول مقسماً إلى قسمين قسم يتحدث عن ماضي اليهود وقسم يتحدث عن حاضرهم ألا يكون من حسن التقابل أن يقسم الحديث الثاني إلى قسمين عن ماضي المسلمين وحاضرهم , بل سنرى ما هو أتم مقابلة ومشاكله فسيجري الكلام في القسم الأول هنا عن سنن الخطاب مع بني إسرائيل , والكلام في القسم الثاني عن التحدث معهم عما جرى هناك في القسمين سواء " (د. محمد عبدا لله دراز / النبأ العظيم / ص163) .

[3] يقول المفكر محمد قطب : " قد يستطيع الباحثون أن يصلوا ذات يوم إلى نتيجة نهائية قاطعة في المظاهر المادية لهذا الكون , أما النفس الإنسانية فهي عالم واسع غير محدود . وما زالت البشرية منذ مولدها إلى هذه اللحظة نتحدث عنها , تحاول الوصول إلى كنهها ... فلا ينتهي الحديث ولا ينقطع عند نقطة معينة.... " (محمد قطب / الإنسان بين المادية والإسلام / ص55) .

ولنا في كلام كارل ماركس خير شاهد ، حيث يقول في عبارته الشهيرة :" إن الوحدة الحقيقية للعالم تنحصر في ماديته ... ولكن إذا سألتنا : ما هو الفكر وما هو الشعور ومن أين ينبعثان ؟ يتضح لنا أنهما نتاج الدفاع البشري وأن الإنسان نفسه نتاج الطبيعة [1] ".

وكما أشرت سابقاً فمن الموضوعية الأخذ بعين الاعتبار أن العقلية المادية ليست داخل رأس اليهودي وحده ، ولكن اليهودي يختلف بعشقه المفرط لها ، أي أنها تنطلق عنده من حيث ينطلق القلب الموجه للسلوك والمحرك للدوافع ، ومن هنا ليس من المستغرب ولا من قبيل الصدفة أن يتزعم الحركات المادية المعاصرة أقطاب يهود حاولوا تفسير كل الظواهر تفسيراً مادياً مجرداً .

نحن لا يمكن أن نفهم الحضارة المادية المعاصرة بمنأى عن الفكر المادي اليهودي ، بسبب التزامن الحاصل بينها وبين العلو اليهودي في الأرض – الذي لاينكره إلا من استغبى أو تعامى عن الحقيقة والواقع – ولن أدخل في احتمالات تفسير آيات الفساد الأول والثاني في سورة الإسراء فمحلها دراسة وافية مستقلة[2] ، لكن على أقل تقدير ، فحتى من ينحى رأي المفسرين القدماء ، ويستبعد أن يكون العلو اليهودي الآن هو ما عنته الآية الكريمة بالفساد الثاني ، فهو موافقٌ بدايةً على أن الصورة الصعبة جداً للفساد اليهودي في الأرض موجودٌ الآن بحالة معممة وكاسحة ..
" وإذا كانت أدوات العلم التجريبي هي الحواس فقد آمن الغربيون بكل ما تصل إليه حواسهم ، واسقطوا من حسابهم كل ما لا تستطيع أن تصل إليه ، وأغلقوا منافذ المعرفة جميعها إلا هذا المنفذ الواحد دون سواه ، ساعدهم على ذلك من غير شك طبيعتهم المادية الخالصة .
لذلك يؤمن الغربيون - المنساقون تحت تأثير المدارس اليهودية المادية - بكل ما يحمل (خاتم) التجريب ، ويأخذونه قضية لا تحتمل الشك أو التأويل ، أما ما لا يخضع للمعمل فهو خرافة !
ولما كانت- المعاني الغيبية – لا تدخل المعمل ، ولا تخضع للتجريب العلمي ، فقد نبذوها من فكرهم واستبدلوها بالصناعة اليهودية الجديدة [3] ".
و لكي لا أبقى في الإطار النظري سأعرج سريعاً على أشهر نموذجين لشخصين ساهما في صناعة المادية المعاصرة هما (دارون و فرويد) ، وليس مكمن الغرابة في كونهما من اليهود ، ولكننا قد نفهم أمراً معيناً حين نجد كيف

---

[1] - كارل ماركس / Anti-Dihring / ترجمة د. راشد البراوي / ط 1934م
[2] من الباحثين المعاصرين الذين تناولوا هذا الموضوع : الشيخ البهي الخولي في كتابه : بنو إسرائيل في ميزان القرآن الكريم , و د. سيد طنطاوي في الفصل الثامن من كتابه بنوا اسرائيل في الكتاب والسنة , ود .صلاح الخالدي في كتابه الشخصية اليهودية ..... وقد ذهب الشيخ الطنطاوي إلى نحو ما ذهب إليه الشيخ البهي من أن الإفساد الأول والثاني قد مضى زمانهما على ما ذكره قدامى المفسرين , وما أميل إليه هو ما ذهب الشيخ صلاح الخالدي وغيره من الفسرين المعاصرين أن الفساد الثاني هو الحاصل في هذا العصر , والله أعلم .
[3] ينظر (بتصرف) : محمد قطب / الإنسان بين المادية والإسلام / ص53

تحول هراء فارغ منزوع المنطق والأساس العلمي- لرجلين يشتركان في نظرتهما الحيوانية المادية للإنسان - إلى مدرسة كبيرة واسعة تستقطب التلاميذ ، ورغم أن اليهود الذين يقفون وراءهم لم يكونوا هم وحدهم الضالعين في العملية، إلا أن الصبغة اليهودية بدت واضحة في التبني المهووس والدعم المفرط [1]، ويكفي قولاً أن يكون أقطاب هذا النوع من المدارس أصلاً هم غالباً من اليهود !

لذلك ، فنحن عندما نقدم فرويد أو دارون للطرح لا نتعامل مع شخصين يهوديين مستقلين ،
بل نتعامل مع مدارس يهودية في الفكر المادي قدمت للإنسانية المعاصرة تفسيرات جديدة أنزل في مستوى من تلك التي عهدناها في الفكر الوثني على مر العصور الغابرة .

ماذا تريد العقلية اليهودية في خطابها المادي للإنسانية ؟

لقد رأينا – في الفصل السابق - كيف أراد الفكر اليهودي المادي استغلال المجتمع والوصول به إلى درجة متناهية من الفساد وهو كذلك لا يخفى عليه أن يستغل السير العلمي- الذي نهجته البشرية المعاصرة - في دعم طرحه الفاسد ، فتزعم اليهودي بجراءة لواء المنهج المادي في تعليل العلم ، حيث تجاوز العقل وأدواته الحسية حدود اختصاصاتهما المعقولة لينتهي بهما إلى الضياع ، وبجعل العلم بشكل أو بآخر متجهاً إلى التبذير في الطاقات البشرية التي كانت أحرى بها أن تتجه نحو المفيد والنافع وان تترك ما وراء العيان لأصحابه الحقيقيين حتى اشهروا المذاهب التي تتزعم أن الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك ذواته وأحواله بأسبابه وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية[2] .

---

[1] هناك أدلة واضحة وشواهد كثيرة على أن مدرسة فرويد ودارون وغيرها من المدارس المادية هي مدارس صناعة يهودية أصيلة , أذكر منها على سبيل المثال شاهداً عثرت عليه في نص للباحث الغربي دافيد باكمان في تعليقه على رجالات مدرسة التحليل النفسي , يثبت فيه وبصريح العبارة أن جميع أساسات هذه المدرسة المادية هي لمفكرين يهود فقط , ونصه : " .. أشرنا إلى أن الأرضية الثقافية لكل من فليس وبروبير والمحللين الأولين , كانت مؤاتية للتحليل النفسي , هذه المؤاتاة لها برأينا جذور في التراث الصوفي اليهودي , في الحالت النادرة التي يعطي فيها فرويد أفضلية للآخرين , يكون هؤلاء من اليهود ؛ إلى فليس أعطى أصل نظرية الثنائية الجنسية ؛ وإلى بروبير أعطى الفكرة الألى للتحليل النفسي , وإلى بورن طريقة التداعي الحر , وأخيراً إلى يهودي آخر هو بوبير لينكاس نظرية تفسير الأحلام ... (دافيد باكان / فرويد والتراث الصوفي اليهودي / ترجمة : د. طلال عتريسي / المؤسسة الجامعية للدراسات / بيروت / ط2 / 2002م / ص63) .

[2] ينظر: محمد قطب / الإنسان بين المادية والإسلام / ص34

أولاً : مدرسة داروين نموذج للمدرسة اليهودية المادية :(الإنسان الحيواني)

لم تحظ نظرية علمية خلال التاريخ الحديث للفكر الإنساني بما حظيت به نظرية دارون في التطور العضوي ، لما خلّفته من أصداء واسعة عبرت بها نطاق التخصص العلمي – على فرض- إلى توجيه الفكر الإنساني الحديث في كافة مجالاته نحو التعليل المادي لشتى الظواهر !

لقد كان دارون[1] هو بطل الانقلاب التاريخي حين قرر حيوانية الإنسان ، ولما نادى بنظريته في أصل الأنواع توالت الضربات بعد ذلك على أيدي العلماء والباحثين الغربيين ، في إنكار وقمع تلك الصفات والأفكار والنشاطات التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات ومنع تحقيق الإمكانات الإنسانية للإنسان ،[2] بهدف تجريد الإنسان من خصائصه الإنسانية [3].

إن المادية الداروينية اليهودية جاءت لتقول : " تطور الإنسان الطبيعي ، مثل تطور الحيوان الطبيعي ، داخل نسق طبيعة المادة ، فقد أخذ دارون هذا الإنسان اللاشخصي بين يديه ووصف تقلبه خلال عملية الاختيار الطبيعي حتى أصبح إنساناً قادراً على الكلام وصناعة الأدوات ، ثم يأتي ليرينا أن كل شيء يرجع إلى أصل الحياة البدائية وهي بدورها عملية كيميائية طبيعية .... وبهذا فهي لا تكتفي بتلويث الإنسانية في نشأتها الأولى ولكنه يتعقبها إلى حد أصلها فيردها إلى حيوانية صرفة .

وعليه "فكل المدن الفاضلة المادية ، التي تدار على أسس علمية مادية يظهر فيها إنسان مثالي تماماً ، إنسان في مثالية النحل والنمل والحيوانات التي تبلغ الغاية في التنظيم ، وهي كائنات تعيش في مجتمعها بشكل آلي منطقي ، كالإنسان الآلي المغسول في المستنقع المادي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، إنسان لا يختار ولا يقرر ، فكل شيء قد تم اختياره وتقريره له ، وهو بالتالي لا يحمل أية أعباء أخلاقية ، وطبيعته لا خير فيها ولا شر ولا قلق ولا أسئلة كبرى ... [4] !!

---

[1] تشارلز دارون (1809 – 1882م) حمل نظريته حين أبحر على متن السفينة الشراعية (بيجيل) من الأسطول الملكي البريطاني عام 1831م والتي استغرقت رحلتها خمس سنوات طاف خلالها عدة جزر لجمع العينات .... (ينظر : هادي المدرسي / عن الإنسان والمادية الداروينية / دار التعارف / بيروت / ط1 /1987م/ ص 21) .

[2] ينظر : محمد قطب / الإنسان بين المادية والإسلام / ص54 , وكذلك : د. صلاح محمود عثمان / نظرية التطور من العلم إلى العولمة / ط1 / 2001م / المعارف / الإسكندرية / ص133

[3] [تجريد الإنسان من خصائصه] ترجمة للمصطلح الإنجليزي المعروف (dehumanization) يراجع : د. عبد الوهاب المسيري / موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية /المجلد الأول / الجزء الرابع : تحت عنوان :العلمانية الشاملة / ص 260

[4] ينظر : المصدر السابق /المجلد الأول / الجزء الأول : تحت عنوان : إشكاليات نظرية / ص 75

ويمكن القول إن كل التعليلات المادية عند دارون لا يمكن أن تتعلق حقيقة بأي تحليلات علمية مقنعة [1]، لأنها في الحقيقة لا ترقى إلى الأبجديات الأولية للنظرية العلمية ولو بمستواها البسيط ، ذلك أنه - كما يذكر مؤيدوه بلا خجل – حاول إغلاق جميع الثغرات الكبيرة والصغيرة في نظريته بمبدأ ما يُعرف ب(الصدفة) ، يقول المتخصص البيلوجي : (ب . م . ميدنيكوف) في كتابه "داروينية القرن العشرين" : " فإذا كان قدماء الفلاسفة الماديين أنكروا وجود (الصدفة) كمقولة موضوعية ، فنحن نجد دارون قد انطلق من القاعدة التي تقوم على الصدفة ، ومن الاختلافات الصدفيّة اللامتناهية بين الأفراد ، ففي الطبيعة تسيطر الصدفة والضرورة معاً وفي آن واحد ، وتشكل النظم والقوانين من تراكمات ما هو صدفي[2] ".

وفي مكان آخر يعلق الباحث محمد علي يولو على هذه الأفكار وأمثالها بالقول : " الغريب أن (التطوريين) - حتى أكثر المؤمنين منهم – لا يؤمنون بالغيب [3] إذا جاء على لسان رسول أو ورد في كتاب مقدس ، لكن إذا عجزوا عن تفسير شيء لا يتورعوا أن يخترعوا لأنفسهم عالم غيب خاصة بهم ، فيه يصولون ويجولون [4] "

" إن دارون وأعوانه قد تصوروا التطور الذي حصل للإنسان منذ التكوين وكان الأجدر بهم أن يثبتوا الملامح والهيئة للإنسان الجديد المقبل لأنه في عملية طويلة ومعقدة منذ 11-14 مليون سنة

لا ندري لماذا تغافلوا عن هذه الهيئة المقبلة وصورتها ؟!

فلم يذكر لنا دارون في كتابيه [أصل الأنواع و تسلسل الإنسان] شيئاً عنه ولو تلميحاً [5] "

فأي رجعية بعد هذا ؟! بل وأيُّ عجبٍ أكبر من أن نرى فكرةً تحمل سفالة المنطق وانحطاط التصور تتحول إلى أشهر النظريات العلمية التي قامت عليها حضارتنا المعاصرة ؟! ويكفي أن نسمع من اعتراف دارون – صاحبها- في حديثه عن نفسه : " إن قابليتي محدودة في مجال الفكر المجرد ، والتأمل الطويل ، لذا لم أوفق أبداً في الرياضيات أو في العلوم الميتافيزيقية [6] "

ويمكنني القول إن الحقيقة العلمية الملموسة في قيام الحضارة الغربية على دعائم باطنية لأشكال مختلفة من المادية الداروينية ، قد سعت في الغرب إلى تجريده من أهم سمة تحملها روح أي حضارة (سمة الرقي الروحي والأخلاقي) مثلما جردته قبل ذلك من جماليات الحضارة ، وهذا يفسر الويلات التي جرتها الحضارة المادية الغربية على الإنسانية

---

[1] تعجبتُ من الكاتب د. حسن حامد الذي بنى كتابه : " من الوحي إلى دارون " على ربط الآيات القرآنية التي تحدثت عن الخلق , بتفسيرات داروينية مناقضة , إذ يجعل الصلات بين الأنواع الحية وأجناسها لا تقف عند حد , حتى بلغ به التصور أنّ آدم كان قبله أوادمُ كثيرة تطورت إلى آدم المعروف ! (ينظر : د. حسن حامد / من الوحي إلى دارون [قضية الخلق] / ط1 / دار الخيال

[2] يراجع : ب . م . ميدنيكوف / داروينية القرن العشرين / ترجمة : د. محمد أحمد شومان / سلسلة العلوم الاجتماعية (دفاتر الفلسفة (6) / دار الفارابي / ط 1982/ ص 21

[3] "عالم الغيب" عند التطوريين الذي عناه الباحث هو –كما ذكرت - تعليلهم لكثير من الظواهر ب (الصدفة) أو (الطفرة) !!

[4]- محمد علي يولو : مصرع الدارونية / دار الشرق الأوسط / ط1 / ص47 / 1983م

[5]- محمد صالح كريم خان / الإنسان والدارونية / وزارة التربية العراقية / مطبعة الجمهور / الموصل / 1976م / ص206

[6] - Francis Darwin (ED) "The Authobiography of Charles Darwin and Sellected letters p.(55) , نقل عنه:
Shamseddin Akbulut ; Darwin ve Errin Teorisi / ترجمة : أورخان محمد علي / ص15

ثانياً : مدرسة فرويد نموذج للفكر اليهودي المادي (الإنسان الجسماني) :

لا أريد الدخول في تفاصيل نظرية فرويد[1] ، فما يهمني هنا تقديمه كنموذج للخطاب اليهودي المادي للإنسانية . أما يهودية فرويد ، فيكفي أن نعرف أنه أمضى حياته كلها في غيتو نظري ، في عالم لا يضم تقريباً سوى اليهود ، وبخصوص علاقة فرويد مع مساعديه من اليهود ، فقد عنون لها الباحث دافيد باكمان في الفصل الثامن من كتابه : [فرويد والتراث الصوفي اليهودي] تحت عنوان : "علاقات فرويد مع (فليس) وباقي مساعديه اليهود " [2]، حيث يظهر من هذه العلاقة النَّفَس اليهودي العميق والمتغلغل في الأفكار التي طالما أخرجها فرويد بقالب يظهر أنه بعيد كل البعد عن الرؤية الدينية !!

فرويد و إخضاع المعنويات للتجارب !

قد يكون من الممكن أن نخضع المعنويات لتجارب إحصائية من أجل استقراء ومعرفة مدى الاستحسان لفكر أو أسلوب معين عند فئة ما ، أو أثر الظروف المحيطة ونسبتها ، ولكن أن يصل الأمر إلى إخضاع المعنويات لتجارب المعمل بهدف الوصول إلى حقائق موضوعية ثابتة ، تحسم الجدل وتقطع السبيل فإن هذا أعجب ما يمكن أن يناقض الفطرة الإنسانية في تفكيرها وبحثها العلمي بصورته المنطقية الطبيعية !

إن مدرسة (التحليل النفسي) التي يتزعمها فرويد لا تقنع بوصف ظواهر الشخصية بل تفسرها على أساس من التفاعل والصراع بين قوى معينة [3]، فالشكل النهائي للتنظيم السلوكي المميز لفرد ما – من وجهة نظر فرويد – هو نتاج لتفاعل أو صراع بين عوامل غريزية من ناحية ، وعوامل اجتماعية من ناحية أخرى .. وهو في النهاية يردها إلى إشارات أو إيحاءات غريزية تحدث عنها بكلمات ثلاث : (الطِّفلية الجنسية المكبوتة) وهي معروفة أنها تجسم العمد الثلاثة لسيكلوجيا فرويد[4]

يقول المفكر محمد قطب : " ولكن النقد الأول الذي ينبغي أن يوجه إلى فرويد هو في أساس نظرته إلى الإنسان على أنه كائن أرضي بحت ، لا يرتفع بمشاعره وعواطفه من عالم الأرض إلا في حالات الشذوذ [5] " !!

" إن إنسان فرويد - وفق نظرته اليهودية المادية – تحركه دوافعه الجنسية وغدده وجهازه العصبي .

وهو يعبر عن مبدأ اللذة ، ولا يعرف سوى متعته ولذته ، إنسان الاستهلاك والترف والتبذير ، وهو إنسان أحادي البعد ، خاضع للحتميات الغريزية ، متجرد من القيمة لا يتجاوز قوانين الحركة[1] ".

---

[1] - ولد "سيغموند فرويد" سنة 1856م , فيما يسمى الآن (تشيكوسلوفاكيا) ولكنه عاش حياته في (فينا) . (روبرت ودورث / مدارس علم النفس المعاصرة / ترجمة : د. كمال الدسوقي / 1981م / دار النهضة / بيروت / ص 216) .

[2] - ينظر : دافيد باكان / فرويد والتراث الصوفي اليهودي / ترجمة : د. طلال عتريسي / المؤسسة الجامعية للدراسات / بيروت / ط2 / 2002م / ص 59

[3] - محمد قطب / الإنسان بين المادية والإسلام / ص54

[4] - روبرت ود روث / مدارس علم النفس المعاصرة / ص 233

[5] - محمد قطب / الإنسان بين المادية والإسلام / ص54

وقد شدّني عبارة اقتبسها كاتب أمريكي من مراسلات فرويد لأحد أصحابه المفكرين اليهود ، لا تتعلق بشيء من نظرياته ولكنها تظهر أنه لم ينس يوماً أنه يهودي رغم أطروحاته التي تبدو في ظاهرها مستبعدة للدين ، يقول الكاتب : " فرويد غالباً ما كان يلجأ إلى التركيز في مراسلاته مع ك. أبراهام أحد أتباعه اليهود بالمشترك بينهما كيهود : العرق ، التكوين الذهني ، الأثر التلمودي ، فهو لا ينفك يذكره في محاولة إلى قطع دابر الخلاف بينه وبين يونغ : " بأن الأمور بيننا نحن اليهود أسهل لأن العامل الصوفي يعوزنا) ، إذ (لا يمكن أن يختفي منا فجأة نمط التفكير التلمودي)[2] " .

ويعلق ناقل العبارة [3] على ذلك بالقول : " .. وبذلك يصنع فرويد خطوطاً حمراء علائقية وفكرية بين ما هو يهودي وما هو غير يهودي مستعملاً تعابير ومصطلحات تتنقض في العمق مع الفكر الذي يبشر به "

ومن هنا ، يمكن - وباختصار شديد- ونحن نستطلع آراء فرويد ، ومن قبله دارون ، أن نستحضر فوراً صورة الكلب المنسلخ اللاهث إلى دعوات الإخلاد إلى الأرض كما مثل به الذكر الحكيم في سورة الأعراف [4] .

ثالثاً : مدرسة الفكر المادي في تفسير علاقات أفراد المجتمعات المعاصرة :

نموذج : فكر الصراع بين الطبقات والتوظيف اليهودي لها

من الواضح أن النواتج من تفاعل آلية الأنا داخل النفسية الإنسانية عن طريق استخدامها لمحفز (التعصب العنصري) بأشكاله لا تولد إلا مزيداً من التعزيز المادي من ناحية تعلقها بإشباع رغبات محسوسة تخص رابطة الدم أو العرق وليس رابطة متعلقة بمبدأ أو فكرة ، وإنما مزيداً من التمركز حول الذات .

ولكن الوضع يختلف حتماً عند النواتج المتعلقة بالأفكار والمعاني لأنها حين تتفاعل داخل الإنسان فستنتج ارتقاءاً في التصور لذات المعاني وستتوجه الطاقة لدى حاملها إلى نصرتها ، لذلك أستطيع أن أفسر الإقبال أو الإسراع اليهودي دائماً نحو نصرة الشعارات القومية والنعرات العنصرية في المجتمعات لأنها تخِّلفُ وباءاً يفتك بالفكر ويقتل المعاني وبالتالي فهو أداة قوية وفعالة لإظهار حالة أولية من السمت المادي [5].

صحيح أن حقيقة التفاوت في المستويات الاجتماعية حقيقة واقعة في المجتمع الإنساني ، أراد الناس ذلك أم لم يريدوه ، لكنها بالتأكيد ؛ لصالح المجتمع الإنساني لاتصالها بقضية أكبر وهي معنى (التسخير) وصولاً لإيجابية رسالة

---

[1] - ينظر : د . عبد الوهاب المسيري / موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية /المجلد الأول /الجزء الأول / ص 76 .
[2] - Idem ; Letter a' Abraham du 11.5. 1908 – p. 44 & p. 25
[3] - العبارتان نقلهما د. سليمان قعفراني في كتابه : أزمة الانتماء اليهودي / تحت عنوان : اليهود في المواجهة / ص157
[4] - آية : 175
[5] - هذه حقيقة ملموسة واقعاً , وقد استوفت الكتابات العربية والأجنبية التي تناولت اليهود من الناحية الاجتماعية الصرفة , موضوع الميل العنصري ونصرة الدعوات القومية والعنصرية , و قصة الشعب المختار , بما يغني عن الخوض في تفاصيلها من جديد .

الاستخلاف ، والتفاوت بين الناس سواء أكان في القدرات العقلية وفي المواهب النفسية والروحية وفي الكفاءة وفيما يناط بهم من أعباء ومسؤوليات [1]

يقول د. عبدالغني عبود في كتابه [ديناميات المجتمع المسلم] : " والحكمة في هذا التفاوت الملحوظ في جميع العصور وجميع البيئات وجميع المجتمعات هي ليُسخِّرَ بعضهم بعضاً ، وهذا معنى قريب .. لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهي الخالد : **{نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)}** "[2]

وإذا كانت السنة الإلهية الكونية تقتضي التفاوت في القدرات بين الناس لتحقيق التعاون والتكامل -كما هو معلوم - فواضح أن رسالة الفكر المادي (العاجز عن فهم الطبيعة الإنسانية) تقدم لنا المصلحة الذاتية التي تغذي فكرة الصراع بين المستويات الاجتماعية لتخرج الإنسان من حيز التكافل والتعاون البناء إلى حيز التنافس والبغضاء الشحناء ..

يقول الشيخ المودودي : " لقد قامت القومية – منذ قامت – على وحدة الجنس ووحدة الحدود ، ووحدة اللغة ووحدة اللون ، و(وحدة الأهداف الاقتصادية) ووحدة نظام الحكم ، ومن الطبيعي أن هذا النوع من القومية يتطلب خلق عصبية جاهلية في داخل الإنسان ، فهو يدفع شعبا إلى معاداة شعب آخر ، والنفور منه فقط لمجرد أنه شعب آخر [3] " .

ثم بدأ المفهوم الجديد (بسيادة العرق أو الجنس) يأخذ بعداً متقدماً على خريطة التقدم الإنساني حيث تحول من مجرد نزعة إنسانية لدى الأفراد ، إلى فكر منهجي وسلوكي معمم ومنطلق للخطاب الإنساني بين المجتمعات ، وقد يكون هذا النوع عند اليهود ليس شيئاً جديداً ولكنه بدا الآن الأكثر وضوحاً في عصر التسارع وعالم الحظيرة الصغيرة !

لقد وظفت الداروينية الاجتماعية في تبرير التفاوت بين الطبقات داخل المجتمع الواحد ، فحسب نظرية صراع البقاء ، الفقراء والضعفاء على وجه العموم هم الذين أثبتوا على أن مقدرتهم على البقاء ليست مرتفعة ، ولذا فهم يستحقون الفناء أو على الأقل الخضوع للأثرياء وللشعوب الأقوى والأصلح.

وهذا يعني استحالة وجود مساواة مبدئية بين الأنواع أو بين أعضاء الجنس البشري !!

[1] - حول موضوع الطبقات الاجتماعية والتسخير , ينظر : د. عبد الغني عبود / ديناميات المجتمع المسلم / ط49 / ص59 -60
[2] - المصدر السابق / ص60
[3] - أبو الأعلى المودودي / الحكومة الإسلامية / ط77 / ص139 , نقل عنه : د. عبد الغني عبود / ديناميات المجتمع ../ ص60

ومهما كانت آلية البقاء ، لا علاقة لها بأي قيمة مطلقة متجاوزة ، مثل الأمانة أو الأخلاق أو الجمال ، فالبقاء هو القيمة المحورية في المنظومة الداروينية التي تتجاوز الخير والشر [1].

¤نتيجة :

- إن المادية اليهودية بمدارسها وأشكالها المختلفة في واقعنا المعاصر ، هي صورة فعلية لما قدمه القرآن الكريم من حقائق في الصميم كشفت عن جوهر هذه الشخصية وملابسات تهيئتها لتقود لواء المنهج المادي في العالم .

- المواضيع التي اختارها أقطاب المدارس اليهودية في الفكر ليس الاهتمام بالإنسان من حيث مكمن إنسانيته التي سمت به عن سائر المخلوقات ، وإنما باعتباره آلة يتحرك بدوافع الغريزة الحيوانية

- المدارس المادية المعاصرة وإن تسترت بالعقل التجريبي نظرياً ، ولكنها فعلياً جمدت العقل وجعلته تبعاً للمادة ، وأوقفت نشاطه عند حيز تفاعلاتها المشاهدة فقط ، مما ولد إرباكاً واضحاً في الوظيفة الطبيعية للعقل البشري [2]

- إن الفكر المادي المعاصر كما طرحه اليهود ، لا يريد من الإنسان أن يقفز في ارتقائه المادي أو ينعم برفاهية العيش ، وإنما يريده شخصاً جامداً واقفاً سلبياً لا يتفاعل مع شؤون مجتمعه ، ويترك الحبل على غاربه ، ويدع الأجيال تحت رحمة المادية الطاغية بأفكارها المسمومة وأدبها المنحط ، فيترك المجتمع فريسة سهلة ولقمة سائغة أمام ذئاب الإنسانية ولصوص الدين ، هؤلاء الذين لا يفكرون إلا بعقلية الطوفان ، وهم لا يعرفون أنهم- وان أوشك غيرهم على الغرق- هم أول الهالكين فيه !

---

[1] - حول موضوع الداروينية المجتمعية , ينظر : د . عبد الوهاب المسيري / موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية /المجلد الأول / الجزء الرابع : تحت عنوان :العلمانية الشاملة / ص263

[2] يراجع في هذه النقطة في المصدر السابق : ص 265

☼ الخاتمة :

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ولوجهه تخلص القربات ، ثم إني لأرجو من خلال هذا الجهد المتواضع أن أكون قد تمكنت من إيصال فكرة البحث -التي تبقى ضمن منظورٍ اجتهادي- وصولاً إلى النتائج التالية :-

■ القاعدة القرآنية هي المنطلق الصحيح في فهم ودراسة وتقييم الأمور وتشكيل التصورات ومن ضمنها فهم شخصية اليهودي بكل جوانبها .

■ ما قرره القرآن في شأن اليهود هو ما سجله واقعهم في كل حين .

■ اهتمام القرآن الواضح بكشف مكنونات وجوانب الشخصية اليهودية وخاصة الجانب المادي فيها ، يفيدنا في تحديد معالم وطبيعة الصراع الذي نعيشه في كل حين ، ذلك الصراع القائم بين منهجين : الأول هو المنهج الإسلامي الذي يقوم أساسه على الإيمان بالغيب ويستلهم طريقه بمعالم ربانية ، والثاني هو المنهج المادي والذي يتعدد ويتلون بتسميات مختلفة تستحدث باستمرار، وأفضل من أُهِّل لتمثيله هم "اليهود".

■ في ضوء ما سبق ، فإن ما لمسناه في طبيعة السلوكيات اليهودية المعادية لكل ما هو مقدس ، يثبت أن الفكرة الدينية التي انتهت إليها الشخصية اليهودية هي قتل الدين !

■ لقد قدم القرآن بالبرهان القاطع والحجة الدامغة أن مبلغ وضوح القضية في النمط الفكري اليهودي منصب على ولائها التام والخالص والمتجرد للمادية كخيار وحيد .

■ إن الطريقة البديعة في تناول النظم الكريم لرسم معالم الشخصية اليهودية قدم لنا الأداة التي نقيس بها تفرد هذه الشخصية (أداة المنظور المادي) والتي من خلالها استطعنا إثبات قاعدة الاختصاص لهذه الشخصية في استبدالها العشق القلبي للمادية بكل ما تحمله صورها - ورمز لها (بحب العجل)- بالاستشعار الوجداني للمعبود في ذات المكان المخصص لغريزة إدراك المعنويات .

■ مفتاحُ فكِّ رموز وأحجيات هذا الشكل من التركيبة العجيبة التي حملتها الشخصية اليهودية هو "دافع عشق المادة" .

■ إن أهمَّ شيء يمكن قوله في وصف طبيعة المادية عند اليهود أنها في كيانهم وضمائرهم وتفكيرهم ، ودوافع مشاعرهم شهوة منبعها القلب ، وليست ديناً ، ومزاولتهم لها ليست مراسم عبادة ، بل هي مطاوعة للنفس فيما ترغب فيه* .

■ لقد رصد لنا القرآن الكريم المحطات السوداء في تفاعل هذه الشخصية مع الأنبياء والمعجزات، التي أدت إلى أن يستحقوا نتيجةَ : {وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ..} [البقرة : **93**]

■ وحيث أن مادة الفصلين السابقين الأساسية هي الشواهد القرآنية فقد لمسنا كيف أن هذا الحكم القرآني (إشراب قلوبهم مادية عجلية) لم يأت عبثاً ولا جوراً ، ففي تلك الشواهد ما يكفي لإثبات الحكم العادل فيهم باستحقاقهم لما وصلوا إليه في حضيض المادية المغرِقة !!

** ** **

"وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين"

* هذه الفكرة عبر عنها الشيخ العلامة " البهي الخولي " في كتابه : بنو إسرائيل في القرآن الكريم

فهرس الآيات

سورة البقرة

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ..إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين }	248-246	149
{فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ...}	251	71
	آل عمران	
{ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ...}	75	170+129
{ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ...}	77	171
{ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ ...}	78	130
{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا...}	93	45
{لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ...}	181	83+27
	النساء	
{وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ...}	10	55+32
{مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِه...}	46	51+44
{انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا }	50	164
{أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا }	53	170+167
{فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...}	60	44+3
{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاء...}	153	91+ 36
{وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا...}	155	51
{وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ...}	161	92+36
	المائدة	
{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...}	18	140
{وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَان..}	62-64	171+158

الشعراء

{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى ... سَيَهْدِينِ }	62-61	62

النمل

{ولقد آتينا داوود وسليمان علماً...}	15	73
{وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ...}	16	73
{فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا...}	19	74
{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ... أَثِيمٍ }	222-221	101

القصص

{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ...}	4	61
{فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا...}	48	86
{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار...}	68	57
{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى... لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِين}	77-76	169

الأحزاب

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى...}	9	68

سبأ

{يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْر...}	10	70

الصافات

{فأتبعه شهابٌ ثاقب }	10	97

ص~

{اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ... وَفَصْلَ الْخِطَاب}	20-17	70

فهرس الأحاديث الشريفة

المراجع

القرآن الكريم

أسود ، عبد الرزاق محمد أسود ، **المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب** ، الدار العربية للموسوعات ، ط **1988**م

الألوسي ، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، **روح المعاني تفسير القرآن والسبع المثاني** ، طبعة مصححه : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العالمية ، بيروت (1422ه – 2001 م)

إبراهيم ، ريكان ، **النفس والعدوان** ، دراسة نفسية اجتماعية في ظاهرة العدوان البشري، دار الشؤون الثقافية، العراق ، ط1 ، 1987م

إبراهيم ، موسى مطلق ، **وعد التوراة** ، مكتبة بيسان ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1994م

إدريس ، عمر جلاء ،**الشخصية اليهودية** ، دراسة أدبية مقارنة ، عين للدراسات ، القاهرة ، 1414ه - 1993م

أبو إسماعيل : صلاح ، **اليهود في القرآن الكريم** ، دار الصحوة ، مصر ،1980م

باكان، دافيد ، **فرويد والتراث الصوفي اليهودي** ، ترجمة : د. طلال عتريسي ، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ، ط2 ، 2002م

البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ، (194-256)ه صحيح البخاري ، المطبعة الكبرى الأميرية ، القاهرة ، 1897م

بدوي ، أحمد زكي ، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية** ، بيروت ، مكتبة لبنان ، 1978

البراوي ، راشد، **الموسوعة الاقتصادية** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1987م
بصري ، مهدي حسين ، **موسوعة الأديان** ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2001م

البقاعي ، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** ، خرج آياته وأحاديثه عبد الرازق المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت طبعة عام 1415 ه - 1995م

البلداوي ، عباس مهدي ، **الشخصية بين النجاح والفشل مكتبة النهضة العربية** ، بغداد ،1985م

البيضاوي ، ناصر الدين أبو سعيد بن عبد الله بن عمر الشافعي ، ت (685)ه ، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل،** دار إحياء التراث العربي

بومول ، د. وليم جاك بومول ، **علم الاقتصاد** ، الفصل السادس ، بعنوان : نظام الاقتصاد الحر ، ترجمة : سعيد السامرائي وآخرون ، مراجعة : د. حميد القيسي : مكتبة دار المتنبي ، بغداد ، ط 1964م

بيرغ ، ج. جولد بيرغ ، **القوة اليهودية** ، ترجمة خالد حداد، مركز الدراسات العسكرية ، دمشق 1988م

تركي ، د. عبد الفتاح ، **البناء الاجتماعي للأسرة** ، المكتب العلمي للنشر ، مصر

التل ، عبد الله التل ، **الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام** ، دار الإرشاد ، بيروت ، 1971

ابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني ، ت (728)ه ، **النبوة والأنبياء** ، تحقيق : د عبد العزيز الطويان ، دار العلم للجميع ، بيروت

جابر، خليل حسن ، **بنو إسرائيل والإفساد الأول والثاني** ، دار المحجة البيضاء ، ط2 ، عام 2003م

ابن جزى ، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (741-2929)ه ، **كتاب التسهيل في علوم التنزيل،** ج ا ، دار الفكر

ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (116 – 1201)ه ، **زاد المسير في علم التفسير** ، ط3 ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1984م

ابن أبي حاتم ، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي ، (240-327) هـــ ، **تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين** ، أسعد محمد الطيب محقق ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، الرياض ، 1997م

ابن حجر ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني الشافعي ، ت(852)ه ، **فتح الباري في شرح صحيح البخاري** ، دار الكتاب العربي ، بيروت

أبو حيان ، محمد بن يوسف الشهير بابي حيان الأندلسي الغرناطي (654-754)ه ، **البحر المحيط** ،ج 10 دار الفكر ، طبعة عام (1413ه - 1992م)

خاروف ، محمد فهد ، **الميسر في القراءات الأربع عشر** ، مراجعة محمد كريم راجح ، دار ابن كثير ، دمشق، ط3 ، 1422ه – 2001م

الخالدي ، صلاح عبد الفتاح ، **الشخصية اليهودية من خلال القرآن الكريم** ، دار القلم ، دمشق ،ط1 ، 1419ه – 1998م

الخشاب ، محمد ، **بروتوكولات حكماء صهيون** ، ترجمة محمد الخشاب ، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع ، 7 ش علام حسين الظاهر ، القاهرة

الخطيب ، عبد الكريم الخطيب ، **الله والإنسان** ، دار الفكر العربي، القاهرة ، 1971م

خفاجي ، محمد عبد المنعم ، **الإسلام وبناء المجتمع** ، دار الوفاء لدنيا الطباعة ، الإسكندرية ، مصر ، ط 2002م

ابن خمير ، أبي الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي ، **تتريه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء** ، تحقيق : د. احمد عببد الجليل الزبيبي، دار اين حزم ، دمشق ، ط1 ، 1424ه-2003م

الخولي ، البهي الخولي ، **بنو إسرائيل في ميزان القران** ، دار القلم ، دمشق ، 1424ه – 2003م

الدجاني ، زاهية راغب ، **الموقف اليهودي من (معجزة الإسراء والمعراج في التاريخ وانعكاساته على قضية المسجد الأقصى)**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، مطبعة الجامعة الأردنية ، عمان

ـــــــــــ.، **نفسية بني إسرائيل في القران الكريم** ، مطبعة الجامعة الأردنية ، طبعة عام 2001 م

ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (223 – 321 هـ) ، **الاشتقاق** ، الناشر لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، طبعة عام 1985م

ديب ، سهيل ، **التوراة بين الوثنية والتوحيد** ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1985م

ـــــــــــ.، **التوراة تاريخها وغاياها** ، دار النفائس ، ط2 ، 1972م ، بيروت ، لبنان

ديورانت ، ويل ، **قصة الحضارة** ، دار الجيل ، بيروت ،1988م

راجح ، عبد الغني ، **اليهود بين ظنية الدليل ومادية التأصيل** ، دار الزهراء ، ط 1997م

الرازي ، الفخر الرازي ، **التفسير الكبير** ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ،الطبعة الثانية منقحة ، 1417ه - 1997 م **والنبوات** وما يتعلق بها ، تحقيق د. احمد حجازي السقا مكتبة الكليات الأزهرية .

الرازي ، أبي بكر محمد بن أبي بكر الرازي (712)م ، **مختار الصحاح** ، تحقيق : محمود خاطر ، مكتبة لبنان ناشرون للنشر والتوزيع، طبعة عام (1415-1995)

الراغب ، أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني ، ت(502)ه ، **المفردات في غريب القران** ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت

رضا ، محمد رشيد ، ت(1354)ه ، **تفسير القرآن الحكيم ، المعروف ب (تفسير المنار)** ، الطبعة الثانية ، طبعة بالاوفست ، دار المعرفة ، بيروت

أبو الروس ، إيليا ، **اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية** ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1 ، 1993م

روبرت ود روث ، **مدارس علم النفس المعاصرة** ، ترجمة : د . كمال دسوقي ، دار النهضة ، بيروت ، ط1981م

الزَّبيدي ، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي ، **تاج العروس من جواهر القاموس** ، طعام 1984م

زكي ، د. أحمد كمال ، **النقد الأدبي الحديث** ، أصوله واتجاهاته ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط 1972م

الزعبي ، محمد ، **دقائق النفسية اليهودية** ، الحقوق للمؤلف ، طبعة 1968 ، بيروت

الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي (467-538)ه ، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** ، تحقيق عادل احمد عبد الموجود ، مكتبة العبيكات ، الرياض ، الطبعة الأولى 1418-1998م

زهران ، رفقي، **قصة الأديان (دراسة تاريخية مقارنة)** ، دار الكتب ، القاهرة ، 1980م

أبو زيد ، أحمد ، البناء الاجتماعي ، **مدخل لدراسة المجتمع** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط 1967

أبو السعود ، القاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي ت1951 ه ، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القران الكريم** ، وضح حواشيه : عبد اللطيف عبد الرحمن دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان

سعيد ، جودت سعيد ، **الشخصية اليهودية عبر التاريخ** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، طبعة عام 1985م

سعيد ، عبد الستار فتح الله ، **معركة الوجود بين القرآن والتوراة** ، دراسة علمية قرآنية ، دار الطباعة والنشر الإسلامية ، الطبعة الثالثة

سعيد ، يونس حسن ، **التعاليم الصهيونية** ، منشورات المكتب الإسلامي

السقا ، أحمد حجازي ، **البداية والنهاية لأمة بني إسرائيل** ، دار الكتاب العربي ، دمشق القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2004م

سكوت ، جون كريج سكوت ، **الحكومة السرية في بريطانيا** ، دار النصر ، القاهرة ، طبعة 1957م

السمعاني ، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار (426 - 489)ه ، **تفسير القرآن** ، **المعروف بتفسير السمعاني** ، تحقيق : أبي تميم ياسر بن إبراهيم ، أبي بلال غنيم بن عباس ، الرياض ، ط 1997

السهيلي ، عبد الرحمن بن الخطيب ، **التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام** ، مكتبة الأزهر ، القاهرة ، ط 1993م

سوسة ، أحمد سوسة ، العرب واليهود في التاريخ : **حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية**،سلسلة الكتب الحديثة ، العربي للإعلان والنشر والطباعة، دمشق ، 1973م

السيوطي ، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن ابي بكر الخضيري (849 – 911)ه ، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور** ، تعليق د.مصطفى البغّا ، دار ابن كثير ، دمشق، طبعة عام (1407ه -1987م)

ــــــــــــــــ.، **الإتقان في علوم القرآن** ، الناشر دار الفكر ، بيروت ، 1980م

الشامي ، رشاد ، **موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية** ، المكتب المصري ، ط 2002م

شفيق مقار ، **السحر في التوراة في العهد القديم** ، الناشر : رياض الريس ، لندن ، 1990م

ــــــــــــ.، **الجنس في التوراة وسائر العهد القديم** ، دار يعرب، دمشق : 1998

الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني ، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، 1983م

شلبي ، أحمد شلبي ، **اليهودية (مقارنة الأديان)** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1978م

ــــــــــــــــ.، **مقارنة الأديان** ،مكتبة النهضة المصرية ، ط4 سنة 1974م

شنودة ، زكي شنودة ، **المجتمع اليهودي** ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1970م

الشوكاني ، محمد بن علي محمد ، ت(1250)ه ، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير** ، دار الفكر ، بيروت ، سنة 1403ه – 1983م

شوكرمان ، باري ،**علم الاجتماع (النظرية والمفهوم)** ، ترجمة وتعليق **د.** محمد غريب ، ط5

الصابوني ، محمد علي الصابوني ، **النبوة والأنبياء (مكانة داوود)** ، ط2 ، (1400ه – 1980م)

صالح ، سعد الدين السيد ، **العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية** ، مكتبة الصحابة ، وحدة الشرفية ، مكتبة التابعين ،القاهرة ، الطبعة الثانية

الصالح ، **د.** محمد أديب ، **اليهود في القران والسنة بعض من خلائقهم** ، القسم الثاني ، دار الهدى للنشر والتوزيع ، ط (1414ه - 1993م)

الصليبي ، كمال سليمان ، **خفايا التوراة** ، دار الساقي ، طبعة 1988م

طبارة ، عبد الفتاح ، اليهود في القرآن ، **تحليل علمي لنصوص القرآن الكريم** ،بيروت دار الكتب العلمية، 1966م

الطبرسي ، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن م (584)ه ، **مجمع البيان في تفسير القرآن** ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت**.**

الطبري ، عضد الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن احمد ، **جامع البيان في تفسير القرآن** ، دار الفكر ، بيروت ، **1408**ه – **1988**م

طعيمة ، صابر عبد الرحمن ، **التراث الإسرائيلي في العهد القديم** ، رسالة جامعية ، القاهرة **.**

والتاريخ اليهودي العام ، الجزء الأول ، دار الجيل بيروت الطبعة الثانية ، ط (1403ه – 1982م)

طنطاوي ، محمد سيد (معاصر) ، **بنو إسرائيل في القرآن والسنة** ، دار الزهراء ، القاهرة ، ط1 ، 1407ه – 1987م.

ظاظا ، حسن ، **الفكر الديني الإسرائيلي ، مذاهبه و أطواره** ، قسم البحوث والدراسات الإسلامية ، ط 1971م

———— ، **الشخصية الإسرائيلية** ، دمشق ، دار القلم ، ط 1985 م

ابن عاشور ، محمد الطاهر ، ت (1284) ه ، **تفسير التحرير والتنوير** ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1984م

عامر ، عبد العزيز ، **بنو إسرائيل ، الشعب الذي كان مختاراً** ، مكتبة مدبولي ، مصر

العاني ، نزار العاني ، **الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، (1418ه – 1998م)

عباس ، فضل حسن ، سناء فضل عباس م. مشارك ، **إعجاز القران الكريم** ، الناشر : فضل حسن عباس ، عمان ، 1991م.

———— ، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته** ، دار الفرقان ، عمان ، 1987م

ابن عباد ، الصاحب بن عباد، أبو القاسم إسماعيل بن عباد، (326-385)هـ ، **المحيط في اللغة** ، عالم الكتب ، بيروت ، 1994م

عبد السلام : أحمد لطفي ، **جذور العنف والعنصرية في الفكر الديني اليهودي وامتداده إلى الدولة الإسرائيلية** ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، ط2002

عبود ، عبد السلام ، **ديناميات المجتمع المسلم** ، سلسلة الإسلام وأبجديات العصر (الكتاب العاشر) ، دار الفكر العربي ، ط1 ، 1980م

عبيد ، محمد رشدي عبيد، **النبوة في ضوء العلم والعقل** ، مكتبة تموز ، العراق ، نينوى ، لا تاريخ

ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله المالكي ، ت(543)ه ، **إحكام القرآن** ، تحقيق محمد علي البجاوي ، دار المعرفة ، بيروت

ابن عطية ، أبو محمد عبدا لحق بن عطية الأندلسي ،ت (541)ه ، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** ، تحقيق عبد الله الأنصاري والسيد عبد العال إبراهيم ، مؤسسة دار العلوم ، قطر ، ط1 (1402ه – 1982م)

العطار ، أحمد عبد الغفور ، **اليهودية والصهيونية العالمية** ، دار الاندلس ، بيروت ، 1972م

العقاد ، عباس محمود ، (**الله**) ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ط1 ، 1994م

العكبري ، محب الدين أبو البقاء عبد الله بن الحسين ، (538 – 616)ه ، **التبيان في إعراب القران** ، محمد حسين شمس الدين محقق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1998م

العلول ، جبر العلول ، **المواثيق والعهود في ممارسات اليهود قراءة في الفكر الديني والفكر السياسي اليهودي المعاصر** ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط1 ، 1424ه-2004م

علي ، علي عبد الجليل علي، **معالم عنصرية في الفكر اليهودي** ، دار أسامة، الأردن ، ط 2002م

علي ، فؤاد حسنين ، **اليهودية واليهودية المسيحية** ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1968م

علي ، قباري محمد علي ، **أسس علم الاجتماع** ، طبعة الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، 1985م

العيون ، د. محمد السيد عبد الرحمن العيون، **مقومات الشخصية الإسلامية** ، جامعة الزقازيق ، دار قباء للنشر ، القاهرة ، طبعة عام 1998م

الغزالي ، محمد ، **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية** ، كتاب الأمة (1) ، مطابع الدوحة الحديثة ، ط1402هج

غنيم ، عبد الرحمن غنيم ، **اليهود بين القرآن والتوراة ومعطيات التاريخ القديم** ، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين ، دار الجيل ، دمشق ، ط1 ، 2000م

غنيمي ، **د.** مصطفى غنيمي ، **التصوير القرآني لشخصية اليهودي** ، دار الاتحاد التعاوني ، مصر ، ط1 ، 2003م

الفاتح ، زهدي الفاتح ، **يهود اليوم ليسوا يهوداً (سلسلة اليهود والعالم)** ، دار النفائس ، بيروت ، 1974م

ابن فارس ، أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا القزويني (312 – 395)ه ، **معجم مقاييس اللغة فارس :** القس فايز فارس ، مجيء المسيح ثانية ، دار الثقافة المسيحية ، القاهرة عام 1969م ، طبع بالتعاون مع مجمع الكنائس للشرق الأدنى

الفراهيدي ، الخليل بن أحمد (100 – 170)ه ، **كتاب العين (أول معجم في اللغة العربية)** ، مطبعة العاني ، بغداد ، 1967م

فريزر ، جيمس ، **الفلكلور في العهد القديم** ، ترجمة نبيلة إبراهيم ، مراجعة حسن ظاظا ، الجزء الأول ، طبعة القاهرة ، عام 1972م

فوزي ، **د.** إيمان ، **التشخيص النفسي** ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة

الفيروزأبادي ، مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب ، ت(817)ه ، **القاموس المحيط** ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط5 ، 1416ه – 1996م

القاسم ، محمد ، **التناقض في تواريخ وأحداث التوراة** ، ط 1992 ، جامعة قطر

القاسمي ، محمد جمال الدين ، ت(1322)ه ، **محاسن التأويل** ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ط 1 ، (1415ه - 1994م)

القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، **الجامع لأحكام القرآن** ، دار الشعب ، القاهرة

قطب ، سيد ، **في ظلال القرآن** ، دار الشروق ، الطبعة التاسعة ، (400ه-1980 م)

قطب ، محمد، **الإنسان بين المادية والإسلام** ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر ، ط1960م

قعفراني ، د.سليمان ، **أزمة الانتماء اليهودي** ، دار المنهل ، بيروت ، 2005م

الكرباسي ، حسن ، **مطالعات في الكتب المقدسة (التوراة الإمبريالية)** ، دار الكنوز الأدبية ، طبعة عام 1997 ، بيروت ، لبنان

ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، ت(774)ه ، **تفسير القرآن العظيم** ، دار الفكر بيروت ، ط2 ، 1403ه – 1983م

" **الكتاب المقدس**" ، كتب الشريعة الخمسة ، دار المشرق ، بيروت ، ط 1987م

كريدتس ، جوناثان ، **حكايا محرمة في التوراة** ، ترجمة نذير جرجاني ، نينوى للدراسات والنشر ، ط1 (2003م)

ليون ، أبراهام ، **المفهوم المادي للمسألة اليهودية** ، ترجمة : عماد نويهض ، دار الطليعة ، بيروت،ط 1969م

مارش ، القس وليم ، **السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم** ، صادر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى ، بيروت ، ط1973

المجالي ، محمد خازر ، **الآيات المادحة لأهل الكتاب (عرض وبيان)** ، بحث لمجلة دراسات (علوم الشريعة والقانون) ، الجامعة الأردنية ، المجلد 31 ، العدد(1) ، 2004م

محمد ، محمد قاسم ، **التناقض في تواريخ وأحداث التوراة من آدم حتى سبي بابل** ، جامعة قطر ، مطابع ستار برس ، الهرم ، طبعة عام 1992م

المدرسي ، هادي ، **عن الإنسان والمادية الداروينية** ، دار التعارف ، بيروت ، ط1 ،1987م

المراغي ، أحمد مصطفى ،ت 1371ه (تفسير معاصر) ، **تفسير المراغي** ، دار الفكر ، بيروت ، ط3 ، 1394ه – 1974م

مردة ، حسين ،**النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية** ، دار الفارابي بيروت ، ط 1979م

مرسي ، سيد عبد الحميد مرسي ، **الشخصية السوية** ، مكتبة وهبة ، عابدين ، مصر ، ط1 ، 1406ه - 1985م

مسلم ، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري ، ت(261)ه ، **صحيح مسلم** ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت

مسلم ، مصطفى مسلم ، **مباحث في التفسير الموضوعي** ، دار القلم ، ط3 ، 1421ه – 2000م

المسير ، محمد سيد حميد ، **المدخل لدراسة الأديان** ، دار الندى ، ط1 ، 1421ه – 2001م

المسيري ، عبد الوهاب ، **البروتوكولات واليهودية الصهيونية** ، دار الشروق ، القاهرة ، ط1 ، 2003م

—————— .، **اليد الخفية** ، دراسات في الحركات اليهودية ، دار الشروق ، ط1 ، 1418ه - 1998م.

—————— .، **موسوعة اليهود واليهودية** ، المجلد الأول والثاني ، دار الشروق

مصري ، عبد السميع مصري ، **منهاج الإسلام في حياة الفرد والمجتمع** ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط1 ، 1415ه - 1994م

مظهر ، سليمان مظهر، **قصة العقائد** ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1962م

المعلم ، عادل ، **التوارة والقرآن مقارنة نصية** ، مكتبة الشروق ،القاهرة ، طبعة عام 1420ه – 1999م

المغربي ، عبد الحق الإسلامي المغربي ، **الحسام الممدود في الرد على اليهود** ، تحقيق وتعليق د. عمرو وفيق الداعوق ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان

المقريزي ، تقي الدين المقريزي (766-845)ه - (1364-1442)م ، **تاريخ اليهود وآثارهم في مصر** ، تحقيق د. عبد المجيد دياب ، دار الفضيلة

موسى ، عبد الفتاح تركي ، **البناء الاجتماعي للأسرة** ، المكتب العلمي للنشر ،الاسكندرية ، مصر ،1997

الميداني ، عبد الرحمن حبنكه ، **مكائد يهودية عبر التاريخ** ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الخامسة 1985م
و العقيدة الإسلامية وأسسها ، دار القلم ، دمشق ، ط7 ،1994م

ناجي ، سيد ناجي ، **المفسدون في الأرض (جرائم اليهود السياسية)** ، العربي للإعلان والنشر والطباعة ، دمشق ، ط2 ، 1976م

ميدنيكوف ، ب . م . ميدنيكوف ، **داروينية القرن العشرين** ، ترجمة : د. محمد أحمد شومان ، سلسلة العلوم الاجتماعية (دفاتر الفلسفة (6)) ، ، دار الفارابي ، ط 1982م

(هيئة التحرير) نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين ، **قاموس الكتاب المقدس**

نصر الله ، يوسف نصر الله ، **الكنز المرصود في قواعد التلمود** ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، 1899م

نوري ، محمد عقيل ، **الفعل الاجتماعي** ، دراسة تحليلية من منظور إسلامي ، دار الكندي ، ط 2002م

الهابط ، محمد السيد ، **التكيف والصحة النفسية** ، ط2 ، المكتب الجامعي ، الإسكندرية
————.، **الصحة النفسية** ، المكتب الجامعي ، مصر ، 1987م

هلال ، محمد إبراهيم ، **يأجوج ومأجوج الخزر ... إسرائيل** ، ط1، دار البشير

همو ، عبد المجيد ، **كيف نشأت اليهودية** ، مراجعة وتدقيق إسماعيل الكردي ، مكتبة الأوائل ، ط1 ،2003م

وافي ، علي عبد الواحد ، **اليهودية واليهود** ، بحث في ديانة اليهود وتاريخهم ، مكتبة غريب ،1970 م

يولو ، محمد علي يولو : **مصرع الدارونية** ، دار الشرق الأوسط ، ط1 ، 1983م

THE MATERIALISTIC SIDE OF THE JEWISH PERONALITY IN THE H0LLY QURAN

By
Ala” M.I. Asha

Supervisor
Dr. Ahmad Nofal

ABSTRACT

This theses is a topical study in Quran clarifying a side of the jewish Personality as explained in the holly Quran which is the materialistic side، throw which a complete view of the jewish materialistic extended personality among its intellective thoughts with its reflections on jewish way of life.

As an entrance to the study ‘Personality’، “materialistic”، and “Jewish” concepts are discussed، The linguistic and orismologic roots of the “Jewish” concept is explained، and its relation with what is called “ Bani- Israel” distinguishing between them and their denotations.

The study comes in tow chapters :

Chapter one; focuses – throw Quran - on the Jewish materialistic perception of the followings :

a- God
b- Messengers
c- Miracles
d- Resurrection day

A previewed look to the psychological studies about these concepts is included in this study.

These Quranic modules form a notarial witness records penetrating the materialistic in the jewish thoughts to the point of loosing feeling of incorporeal.

Chapter tow stops at several Quranic modules that tells actions
and the criteria that ،expresses the nature of the jewish behaviors controls their economic and social interactions in their life.
As an outcome of this chapter jewish burst as an adamic platoom who command the campaign of enmity to religion and human instinct.